توجيهات نبوية

على الطريق

الجزء الثالث

د. السيد محمد نوح

دار اليقين للنشر والتوزيع

دار اقرأ للنشر والتوزيع

توجيهات نبويّة على الطريق

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع : ١٥٥٦١/ ٢٠٠٣

I.S.B.N. : 977 / 338 / 085 / 8

دار إقـرأ للنشر والتوزيع

دار اليقين للنشر والتوزيع

المنصورة . ش عبدالسلام عارف

الكردون الخارجي . سوق الجملة

بجوار معارض الشريف

ص.ب ٤٥٦ المنصورة ٣٥٥١١

هاتف وفاكس ٢٢٥٥٢٤١ / ٠٥٠ / ٠٠٢

جوال ٠١٠١٥٧٥٨٥٢

البريد الإلكتروني : Elyakeen@hotmail.com

المكتبة : مساكن الشناوي . سور مسجد التوحيد

هاتف ٢٢١١٠٠٣ / ٠٥٠ / ٠٠٢

توجيهات نبويّة على الطريق

الجزء الثالث

تأليف

الدكتور السيد محمد نوح

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله، وأصحابه،.والسَّالكين سبيله، والدَّاعين بدعوته إلى يوم الدين.

وبعـد..

فهذا هو **الجزء الثالث** من كتاب: «**توجيهات نبويّة على الطريق**» تشرق شمسه على الأمَّة الإسلاميَّة، وهي تعيش محنة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، منذ أُخْرِجَتْ للناس حتى يومنا هذا، حاملاً في طياته توجيهات من الهدي النبوي على طريق الخلاص، واستعادة مركز الإمامة والقيادة للبشريّة، تلك التي كانتْ لها أول مرَّة، راجيًا من الله القبول، ومن المسلمين الدعاء، إن ربي سميع الدعاء.

وكتبه

أ.د. السيد محمد نوح

الكويت: ١٢ من جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ

١٢ من يوليو ٢٠٠٣م

الحديث الحادي والثلاثون

عن معاوية بن حيدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عينٌ حرستْ في سبيل الله، وعينٌ بكتْ من خشية الله، وعينٌ كفتْ عن محارم الله».

تخريج الحديث:

الحديث **أورده المنذريُّ** في: الترغيب والترهيب: كتاب التوبة والزهد: باب الترغيب في البكاء من خشية الله تعالى ٤/ ٢٣٠ من حديث معاوية بن حيدة مرفوعًا، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني، ورواته ثقات، إلا أنَّ حبيب العنقري لا يحضرني الآن حاله».

وأورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب الجهاد: باب الحرس في سبيل الله ٥/ ٢٨٨ من حديث معاوية بن حيدة مرفوعًا، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني، وفيه أبو حبيب العنقري، ويقال: القنوي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

المعنى العام للحديث:

رسالة الإنسان بَلْهَ المسلم في هذه الأرض ليستْ بالأمر الهيِّن ولا باليسير، إذ هو مطالب أن يعبِّد نفسه لله فيعمر هذه الأرض، وينزل على حكم الله في كلِّ ما يأتي وما يدع، ويزيد المسلم على ذلك أنَّ عليه أن يقوم بواجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجاهدة الكفَّار والمنافقين الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، مجاهدًا بذلك نفسه الأمارة بالسوء،

وشياطين الإنس والجن، والدنيا بشدائدها وامتحاناتها، بزخارفها وزيناتها، مستمراً في هذه المجاهدة إلى أن يلقى الله، دون انحراف أو تبديل، وذلك فيه من الصعوبة والمشقة، والتعب ما فيه.

ولا يستعذب الإنسان بَلْهَ المسلم هذه الصعوبة، ولا تهون عليه تلك المشقات والمتاعب إلا إذا كان الثمن الذي يتقاضاه أكبر، وأعظم من هذه الصعوبات، وتلك المشقات والمتاعب.

والحديث الذي نحنُ بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن نوعاً غالياً من الثمن يُعطاهُ المرء المسلم حين يجاهد نفسه في الالتزام بثلاثة أنواع من الطاعات والتكاليف، متحملاً بذلك المشاق والمتاعب.

أمَّا هذه الطاعات وتلك التكاليف؛

فأولها: السهر في الحراسة في سبيل الله: حماية للمجاهدين، وحماية للثغور، وحماية للحقّ، وصيانة للدماء والأموال والأعراض ونحوها، إذ يقول ﷺ: «عينٌ حرستْ في سبيل الله».

وثانيها: البكاء إجلالاً وتعظيماً وخشيةً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذ يقول ﷺ: «وعينٌ بكتْ من خشية الله».

وثالثها: غض البصر، وكف الطرف عن محارم الله، إذ يقول ﷺ: «وعينٌ كَفَّتْ عن محارم الله».

وأمَّا الثمن فهو صيانة العين على اعتبار أنها العضو الذي تعب وتحمل المشاق في سبيل إتيان هذه الطاعات وتلك التكاليف، صيانتها عن أن ترى النار فضلاً عن أن تُعذَّب بها، وإذا سَلِمَتْ العين من رؤية النار والتعذيب بها، سَلِمَ صاحبها وحاملها من باب أولى، إذ لا يُعقل أن تسلم العين من ذلك، ويعذب صاحبها، يقول ﷺ: «ثلاثة لا ترى أعينهم النَّار».

وحتىٰ تبرز معالم الحديث بصورة أجلىٰ وأوضح فإننا سنعرض له من هذه الجوانب:

الجانب الأول: مفهوم العدد في قوله ﷺ: «ثلاثة لا ترىٰ أعينهم النار...» وجمال هذا التعبير.

الجانب الثاني: معنىٰ الحراسة في سبيل الله وصورها وأهميتها، مع ذكر بعض النصوص الأخرىٰ الواردة في فضل الحراسة في سبيل الله.

الجانب الثالث: معنىٰ خشية الله، والفرق بينها وبين الخوف والخشية ومظاهرها، مع ذكر بعض النصوص الأخرىٰ الواردة في فضل البكاء من خشية الله.

الجانب الرابع: معنىٰ كف العين عن محارم الله وفوائده، مع ذكر بعض النصوص الأخرىٰ الواردة في فضل غض الطرف عن محارم الله.

الجانب الأول: مفهوم العدد في قوله ﷺ: «ثلاثة لا ترى أعينهم النار...» وجمال هذا التعبير:

والعدد في قوله ﷺ: «ثلاثة لا ترىٰ أعينهم النار» لا مفهوم له، بدليل ورود الأحاديث بخصال أخرىٰ غير هذه الثلاثة توجب لصاحبها السَّلامة من النار، ومنها قوله ﷺ: «ثلاثة أعين لا تمسُّها النار: عين فقئتْ في سبيل الله، وعينٌ حرست في سبيل الله، وعينٌ بكت من خشية الله»[1]، وقوله ﷺ: «عينان لا تمسُّهما النار: عين بكت مِنْ خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله»[2].

فحصل مِنْ مجموع الحديثين مع حديث الباب أربع خصال: توجب لصاحبها السَّلامة من النار: المعبَّر عنها بسلامة العين من أن تمسها النار وهي: كف العين عن محارم الله، والبكاء من خشية الله، والسَّهر للحراسة في سبيل الله، وذهاب العين فداءً لدين الله.

---

(١) الحديث هو حديث الباب، وسبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

وجمال هذا التعبير أنه نيَّة بالأدنى على الأعلى، يعني أنَّ مَنْ لم ير النَّار فإنه يسلم من التعذيب بها من باب أولى، كما أطلق الجزء وأراد الكل، يعني إذا سلمت العين من رؤية النار، سلم صاحبها، إذ الأعضاءُ يتداعى بعضها إلى البعض في الشدة وفي الرخاء.

الجانب الثاني: معنى الحراسة في سبيل الله وصورها وأهميتها، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة في فضل هذه الحراسة:

والحراسة في سبيل الله تعني: حماية المسلمين وثغورهم، وديارهم من عدوان المعتدين، وتطاول المتطاولين بكل ما يمكن من أساليب ووسائل، شريطة ألاَّ تتعارض هذه الأساليب، وتلك الوسائل مع مبادئ الدين الحنيف، ولذلك صور، منها:

١ ـ تعليم المسلمين، وتفقيههم أمر دينهم، وإطلاعهم على خطط ومكائد العدو، وكيفية إحباط هذه الخطط، وتلك المكائد، كيلا يُؤْتَى المسلمون من قِبَل أنفسهم، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٢).

٢ ـ تربية المسلمين على الالتزام بالإسلام الحقِّ، كلٌّ في ميدانه، الرَّاعي مع رعيته، والرَّجل في أهله، والمرأة في بيت زوجها ومع ولده، والخازن في مال سيِّده، والجار مع جاره، والأخ مع أخيه، وهلمَّ جرا...

٣ ـ والمرابطة على الثغور والأطراف المتاخمة للعدو، والتي يخشى منها التسلل إلى بلاد المسلمين، وإيذائهم في دمائهم، وأعراضهم، أموالهم، وأوطانهم، ومقدَّساتهم.

٤ ـ حماية المجاهدين وقيادتهم في ميدان الجهاد، بأعين ساهرة مفتوحة، وهِمَّة مجموعة، وأذان صاغية واعية، وأعصاب صاحية منتبهة، وقلب حاضر

٥ ـ القيام على أُسَرِ المجاهدين بتوفير حاجياتهم من طعام وشراب ولباس، وسكنى، وتعليم، وتطبيب، وأمن، ونحو ذلك، حتى يرجع هؤلاء المجاهدون من ميدان الجهاد. . . إلى غير ذلك من الصور.

وتظهر أهمية هذه الحراسة في أنها تكون سببًا في تأمين المسلمين على دينهم، ودمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وذرياتهم، ومقدَّساتهم وأوطانهم كيلا يتطاول عليها المتطاولون، أو يعبث بها العابثون، الأمر الذي يساعد المسلمين في النهاية ويمكنهم من أداء واجبهم بإتقان فتبقى لهم الشهادة على العالمين.

وقد وردت أحاديث أخرى في فضل هذه الحراسة غير هذا الحديث، منها حديث فضالة بن عبيد مرفوعًا: «كل ميِّت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنَّه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمَّن فتنة القبر»(١).

وحديث أبي هريرة مرفوعًا: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»(٢).

وحديث سهل بن سعد مرفوعًا: «رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها»(٣).

وحديث سلمان مرفوعًا: «رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجْرِيَ عليه رزقه، وأَمِنَ الفتَّان»(٤).

وحديث أبي هريرة مرفوعًا: «مَنْ مات مرابطًا في سبيل الله أَجْرَى عليه

(١، ٢، ٣، ٤) هذه الأحاديث الأربعة سبق تخريجها في: الجزء الثاني: الحديث الخامس والعشرين.

أَجْرَ عمله الصالح الذي يعمل، وأَجْرَىٰ عليه رزقه، وأَمِنَ من الفتَّان، وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع»[1].

وحديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أجر الرباط فقال: «مَنْ رابط ليلةً حارسًا مِنْ وراء المسلمين كان له أجر مَنْ خلفه، مِمَّنْ صام، وصلَّىٰ»[2].

وحديث سهل بن معاذ، عن أبيه مرفوعًا: «مَنْ حرس وراء المسلمين متطوعًا لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم»[3].

وحديث العرباض بن سارية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ينقطع

---

(١) الحديث **أخرجه ابن ماجة** في: السُّنن: كتاب الجهاد: باب فضل الرباط في سبيل الله ٢/ ٩٢٤ رقم ٢٧٦٧ وهذا لفظه، وعقَّب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة، بقوله: «إسناده صحيح، معبد بن عبدالله بن هشام ذكره ابن حبان في: الثقات، ويونس بن عبدالأعلىٰ، أخرج له مسلم، وباقي رجال الإسناد علىٰ شرط البخاري»، **وأورده المنذري** في: الترغيب والترهيب: كتاب الجهاد: باب الترغيب في الرباط في سبيل الله [١/ ٣٦٨ رقم ٦٥٥ المنتقىٰ] من حديث أبي هريرة، وعقَّب عليه بقوله: «رواه ابن ماجة بإسناد صحيح، والطبراني في الأوسط أطول منه».

(٢) الحديث **أورده المنذري** في: الترغيب والترهيب: كتاب الجهاد: باب الترغيب في الرباط في سبيل الله [١/ ٣٦٨ رقم ٦٥٦ المنتقىٰ] من حديث أنس بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط بإسنادٍ جيد»، كما **أورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب الجهاد: باب في الرباط ٥/ ٢٨٩ من رواية أنس أيضاً، وبلفظه، غير أنَّه قال: «يوماً» بدل: «الليلة» ثم عقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

(٣) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨ من طريق ابن لهيعة، ورِشْدين كلاهما عن زياد، عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه مرفوعاً بلفظ: «مَنْ حَرَسَ من وراء المسلمين في سبيل الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ متطوعاً لا يأخذه سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلّة القسم، فإن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ يقول: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾»، وعقَّب عليه الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب الجهاد: باب الحرس في سبيل الله ٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ بقوله: «رواه أحمد، وأبو يعلىٰ، والطبراني، وفي أحد إسنادي أحمد، ابن لهيعة، وهو أحسن حالاً من رِشْدين».

عن صاحبه إذا مات إلا المرابط في سبيل الله، فإنَّه يُنمَّى له عمله، ويُجرىٰ عليه رزقه إلىٰ يوم القيامة»[1].

وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعًا: «عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكتْ من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله»[2].

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث.

الجانب الثالث: معنى خشية الله، والفرق بينها وبين الخوف والخشية ومظاهرها، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة في فضل البكاء من خشية الله:

ومعنىٰ خشية الله: خوفه الناشئ من معرفته سبحانه، ومعرفة كمال نعمته مع الشعور بالتقصير في شكر هذه النعمة، خوفًا يؤدي إلىٰ أن تلين الجلود والقلوب بذكر الله، والعينان بالبكاء.

والفرق بين الخشية والخوف: أن الخشية أشدُّ من الخوف، إذ هي تكون من عِظَم المخشيِّ، وإن كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا[3].

يقول ابن القيِّم: [والخشية أخصّ من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»، فالخوف حركة، والخشية: انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرىٰ العدوَّ والسَّيْل، ونحو ذلك، له حالتان: إحداهما: حركة للهروب منه، وهي حالة الخوف،

---

(١) الحديث أورده المنذري في: الترغيب والترهيب: كتاب الجهاد: باب الترغيب في الرباط في سبيل الله [١/ ٣٦٨ رقم ٦٥٤ المنتقى]، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الكبير بإسنادين، رواة أحدهما ثقات»، وكذا قال الهيثمي في: مجمع الزوائد: ٥/ ٢٩٠.

(٢) الحديث سبق تخريجه في: الجزء الثاني: الحديث الرابع والعشرين.

(٣) انظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي، ص ٤٢٨.

والثانية: سكونه، وفراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية، ومنه: انخش الشيء، والمضاعف، والمعتل أخوان، كتقضّى البازي، وتقضض... فصاحب الخوف، يلتجئ إلى الهرب، والإمساك، وصاحب الخشية، يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل مَنْ لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية، والأدواء»(١).

ومن المظاهر التي تعرف بها الخشية لله غير البكاء الوارد في الحديث القيام بحقّ الله كاملاً مع الإشفاق ألا يقبل ذلك، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١).

تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: قلتُ يا رسول الله! قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أهو الذي يزْني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنَّه الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف ألا يُقبَل ذلك منه»(٢).

وقال الحسن: «عملوا لله بالطَّاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُردّ عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءةً وأمنًا»(٣).

---

(١) انظر: تهذيب مدارج السالكين للأستاذ: عبد المنعم صالح، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السنن: كتاب التفسير: ومن سورة المؤمنون ٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم ٣١٧٥، **وابن ماجة** في: السُّنن: كتاب الزهد: باب التوقي على العمل ٢/ ١٤٠٤ رقم ٤١٩٨، وأحمد في: المسند ٦/ ١٥٩، ٢٠٥ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً، واللفظ لابن ماجة وأحمد.

(٣) انظر: تهذيب مدارج السالكين، ص ٢٦٩.

وقد جاءتْ نصوصٌ أخرىٰ غير حديث الباب في فضيلة البكاء من خشية الله، منها قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (المائدة: ٨٣ـ٨٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٧ـ١٠٩).

وقوله ﷺ: «مَنْ ذكر الله، ففاضتْ عيناه من خشية الله حتىٰ يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه الله تعالىٰ إلىٰ يوم القيامة»(١).

وقوله ﷺ: «ليس شيء أحب إلىٰ الله من قطرتين، وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تراق في سبيل الله، وأمَّا الأثران: فأثرٌ في سبيل الله، وأثرٌ في فريضة من فرائض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»(٢).

وقوله ﷺ: «إذا اقشعرَّ جلد العبد من خشية الله تحاتتْ عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»(٣).

وإنَّما كان البكاء من خشية الله موجبًا لصاحبه النجاة من النار فلا تمسُّه النار أبدًا، لاسيما هذه العين الباكية، لأنه صار علامة علىٰ الاعتراف لله بكامل الربوبية والألوهية، واتهام النَّفْس بالتقصير، والتفريط في جنب الله، فأشبه ذلك ما قاله يونس وهو في بطن الحوت: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ....﴾ (الأنبياء: ٨٧ـ٨٨).

(١، ٢، ٣) هذه الأحاديث الثلاثة سبق تخريجها في: الجزء الثاني: الحديث الرابع والعشرين.

كما أشبه التوبة النصوح الواردة في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

والتوبة النصوح لا جزاء لها - كما نعلم - إلا تكفير الذنوب، بل تبديلها بالحسنات، إذ يقول سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان: ٧٠-٧١).

الجانب الرابع: معنى كف العين عن محارم الله وفوائده، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة في فضل كفّ الطرف عن محارم الله:

ومعنى كفّ العين عن محارم الله: منع هذه العين من النظر إلى ما حرَّمه الله عليها، فلم تتطلع أو تنظر إلى شيء من ذلك امتثالاً لأمر الله، وجاء في رواية أخرى: «وعينٌ غَضَّتْ عن محارم الله»، أي: خفضتْ، وأطرقتْ[1]، والمعنى واحد، ولهذا الكفّ أو لهذا الغضّ صور، منها:

١ - منع العين، من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من المحارم إلا لضرورة من تطبيب، أو إنقاذ، ونحوهما.

٢ - منع العين كذلك من النظر إلى نعمة الغير مِمَّن هو أهل لها من المؤمنين نظرة حقد، وحسد.

٣ - ومنع العين من النظر أو التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا تطلعًا يجعل لها سيطرة أو سلطانًا على القلب.

---

(١) انظر: فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٢٣ بتصرف.

قال تعالى: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ.. ﴾ (الحجر: ٨٨)

قال ابن عباس: [﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ نهى الرجل أن يتمنَّى ما لصاحبه]، وقال مجاهد: [﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾، هم الأغنياء][1].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه: ١٣١).

وعن عمر بن الخطاب: أنَّه دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساؤه حين آلى منهنَّ فرآه متوسِّدًا، مضطجعًا على رمال حصير، وليس في البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ واهية[2] معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال: له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟»، فقال: يا رسول الله، إن كسرىٰ وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، فقال: «أفي شكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟، أولئك قومٌ عُجِّلَت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»[3].

وفوائد كفُّ العين عن محارم الله:

١ ـ قطع الطريق على الشيطان أن يدخل إلى القلب فيفسده.

٢ ـ أن يظل المرء مجموع الهمَّة، حاضر العقل والفؤاد، منتبه الأعصاب.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٨.

(٢) **الصُّبْرَةُ** هي: ما جُمِعَ من الطعام بلا كيل ووزن، وهي الطعام المنخول، وهي الحجارة الغليظة المجتمعة [القاموس ٢/ ٩٥ مادة: صبر].

والقرظ: ورق شجر شائك اسمه: «السلم» يستعمل في دبغ الجلود [انظر: القاموس ٢/ ٥٨٦ مادة: قَرَظَ].

ومراد عمر ـ رضي الله عنه ـ أن بيته ﷺ كان خاويًا ليس فيه شيء سوىٰ وعاء واهٍ معلق به هذه الأوراق التي تدبغ بها الجلود، وهو رسول الله ﷺ وأكرم الخلق على الله، بينما بيوت كسرىٰ وقيصر تكاد تغص بالحرير، والنعيم، وهما أبغض الخلق إلى الله.

(٣) الحديث أورده ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٩٩ [مختصر تفسير ابن كثير]، قائلاً: «وفي الصحيح» وساقه، وأصله في: صحيح البخاري.

٣ ـ سلامة القلب، وسكينة وطمأنينة النفس، بحيث يجد المرء لذّةً أو حلاوةً للإيمان.

٤ ـ عدم التعلق بالحياة الدنيا، والركون إليها، والاطمئنان بها.

وقد جاءت نصوص كثيرة في فضيلة الكف عن محارم الله غير ما ورد في الحديث، منها قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ...﴾ (النور: ٣٠ـ٣١).

وقوله ﷺ: «إياكم، والجلوس في الطرقات»، قالوا: يا رسول الله ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نقعد فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «غضُّ البصر، وكف الأذىٰ، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(١).

وقوله أيضًا: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، فمن تركه من مخافة الله أبدله الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»(٢).

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلىٰ محاسن امرأة، ثم يغضُّ بصره إلا أخلف الله له عبادةً يجد حلاوتها»(٣).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المظالم: باب أفنية الدور، والجلوس فيها، والجلوس علىٰ الصعدات، ص ٣٩٧، رقم ٢٤٦٥، **وأبو داود** في: السُّنن: كتاب الأدب، ص ٦٨١ رقم ٤٨١٥، كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) الحديث **أورده ابن كثير** في تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٨٢، وعزاه للطبراني من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، **وأورده الهيثمي** في: المجمع ٨/ ٦٣ وعزاه للطبراني وعقَّب عليه بقوله: «وفيه عبدالله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف».

(٣) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٥/ ٢٦٤ [ص ١٦٤٧ رقم ٢٢٦٣٤ من حديث أبي أمامة =

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا : «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضَّتْ عن محارم الله، وعينًا سَهَرَتْ في سبيل الله، وعينًا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»(١).

أما غضُّ البصر خاصة فله فوائد، نذكر منها :

١ ـ قوة الإيمان وحلاوته، كما نطقتْ بذلك الأحاديث المذكورة آنفًا.

٢ ـ الحماية من التشتت الذهني مع القدرة على حضور القلب وجمع الهمة إذ مَنْ يُطلق العنان لبصره يُبتلى بالتشتت الذهني، وعدم القدرة على حضور القلب، وجمع الهمة.. ومن يجاهد نفسه ويغض طرفه فإن الله سبحانه يمنُّ عليه بحضور القلب، وجمع الهمة مع الحماية من التشتت الذهني.

٣ ـ التوفيق إلى مزيد من الطاعات، وأعمال البرِّ والمعروف، لحديث أبي أمامة المُخَرَّج في : المسند، المذكور قريبًا، الأمر الذي ينتهي إلى النور والفراسة.

٤ ـ النجاة من الحزن والبكاء يوم القيامة، بل الظفر بالفرح والسرور لحديث : «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضتْ عن محارم الله...».

يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ : «ولهذا يقول : إن غضَّ

=مرفوعًا بهذا اللفظ]، **وأورده الهيثمي** في : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب غض البصر ٨/ ٦٣، وعزاه إلى أحمد، **والطبراني** إلا أنه قال : «ينظر إلى امرأة أول وقعة»، وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك، **وأورده ابن كثير** في تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٨٢ وعقب بقوله : «ولكن في أسانيدها ضعف، إلا أنها في الترغيب ومثله يتسامح فيه».

(١) الحديث **أورده ابن تيمية** في : دقائق التفسير : ٤/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا من حديث عمر بن محمد بن صهبان، عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة بهذا اللفظ، **وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني** في : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها كالمرأة، والأمرد يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

أحدها: حلاوة الإيمان، ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه الله، فإنَّ مَنْ ترك شيئًا لله، عوضه الله خيراً منه. . .»[1].

وأما **الفائدة الثانية في غض البصر**، فهو يورث نور القلب، والفراسة. . وَذَكَرَ الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر، فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾، وكان شاه بن شجاع الكرماني - سليل بيت الملك، جليس العلماء كأبي تراب النخشبيِّ، وغيره، معروف بالعلم والمجاهدة (ت قبل الثلاثمائة) - لاتُخطئ له فراسة، وكان يقول: مَنْ عَمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تُخطئ له فراسة، والله يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، فيطلق نور بصيرته، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة، والكشوف، ونحو ذلك مما يُنال ببصيرة القلب.

الفائدة الثالثة: قوة القلب، وثباته، وشجاعته، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، فإن في الأثر: «الذي يخالف هواه، يفرق الشيطان من ظله»، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذُلِّ النفس، وضعفها، ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، وإن الله جعل العزَّة لمن أطاعه، والذلَّة لمن عصاه، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، ولهذا كان من كلام الشيوخ: الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله، وكان الحسن البصري يقول: إن هملجتْ بهم البراذين، وطقطقتْ بهم البغال، فإن ذل المعصية في

---

(١) انظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٤/ ٤٦٧ ط. علوم القرآن - دمشق - بيروت، الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

رقابهم، أبى الله إلا أن يذلَّ مَنْ عصاه، ومَنْ أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومَنْ عصاه ففيه قسط من فعل مَنْ عاداه بمعاصيه»[1].

ويُعين على غض البصر ما يلي:

١ ـ استحضار مراقبة الله، واطلاعه على كلَّ ما يقع من العبد في سرِّه وعلانيته، وحده أو مع غيره، وأينما وجد، فإن هذا الاستحضار إن كان صادقًا سيحمل صاحبه على غضِّ البصر، استحياءً من الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ استحضار الرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والوقوف بين يديه، والسؤال عن كلِّ شيء حتى عن خائنة الأعين، ثم المجازاة بما هو من جنس العمل، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على الكف عن محارم الله خوفًا مما يكون في يوم الحساب والجزاء.

٣ ـ صحبة الأتقياء البررة المعروفين بغض أبصارهم، وحفظ فروجهم، فإن هذه الصحبة لها أعظم التأثير في التذكير عند النسيان، والإعانة عند الذكر.

٤ ـ استحضار الثمرات المترتبة على غض البصر، فإن هذه الثمرات يمكن أن تسهم في تقوية روح المجاهدة، وصدق العزيمة، وعلو الهمَّة.

٥ ـ محاسبة النفس أولاً بأول، مع الحزم الصادق في تأديب النفس عند اكتشاف التقصير، والخلل.

٦ ـ التجوال المستمر في سير السَّلف، وكيف كان اهتمامهم بغض أبصارهم، ودعوتهم المستمرة إلى ذلك، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على الاقتداء، والتأسِّي، أو على الأقل المحاكاة والتشبه.

ما يُستفاد من الحديث دعويًا، وتربويًا:

يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها:

---

(١) انظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٤/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

١ ـ الحرص على المرابطة في سبيل الله، كلٌّ بما لديه من طاقات وإمكانات لما تؤدي إليه هذه المرابطة من صيانة الدماء، والأموال، والعقول، والأعراض، والدين، وبالتالي عز المجتمع وتقدمه، ورقيه، هذا فضلاً عن النجاة من النار، والظفر بجنة عرضها السموات والأرض، ورؤية الله ـ عزَّ وجلَّ.

٢ ـ مجاهدة النفس للظفر بالخوف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وخشيته بصورة يكون معها البكاء، والمحافظة على حدود الله، لما يمكن أن تثمره هذه الخشية من أداء الواجبات بصدق وإتقان، مع الحفاظ على الحرمات فتكون الحياة الطيبة في الدنيا، والفوز والنجاة غداً برحمة من الله ورضوان.

٣ ـ ترويض النفس على أن تكف عن محارم الله لما يؤدي إليه ذلك من انتشار الأمن والأمان في النفس، وفي واقع الحياة، والنجاة من النار، والمثوبة بجنة الله ورضوانه.

٤ ـ العمل على كفِّ البصر عمَّا لا يحل النظر إليه كصورة من صور الكف عن محارم الله، لما لذلك من فوائد وثمرات ذُكِرَت آنفًا.

٥ ـ الحرص على تذوق البلاغة النبويّة التي عبّر عنها النبي ﷺ في هذا الحديث ببيان صيانة أعين هذه الأصناف الثلاثة عن رؤية النار، فضلاً عن التعذيب بها، وإرادة سلامة صاحبها من باب أولى من باب التعبير بالجزء، وإرادة الكلِّ، إذ لا يُعقل أن تسلم العين من النار، ويُعذَّب صاحبها، حقًا إنه أُوتي جوامع الكلم، واختُصِر له الكلام اختصارًا.

الحديث الثاني والثلاثون

عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتي قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على النَّاس».

تخريج الحديث:

الحديث جزء حديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب العلم: باب مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ١/ ٢٧ ـ ٢٨ من حديث ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبدالرحمن، عن معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ وتمامه: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنَّما أنا قاسم، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمةً على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، وكتاب فرض الخمس: باب قول الله تعالى: ﴿فأنَّ لله خُمسَه وللرسول﴾، يعني للرسول قسم ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «إنما أنا قاسم، وخازن، والله يعطي» ٤/ ١٠٣ من حديث عبدالله عن يونس عن الزهري، عن حميد بن عبدالرحمن، عن معاوية مرفوعًا بلفظ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم، ولاتزال هذه الأمَّة ظاهرين على مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون» وكتاب المناقب: باب منه ٤/ ٢٥٢ من حديث الحميدي، قال: حدثنا الوليد، قال حدثني ابن جابر، قال حدَّثني عمير بن هانئ، أنه سمع معاوية يقول: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لايزال من أمتي أمَّةٌ قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، قال عمير، فقال مالك بن يُخامِر، قال معاذ: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام،

وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب قول النبي ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ، وهم أهل العلم» ٩/ ١٢٥ من حديث ابن وهب، عن الزهري، عن حميد، عن معاوية مرفوعًا: «مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله»، وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيءٍ إذا أردناه﴾ ٩/ ١٦٧ من حديث الحميدي، قال حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا ابن جابر، قال حدثني عمير بن هانئ، أنه سمع معاوية، قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، ما يضرهم مَنْ كذَّبهم، ولا مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، فقال مالك بن يخامر: سمعتُ معاذًا يقول: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام.

وللفقرة الأخيرة من حديث معاوية شاهد عند البخاري في: كتاب المناقب: باب منه ٤/ ٢٥٢، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب قول النبي ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، وهم أهل العلم ٩/ ١٢٥، وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيءٍ إذا أردناهُ﴾ ٩/ ١٦٧ من حديث المغيرة بن شعبة مرفوعًا: «لايزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»، وفي رواية: «لاتزال طائفة من أمتي..»، وفي رواية: «لايزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس، حتى يأتيهم أمر الله».

ومسلم في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب النهي عن المسألة ٢/ ٧١٨-٧١٩ رقم ٩٨، ١٠٠، من حديث عبد الله بن عامر اليحصبي، قال سمعتُ معاوية يقول: «إياكم وأحاديث، إلا حديثًا كان في عهد عمر، فإن عمر كان يخيف الناس في الله - عزّ وجلّ - سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما أنا خَازن، فمن أعطيته عن طيب نفس، فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألةٍ، وشرهٍ، كان كالذي يأكل ولا يشبع»، ومن حديث ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف، قال: سمعتُ معاوية بن أبي سفيان - وهو

يخطب ـ يقول: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي»، وكتاب الإمارة: باب قول النبي ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» ٣/ ١٥٢٤ رقم ١٧٤ من حديث عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانئ قال سمعت معاوية على المنبر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لاتزالُ طائفة من أمَّتي قائمةً بأمر الله، لا يضرهم مَنْ خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله، وهم ظاهرون على الناس».

ورقم ١٧٥ من حديث جعفر بن بُرْقَان، عن يزيد بن الأصمّ، قال: سمعتُ معاوية بن أبي سفيان ذكر حديثًا رواه عن النَّبي ﷺ لم أسمعه روي عن النبي ﷺ على منبره حديثًا غيره، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين، ولاتزال عصابة من المسلمين يُقاتِلون على الحقِّ، ظاهرين على مَنْ ناوأهم إلى يوم القيامة»، وله شواهد عند مسلم رقم ١٧٠ من حديث ثوبان مرفوعًا «لاتزالُ طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك».

ورقم ١٧١ من حديث المغيرة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لن يزال قوم مِنْ أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون»، ورقم ١٧٢ من حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة».

ورقم ١٧٣ من حديث ابن جريج عن أبي الزبير: أنَّه سمع جابر بن عبدالله يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لاتزالُ طائفة من أمَّتي يقاتلون على الحقِّ، ظاهرين إلى يوم القيامة».

ورقم ١٧٦ من حديث عبدالرحمن بن شُماسَة المَهْري، قال: كنتُ عند مسلمة بن مُخَلَّد وعنده عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال عبدالله: لا تقوم السَّاعة إلا على شرار الخلق، هم شرٌّ مِنْ أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا ردَّهُ عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مَسْلَمَةُ: يا عقبة،

اسمع ما يقول عبدالله، فقال عقبة: هو أعلم، وأمَّا أنا فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لاتزالُ عصابة من أمَّتي يُقاتِلون على أمر الله، قاهرين لعدوِّهم، لا يضرهم مَنْ خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، فقال عبدالله: أجل، ثمَّ يبعث الله ريحًا كريح المسك مَسُّها مَسُّ الحرير، فلا تترك نَفْسًا في قلبه مثقال حبَّة من الإيمان إلا قَبَضَتْهُ، ثم يبقى شرار النَّاس، عليهم تقوم الساعة».

وأبو داود في: السنن: كتاب الجهاد: باب في دوام الجهاد ٣/ ١١ رقم ٢٤٨٤ ولكن من حديث عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين على مَنْ ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيحَ الدجال»، وكتاب الفتن والملاحم: باب ذكر الفتن ودلائلها ٤/ ٤٥٠ـ ٤٥٢ رقم ٤٢٥٢ من حديث ثوبان مرفوعًا، وهو حديث طويل آخره: «ولاتزال طائفة من أمتي على الحقِّ ظاهرين لا يضرهم مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله».

والترمذي في: السُّنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في الشام ٤/ ٤٢٠ رقم ٢١٩٢ من حديث معاوية بن قرَّة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لاتزالُ طائفة من أمتي منصورين، لا يضرُّهم من خذلهم حتى الساعة»، وعقَّبَ عليه بقوله: «قال محمد بن إسماعيل: قال علي ابن المديني: هم أصحاب الحديث»، كما عقَّب عليه بقوله: «وفي الباب عن عبدالله بن حَوَالة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح»، وباب ما جاء في الأئمة المضلِّين من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخافُ على أمَّتي الأئمة المضلِّين، قال: وقال رسول الله ﷺ: «لاتزالُ طائفة على الحقِّ ظاهرين، لا يضرهم مَنْ خذلهم حتى يأتي أمر الله» ٤/ ٤٣٧ـ٤٣٨ رقم ٢٢٢٩، وعقَّب عليه بقوله: «وهذا حديث حسن صحيح، سمعتُ محمد بن إسماعيل يقول: سمعتُ علي بن المديني يقول: وذكر هذا الحديث عن النبيِّ ﷺ: لاتزالُ طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ»، فقال علي: «هم أهل الحديث»، وكتاب العلم: باب إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فقهه في الدين ٥/ ٢٨ رقم ٢٦٤٥ من حديث ابن عباس، وعقَّب عليه بقوله: «وفي الباب عن عمر، وأبي هريرة، ومعاوية: هذا حديث صحيح».

والنسائي في: السنن: كتاب الخيل: باب ذكر الخيل [٣/ ٣٥ رقم ٤٤٠١/ الكبرىٰ] من حديث جبير بن نفير، عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنتُ جالسًا عند رسول الله ﷺ فقال رجل يا رسول الله: أذال الناسُ الخيلَ، ووضعوا السِّلاح، وقالوا: الاجتهاد، قد وضعتْ الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «كذبوا الآن، جاء القتال، ولايزال من أمتي أمَّةٌ يقاتلون علىٰ الحقِّ، ويُزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منه حتىٰ تقوم السَّاعة، أو حتىٰ يأتي وعد الله... الحديث».

وابن ماجة في: السنن: المقدمة: باب فضل العلماء والحث علىٰ طلب العلم ١/ ٨٠ رقم ٢٢٠ عن بكر بن خلف أبي بشر، عن عبدالأعلىٰ، عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّهْهُ في الدين»، وعقّب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة من زوائد ابن ماجة ١/ ٣٠ بقوله: «هذا إسناد ظاهر الصحة ولكن اختلف فيه علىٰ الزهري، فرواه النسائي من حديث شُعيب عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، وقال الصواب: رواية الزهري عن حميد بن عبدالرحمن عن معاوية كما في الصحيحين».

ورقم ٢٢١ من حديث هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس، أنَّه حدَّثه قال: سمعتُ معاوية بن أبي سفيان يحدث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الخير عادة، والشر لجاجة، ومَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين»، وعقب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة ١/ ٣٠ بقوله: «رواه ابن حبان في صحيحه، عن طريق هشام بن عمّار، فذكره بإسناده ومتنه سواء...».

والدَّارمي في: السُّنن: المقدمة: باب الاقتداء بالعلماء ١/ ٧٣ ـ ٧٤ من حديث معاوية، وابن عباس مرفوعًا بلفظ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين»، وكتاب الرقاق: باب مَنْ يُرد الله به خيراً يُفقِّهُهُ في الدين ٢/ ٣٩٧ من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظه المذكور آنفًا في: المقدمة.

ومالك في: الموطأ: كتاب القدر: باب جامع ما جاء في أهل القدر ٢/ ٩٠٠ـ ٩٠١ رقم ٨ من حديث يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال معاوية بن أبي سفيان ـ وهو على المنبر ـ: «أيها الناس، إنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله، ولا ينفع ذا الجدِّ منه الجدُّ، مَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين»، ثم قال معاوية: «سمعتُ هؤلاء الكلمات من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد»، وعقّب عليه ابن عبدالبرِّ في: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٣/ ٧٨ـ ٧٩ بقوله: «وهذا حديث مسند صحيح، وإن كان ظاهره في هذا الإسناد الانقطاع، وقد سمع ذلك محمد بن كعب من معاوية، ذكر ذلك بعض رواة مالك، عن مالك وهو محفوظ أيضاً من غير طريق مالك»، بل لقد بيَّن أن له طريقاً أخرى غير طريق مالك، عن يزيد بن زياد هذا إلى محمد بن كعب القرظي، قائلاً: «وقد سمع هذا الحديث ابن عجلان من محمد بن كعب القرظي»، ثم ساق هذا الطريق فقال: «حدثنا عبدالوارث بن سفيان، فقال: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا بكر بن حماد، قال: حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، قال: سمعتُ محمد بن كعب القرظي قال: كان معاوية يخطب بالمدينة، يقول: تعلمنَّ أيها الناس أنَّه لا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطي لما منع، ولا ينفع ذا الجدِّ منه الجدُّ، مَنْ يُرد الله به خيراً يُفقِّهْهُ في الدين، سمعتُ هذه الأحرف من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد»، وعقّب عليها بقوله: «لم تختلف الرواية ـ والله أعلم ـ في هذا الحديث عن محمد بن كعب، عن معاوية أنَّه سمع هذا الحديث من رسول الله ﷺ وهي رواية أهل المدينة، وأما أهل العراق، فيروون أن المغيرة بن شعبة كتب بهذا الحديث إلى معاوية، فالله أعلم، وقد يجوز أن يكون قوله: [مَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين] سمعه معاوية من رسول الله ﷺ فأشار إليه، لأن ذلك ليس في حديث المغيرة، وسائره في حديث المغيرة، وعلى هذا التخريج تصح الأحاديث في ذلك، لأنها منقولة بأسانيد صحاح، والحمد لله».

وأحمد في: المسند ٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٢٧٩، والطبراني في: المعجم الكبير ١٩/ ٨١٥، والقضاعي في: مسند

الشهاب، ص ٩٥٤ من طرق عن سعد بن إبراهيم، عن معبد الجهني عن معاوية مرفوعًا به، وزيادة: «. . . وإن هذا المال خضر حلو، فمنْ يأخذه بحقِّه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح» إلا الجملة الأولى من هذه الزيادة فليست عند القضاعي، وهذا الإسناد رجاله ثقات غير معبد بن خالد الجهني، فإنه: [صدوق مبتدع] أول من أظهر القدر بالبصرة، انظر: تقريب التهذيب، ص ٩٥٧، رقم ٦٨٢٥ فيكون هذا الحديث حسن الإسناد.

وأحمد في: المسند ٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٦ والدَّارميُّ في: السُّنن ١/ ٧٤، والطبراني في: المعجم الكبير ١٩/ ٨٦٠، وأبو نعيم في: حلية الأولياء ٥/ ١٤٦ - ١٤٧، والخطيب البغدادي في: الفقيه والمتفقه ١/ ٦، والطحاوي في: مشكل الآثار ٢/ ٢٨٠ من طريق عبدالله بن محيريز، عن معاوية مرفوعًا بلفظ: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فقهه في الدين»، وهذا إسناد رجاله ثقات فهو صحيح.

ويظهر من هذا التخريج: أن الحديث مخرَّج في الصحاح، والمسانيد والسنن، والأجزاء ونحوها، وأنه متعدد المخارج عن معاوية، وأبي هريرة وجابر ابن سمرة، وجابر بن عبدالله، وعقبة بن عامر، وعمران بن حصين، وثوبان، وعبدالله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وغيرهم، وأن الأمة تلقته بالقبول فيكون متواترًا تواترًا معنويًا.

المعنى العام للحديث:

الأمانة التي حُمِّلْناها - نحن المسلمين - إنما هي الشَّهادة على العالمين، إذ يقول الحقُّ - تبارك وتعالى -: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . .**﴾ (البقرة: ١٤٣)، ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . .**﴾ (الحج: ٧٨).

وتلك أمانة ضخمة وعظيمة، إذ هي تعني أن نكون أسوة وقدوة في أعين العالمين: نعمر الأرض حتى نسود فيها، وننزل على حكم ربِّنا في كلِّ ما نأتي،

وفي كل ما ندع، ثم نُبلّغ كلمة الله إلى عباد الله بكل ما يُمكن من أساليب ووسائل شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الدين الحنيف، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (النحل: ١٢٥)، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ونقف بحزم وقوة في وجه الكفّار والمنافقين الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا لئلا يكون هناك ضغطٌ أو إكراه لواحد من الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩).

فإذا ما أُضيفَ إلى ذلك طول الطريق مع كثرة العقبات والمعوّقات: من النَّفْس الأمّارة بالسوء، ومن شيطان الجنّ القاعد لنا بكلّ طريق، ومن شياطين الإنس الذين هم أعوان شيطان الجنّ، ومن الدنيا ببريقها، وزخارفها، وزيناتها، وشدائدها ومصائبها، وامتحاناتها، إذا ما أضيف إلى هذه الأمانة ذلك كله ظهر أننا بحاجة ماسّة إلى ما يُثبّتُ أقدامنا على الطريق، ويُذهب عنّا وعثاء السفر، ولاشكّ أن هناك عوامل كثيرة تساعد على ذلك:

بَيْدَ أنّ أهمّها وأبرزها الثقة النفسية بالفوز والنجاح في أداء هذه الأمانة، والوصول بها إلى برّ السّلامة وشاطئ الأمان، والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن: وعدٌ أكيدٌ من الله لهذه الأمة بهذا الفوز، وذلك النجاح أجراه سبحانه على لسان نبيّه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، الأمر الذي يزرع الثقة في النفوس، فتثبت على الطريق، وتتجاوز العقبات والمعوّقات.

ومن عجب أن النبيّ ﷺ دلّ - وهو يحكي هذا الوعد - على ما يكون سببًا في تحقيقه، والظفر به في دنيا الناس، ألا وهو الفقه في الدين، إذ قال: «مَنْ يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم على الحق ظاهرون»، وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فإننا سنتناوله من هذه الجوانب:

الجانب الأول : معاني المفردات والجُمل :

قوله : «مَنْ يُـرِد الله به خيـرًا يفقهه في الدين» :

الفقه لغة : يختلف المراد به تبعًا لماضيه ، فإذا كان ماضيه بكسر العين ، فالمراد به الفهم ، تقول : فَقِهَ المسألة يفقهها فقْها : فهمها ، وإذا كان ماضيه بالفتح فالمراد به سبق الغير إلى الفهم ، تقول : فَقَهَ المسألة : يفقهها فقهًا : سبق غيره إلى فهمها ، وإذا كان ماضيه بضم العين ، فالمراد به : السجيَّة أو المَلَكة ، تقول : فَقُهَ المسألة يفقهها فقهًا إذا صار هذا الفقه سجيَّة له ومَلَكَة[1] ، ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا ، إذ الفقه مراتب ، فأدنى هذه المراتب : مجرد الفهم ، ولو بعد حين ، وأوسطها سبق الغير ، وأعلاها أن يصبح سجيَّة ومَلَكة .

الفقه اصطلاحًا : عند الفقهاء : العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسبة ، من الأدلة التفصيلية لتلك الأحكام ، فيشمل هذا التعريف : العلم بأحكام العبادات المخصوصة من : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والجنائز ، بالإضافة إلى أحكام النظم والتشريعات من : الزواج ، والطلاق ، والنفقة ، والحضانة ، والعِدَّة ، والميراث ، والمعاملات المالية : كالبيع ، والسَّلَم ، والرهن ، والإجارة ، والمضاربة ، ونحوها ، وأحكام الدماء ، والحدود ، والجهاد ، والاسترقاق ، وغيرها ، وخرج ما يتصل بالعقائد ، وكذلك ما يتصل بالآداب والأخلاق .

الفقه اصطلاحًا عند الأصوليين : يطلق الفقه عند الأصوليين على ثلاثة معان هي :

١ ـ معرفة كل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى : عقيدة ، وعبادة مخصوصة وأخلاقًا ، ونظمًا ، وتشريعات ، وهذا المعنى مرادف للفظ «الشرع» ، ويتناول ماعرف بعد ذلك باسم علم العقيدة ، وعلم الفقه ، وعلم الأخلاق .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ٤/ ٤١٤ ـ ٤١٥ ، وفتح الباري لابن حجر ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣ ، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٩٨ بتصرف .

٢ ـ العلم بالأحكام الفرعية الشرعية المستمدة من الأدلة التفصيلية يستوي في ذلك عمل الجوارح، وعمل القلوب، ويتناول علم الفقه وعلم الأخلاق.

٣ ـ العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية المستمدة من الأدلة التفصيلية وكأنهم خصوا الفقه بأعمال الجوارح دون أعمال القلوب[١].

والمراد بالفقه في الحديث: المعنى الأول عند الأصوليين لتناوله كل ما جاء به الشرع الحنيف من عقائد، وشعائر مخصوصة، ونظم وتشريعات وأخلاق وآداب.

الدين لغة: يطلق الدين لغة على معانٍ، منها:

١ ـ الخضوع والذل، تقول: دان دينًا، وديانةً: خضع وذلَّ.

٢ ـ الطاعة، تقول: دان يدين دينًا وديانةً: أطاع.

٣ ـ الجزاء، تقول: دان فلان فلانًا: حاسبه، وجازاه[٢].

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ الدين خضوع وانقياد، وطاعة تقتضي الحساب والجزاء.

والدين اصطلاحًا: اسم لجميع ما يعبد به الله ـ عز وجل ـ من العقائد، والعبادات والأخلاق، والنظم، والتشريعات.

وقد جاء في كتاب الله على معانٍ، منها:

١ ـ الشريعة والحكم، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ...**﴾ (النور: ٢).

٢ ـ الطاعة والانقياد، قال تعالى: ﴿**وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا...**﴾ (النحل: ٥٤).

٣ ـ الجزاء أو الحساب، قال تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ...**﴾ (الفاتحة: ٤).

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ١/ ١٢ ـ ١٤ بتصرف كثير.

(٢) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، والمعجم الوسيط ١/ ٣٠٦ بتصرف كثير.

٤ ـ التوحيد، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾ (الزمر: ٣)[١].

قوله: «وإنما أنا قاسمٌ والله يعطي»:

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «معناه أن المعطي حقيقة هو الله تعالى ولستُ أنا معطيًا، وإنما أناخازن على ما عندي، ثم أقسمُ ما أُمِرتُ بقسمته على حسب ما أمرت به، فالأمور كلها بمشيئة الله تعالى وتقديره، والإنسان مُصَرَّف مربوب»[٢].

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «والمعنى لا أتصرف فيكم بعطية ولا منع برأيي» بدليل رواية: «إنما أنا القاسم أضع حيث أمرتُ» أي لا أعطي أحداً ولا أمنع أحدًا إلا بأمر الله»[٣].

وقال في موضع آخر: «فيه إثبات الخير لمن تفقه في دين الله، وأن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به...»[٤].

وقال المناوي ـ رحمه الله ـ: «إن إثبات الخير للمتفقه لا يكون بالاكتساب فقط، بل لمن يفتح الله عليه به على يد المصطفى ﷺ ثم ورثته»[٥].

والمقسَمُ أو المعطىَ محذوف فهل يراد به المال، كما فسرته إحدى روايات مسلم ولفظها: «إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفسٍ فيبارك له فيه، ومَنْ أعطيتُه عن مسألة، وشرهٍ كان كالذي يأكل ولا يشبع»، وكأنَّ المعنى أنا خازن المال، وأسوِّي بينكم في العطاء، والبركة أو عدمها عطاء من الله تبعًا للقناعة والرضا، وكذلك التكالب والشَّره.

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي ٢/ ٣٢ـ٥٤، والكليات لأبي البقاء الكفوي، ص ٤٤٣ـ٤٤٤.

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٧/ ١٢٨ـ١٢٩ م٤.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٢١٨.

(٤) انظر: فتح الباري ١/ ١٦٢.

(٥) انظر: فيض القدير ٦/ ٢٤٢.

أم يراد به الفقه في الدين؟ وله:

١ ـ جانب كسبي يبذل العبد فيه جهده قدر المستطاع، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «إنما أنا خازن، وقاسم»، يعني: جعلني الله وعاءً لوحيه المنزّل، ومبينًا.

٢ ـ جانب وهبي يمنحه الله العبد كثمرة للجانب الكسبي.

وقد جاءت رواية النسائي عن سلمة بن نفيل الكندي متضمنة صورة من صور الفقه في الدين بجانبه الكسبي والوهبي، إذ يقول: كنتُ جالسًا عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله: أذال النَّاسُ الخيلَ، ووضعوا السِّلاح، وقالوا: الاجتهادُ قد وضعتْ الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «كذبوا، الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمَّةٌ يقاتلون على الحقّ، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منه حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي وعد الله...» الحديث.

فقد اجتهد نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ بعد الهجرة أنه انتهت الحرب، وعليهم أن يضعوا السلاح وأن يتفرغوا لمعاشهم، وهنا أقبل عليهم رسول الله ﷺ مبيِّنًا لهم خطأ اجتهادهم من أنه ليس معنى قيام الدولة انتهاء الجهاد بل بدايته، لأن الأعداد لا يرضيهم أبدًا قيام دولة الإسلام وسيحاربونها بكلِّ ما يستطيعون، وعليهم أن يستمروا في الجهاد، ولئن قعدوا وتركوا فهناك طائفة من هذه الأمة يقاتلون على الحقِّ والله يلقي بهم الرعب في قلوب الأعداء، ويرزقهم الأجر والمغانم وإن ظلوا أحياء، والجنة والرضوان إن ماتوا شهداء، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (النساء: ٧٤)، وقوله ﷺ: «تكفَّل اللهُ لِمَنْ جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله، وتصديق كلمته بأن يُدخله الجنة، أو يُرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال مِنْ أجرٍ أو غنيمة»[1]، وسيبقى الأمر كذلك إلى قيام الساعة، أو ذهاب أهل الخير، وبقاء شرار الخلق الذين عليهم تقوم الساعة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه في الجزء الثاني ص ٣٢٧ـ٣٢٨.

قوله: «لاتزال طائفة منْ أمتي قائمة بأمر الله...»، وفي رواية: «لايزال من أمتي أمَّةٌ قائمة بأمر الله...»:

«الطائفة»: جماعة من الناس يجمعهم مذهب، أو رأيٌ يمتازون به[1].

و(الأمَّة): تطلق على معانٍ كثيرة، منها:

١ ـ المرء الجامع لخصال الخير، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠).

٢ ـ الدين والملة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الأنبياء: ٩٢).

٣ ـ الحين والزمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥)[2].

٤ ـ كل جماعة يجمعها أمر أو دين، أو زمان، أو مكان واحد، سواء أكان الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً[3]، فيقال أمَّة الطير، وأمَّة الجنِّ، وأمة الإنس، وأمة العرب، وأمة العجم، وأمَّة الدعوة، وأمة الإجابة... ونحوها.

ولعل هذا المعنى الأخير هو المراد في الحديث، يعني سيظل جماعة من هذه الأمة قائمين بأمر الله غير مبالين بالمخالف والمعارض، والمناوئ إلى أن يقض الله أمراً كان مفعولاً.

قوله: «قائمة بأمر الله»:

يعني مستمسكة بدين الله، ناشرة له، مجاهدة في سبيله، حاميةً له من كيد الكائدين، وعبث العابثين، إذ الأمر هنا معناه: الدين.

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٤٨).

---

(١) انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٥٧١.

(٢) انظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي، ص ١٨١ ـ ١٨٢، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧ بتصرف.

(٣) انظر: الكليات، ص ١٧٦، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧ بتصرف.

ويؤكد ذلك رواية جابر بن سمرة عند مسلم ـ وقد مَرَّتْ في تخريج الحديث ـ أن النبي ﷺ قال: «ولن يبرح هذا الدين قائماً، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة».

قوله: «حتى يأتي أمر الله»:

المراد بأمر الله هنا: حكمه، وقضاؤه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ...﴾ (الأعراف: ٥٤)، وإنما يكون ذلك عندما يرسل الله ريحاً طيبة تكون سبباً في قبض أرواح المؤمنين، ويومها لا يبقى سوى الكافرين أو شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، كان المعنى: حتى يأتي أمر الله قرب قيام الساعة، وقد جاء هذا مفسَّراً في رواية عبدالرحمن بن شماسة المَهْري عند مسلم ـ وقد تقدَّمَتْ ـ قال: كنتُ عند مسلمة بن مخلد ـ وعنده عبدالله بن عمرو بن العاص ـ فقال عبدالله: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرٌّ من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا ردَّه عليهم»، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبدالله، فقال عقبة: هو أعلم، وأمَّا أنا فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوِّهم، لا يضرهم مَنْ خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، فقال عبدالله: «أجل، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك، مسُّها مسُّ الحرير، فلاتترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة».

وجاء مفسَّراً أكثر في رواية عمران بن حصين عند أبي داود ـ وقد مضتْ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقِّ، ظاهرين على مَنْ ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال».

وبذلك يُدْفَعُ ما أشكل به بعضُ الناس على هذا الحديث من قولهم: كيف تظل هذه الفئة قائمة بأمر الله إلى قيام الساعة مع أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق؟

الجانب الثاني: فوائد الفقه في الدين وثمراته كما وردت في الحديث:

للفقه في الدين فوائد كثيرة وثمرات جمَّة نذكر منها:

١. **أنه طريق لمعرفة الله حقَّ المعرفة**، وماله وحده على عباده من العبادة المتمثلة في التوحيد والطاعة والالتزام، والخشية والخوف والرجاء.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾ (آل عمران: ١٨).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ (فاطر: ٢٨).

٢. **أنَّه طريقٌ لمعرفة حكم الله** لاسيَّما في الغامض من المسائل، وكذلك في المسائل الطارئة فيبقى دين الله مواكبًا لكل الظروف والأزمنة والبيئات.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ...﴾ (النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ (النساء: ٨٣).

٣. **أنه طريق لتمييز الأصيل في منهج الله** من الدخيل عليه، بحيث يعمل بالأصيل ويستمسك به، ويهمل الدخيل ولا يُعبأ به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص: ٥١-٥٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٧-١٠٩)، ذلك أنهم عرفوا قيمته فاستمسكوا به.

٤ . أنه يكون سبباً في رفعة صاحبه وعلوّ منزلته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠ـ٣٣).

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾ (المجادلة: ١١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)

وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(١).

---

(١) الحديث جزء حديث طويل **أخرجه أبو داود في**: السُّنن: كتاب العلم: باب الحثّ على طلب العلم ٤/ ٥٧ـ٥٨ رقم ٣٦٤١، **والترمذي في**: السُّنن: كتاب العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٥/ ٤٧ـ٤٨ رقم ٢٦٨٢، **وابن ماجة في**: السُّنن: المقدمة: بابُ فضل العلماءِ والحثُّ على طلب العلم ١/ ٨١ رقم ٢٢٣، **والدارميُّ في**: السُّنن: المقدمة: باب في فضل العلم والعالم ١/ ٩٨، **وأحمد في**: المُسند ٥/ ١٩٦ كلهم من حديث كثير بن قيس قال: كنتُ جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل، فقال: ياأبا الدرداء، إنِّي جئتك منْ مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنَّك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئتُ لحاجة، قال: فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طُرقِ الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضلَ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العلمَ، فمَنْ أخذه أخذ بحظٍّ وافر»، وعقَّب الترمذي بقوله: «ولا نعرف هذا =

يقول أبو حامد الغزالي معلِّقًا، ومعقِّبًا: «ومعلوم أنَّه لا رتبة فوق النبوَّة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة»(١).

٥ ـ **أنه يكون سببًا في ترتيب الأمور**، ورعاية الأولويات، بحيث لا يضيع مجمع عليه من أجل مختلف فيه، أو يضيع فرض من أجل سنة، أو يُرتكب محظور في سبيل مباح، أو يُهمل أصل من أجل أمر ثانوي وهكذا.

ولعل في حديث جريج ما يشرح ذلك، إذ فيه: «أنَّه كان يصلِّي في صومعته، وكانت أُمُّه تأتيه، فتناديه فيشرف عليها فيكلمها، فأتته يومًا وهو في صلاته، فنادته، قالتْ: أي جريج، أشرفْ عليَّ أكلمُكَ أنا أمك، فقال: أجيبها، أو أصلِّي؟».

وفي رواية أنه قال: «يا ربِّ أمِّي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت، ثم أتته فصادفته يصلِّي، فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمني، فقال مثله، فدعتْ عليه قائلة: اللهم لا تُمِته حتىٰ تُريه وجوه المومسات»(٢).

=الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وهو ليس عندي بمتَّصل هكذا: حدثنا محمود بن خداش بهذا الإسناد، وإنَّما يروي هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة، عن الوليد بن جميل، عن كثير بن قيس، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ، وهذا أصح من حديث محمود بن خداش، ورأىٰ محمد بن إسماعيل هذا أصح»، وقد روىٰ أبو داود، وابن ماجة الحديث علىٰ هذا النحو الذي رضي الترمذي، غير أنهما قالا: «داودُ بن جميل» بدل: «الوليد بن جميل» وهو ـ أي: «داود» أو «الوليد» ـ كما قال ابن حجر في تقريب التهذيب، ص ٣٠٥ رقم ١٧٨٨: «ضعيف».

(١) انظر: إحياء علوم الدين ١/ ٥.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح، كتاب الصلاة: باب إذا دَعَتْ الأم ولدها في الصلاة ٤/ ١٢٧ [فتح الباري]: وكتاب المظالم: باب إذا هدم حائطاً فليبْنِ مثله ٣/ ١٧٩، وكتاب الأنبياء: باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ ٤/ ٢٠١، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة، والآداب: باب تقديم برِّ الوالدين علىٰ التطوع بالصلاة وغيرها ٤/ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ رقم ٢٥٥٠ / ٧ ـ ٨، **وأحمد** في المسند ٢/ ٣٠٨، ٢٨٥، ٤٣٣ ـ ٤٣٤، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه.

وجاء في حديث يزيد بن حوشب، عن أبيه رفعه: «لو كان جريج عالمًا لعلم أن إجابة أمّه أولى من صلاته»(١).

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بُدئ بأهمهما»(٢).

٦. **وأنه يكون سببًا في اقتلاع جذور اليأس والقنوط** من نفوس العصاة والمذنبين، بل زرع الأمل والثقة في هذه النفوس.

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ قَتَلَ تسعةً وتسعين إنسانًا ثم خرج يسأل، فأُتي راهبًا فسأله، فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا، وكذا، فأدركه الموت فَناءَ بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة، وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له»(٣).

قال ابن حجر: «وفيه فضل العالم على العابد، لأنَّ الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له غَلبتْ عليه العبادة، فاستعظم وقوع ما وقع مِنْ ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأمَّا الثاني فغلب عليه العلم، فأفتاه بالصواب، ودلَّه على طريق النجاة»(٤).

---

(١) **أورده ابن حجر** في: فتح الباري ٤/ ١٢٨، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وغيره، وعقّب عليه بقوله: «ويزيد هذا مجهول».

(٢) انظر: فتح الباري ٨/ ٣١٦.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأنبياء: باب منه ٤/ ٢١١-٢١٢، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب التوبة: باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٤/ ٢١١٨-٢١١٩ رقم ٢٧٦٦/ ٤٦، ٤٧، ٤٨، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الديات: باب هل لقاتل مؤمن توبة ٢/ ٨٧٥ رقم ٢٦٢٢، **وأحمد** في: المسند ٣/ ٢٠ كلهم من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر ٨/ ٣٧١.

٧ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة ثمار الطاعة والاستقامة في الدنيا والآخرة، وكذلك معرفة عواقب المعصية والانحراف في الدنيا والآخرة، فيكون الحرص على الطاعة والاستقامة، ويكون الفرار من المعصية والبعد عن الانحراف.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (قصص: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ...﴾ (الأنعام: ١٥، والزمر: ١٣).

٨ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة قيمة الوحي المُنزَّل من عند الله، وسبيل التعامل معه.

قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ: ٦).

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٤).

٩ـ أنه يكون طريقًا لمعرفة العوالم والمخلوقات الأخرى التي تعيش معنا، ولا نراها، وكيفية التعامل مع هذه العوالم، والمخلوقات.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١).

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: ١٥).

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧).

١٠ـ **أنه يكون طريقًا لمعرفة العاقبة والمصير** بحيث يأخذ المرء أهبته واستعداده.

قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: ٤).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

١١ـ **أنه يكون سببًا في معرفة التعامل مع ما قضى الله للعبد من خير أو شر.**

قال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الحديد: ٢٢ـ ٢٤).

وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١).

وقال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه له خيرٌ ـ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ـ إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر، فكان خيرًا له»(١).

١٢ـ **أنه يكون سببًا في معرفة مكايد الشياطين**، وسبيل التعامل مع هذه المكايد.

روىٰ البيهقي بسنده إلىٰ حاطب بن أبي بلتعة، قال: «بعثني رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩/ ٦٤، وأحمد في: المسند ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣.

إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال: فحيَّيْتُه بكتاب رسول الله ﷺ، فأنزلني في منزله، وأقمتُ عنده، ثم بعث إليَّ وقد جمع بطارقته، فقال: إني سأكلمك بكلام، وأحب أن تفهمه مني، قال: قلتُ هلمَّ، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبيٌّ؟ قلتُ: بلى هو رسول الله ﷺ، قال: فما له حيثُ كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلتُ عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ﷺ فما له حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يغلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى رفعه الله إليه في السماء الدنيا؟ قال: أنت حكيم جاء من عند حكيم... الحديث»[1].

١٣ ـ وأنه يكون سببًا في معرفة أنجح أساليب الدعوة إلى الله وأفعلها بحيث تقام الحجة على المعاندين والمصرين، ويستقطب المتَّقون.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (النحل: ١٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

١٤ ـ وأنَّه يكشف لصاحبه أفضل العبادة فيكون الحرص على هذا الأفضل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١).

١٥ ـ وأنه يكون سببًا في نيل الأجر والثواب، وبالتالي الحياة الطيبة في الدنيا، والجنَّة في الآخرة.

---

(١) انظر: دلائل النبوة ٤/ ٣٩٦.

قال ﷺ: «مَنْ غدا إلى المسجد لا يريدُ إلا أن يتعلم خيرًا، أو يُعلِّمه كان له كأجر حاجٍّ تامًّا حجته»(١).

وقال أيضًا: «مَنْ طلب علمًا فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومَنْ طلب علمًا فلم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر»(٢).

وقال ﷺ كذلك: «مَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنَّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له مَنْ في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب...» الحديث(٣).

وباختصار هو الطريق لإيجاد الطائفة التي ذكرتْ في الحديث آنفًا: «ولن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خالفهم أو خذلهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم على الحقِّ ظاهرون».

الجانب الثالث: منزلة الفقه في الدين من الإسلام كما في الحديث:

وللفقه في الدين منزلة رفيعة من الإسلام، حسبنا أنه مأمور به صراحة وضمنًا بطريق مباشر وغير مباشر.

---

(١) الحديث **أورده المنذري** في: الترغيب والترهيب: كتاب العلم: باب الترغيب في الرحلة في طلب العلم ١/ ١٤٠ من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الكبير بإسنادٍ لا بأس به»، كما أورده الهيثمي في: مجمع الزوائد ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣ قائلاً: «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون».

(٢) الحديث **أورده المنذري** في: الترغيب والترهيب ١/ ٩٦، والهيثمي في: مجمع الزوائد ١/ ١٢٣ كلاهما من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً، وعقَّبا عليه بقولهما: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون».

(٣) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب العلم: باب الحث على طلب العلم ٢/ ٢٨٥، **والترمذي** في: السنن: كتاب العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٥/ ٤٨ ـ ٤٩ رقم ٢٦٨٢، **وابن ماجة** في: السنن: المقدمة: باب فضل العلماء ١/ ٨١ رقم ٢٢٣، **وأحمد** في: المسند ٥/ ١٩٦ كلهم من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً بهذا اللفظ، وبنحوه.

فمن الأوامر الدالة على ذلك صراحة وبطريق مباشر :

قوله ﷺ : «اغد عالمًا أو متعلمًا ، أو مستمعًا ، أو محبًّا ، ولا تكن الخامسة فتهلك»(١) .

إذ هذا أمرٌ صريحٌ مباشر ، والأمر عند إطلاقه يفيد معنى الوجوب ما لم تكن هناك قرينة تصرفه عن الوجوب إلى غيره ، ولا قرينة هنا . . .

ومن الأوامر الصريحة غير المباشرة قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١ ـ ٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا . . . ﴾ (طه : ١١٤) .

فإن هذا أمرٌ صريح غير مباشر لأنه في الظاهر خطاب للنبي ﷺ وحقيقة الحال أنَّه خطابٌ لنا ، إذ خطابه ﷺ خطابٌ لأمته ، ما لم تكن هناك قرينة تقول إن هذا من خصوصياته ﷺ ، ولا قرينة هنا .

ومن ذلك قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ (المجادلة : ١١) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر : ٩) .

وقال ﷺ : «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين . . . » الحديث(٢) ، «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقهه في الدين ، وألهمه رشده»(٣) ، «الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»(٤) ، «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنَّة . . . »(٥) ، إلى غير ذلك من الآيات

---

(١) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد ١/ ١٢٢ من حديث أبي بكرة مرفوعاً وعقَّب عليه بقوله : «رواه الطبراني في الثلاثة ـ أي في معاجمه الثلاثة ـ والبزار ورجاله موثقون» .
(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) هذه الأحاديث سبق تخريجها .

والأحاديث التي جاءتْ بلفظ الخبر غير أن المراد بها الأمر تطبيقاً للقاعدة الأصولية المعروفة من أن:

«كل فعل كسبي عظّمه الشرع، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به أو أحبّه، أو أحبّ فاعله... إلخ فهو مأمورٌ به»(١).

كأنه قال هنا:

«كونوا من المؤمنين وممن أوتوا العلم حتى تُرفَعُوا درجات».

و «كونوا ممن يعلمون لئلا تتساووا بمن يجهلون».

و«تفقهوا في الدين ولو كنتم من خيار الناس في الجاهلية، فإن الفقه في الدين يجعلكم خياراً في الإسلام».

و «اسلكوا الطرق إلى العلم ليسهل الله لكم بهذا العلم طريقاً إلى الجنة»، وهلم جرا.

وهكذا تتضافر الأدلة على وجوب الفقه في الدين، والسؤال هو: هل هذا الفقه عينيّ يعني على كلّ واحد أن يلزمه وأن يتحلى به، أم كفائي يعني إذا قام به البعض سقط الإثم أو الحرج عن الباقين؟

وظاهر الحال، وأيضاً فقه المسلمين الأوائل لهذه المسألة: أن منه ما هو عيني ومنه ما هو كفائي.

أمّا العيني فما يتصل بالعقيدة من الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر، وكذلك ما يتصل بالعبادات المخصوصة من الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والعمرة، والمعاملات المالية، وشئون الأسرة من الزواج والطلاق، والنفقة والحضانة، والعدة، والإرث، وحماية الدماء، والأعراض، والجهاد، والأخلاق حسنة، وسيئة.

---

(١) انظر: الإمام في بيان أدلة الأحكام، للعز بن عبدالسلام، ص ٨٧، ٨٨، ١٠٢.

والمراد بالفقه العيني لهذه القضايا: معرفتها معرفةً كليّة يقينية تمكنه من الالتزام، والتنفيذ، والتطبيق على الفور، ثم يطلب الدليل لكلٍّ قضية من هذه القضايا على التراخي، وبالتدريج حتى يستوفي أدلة هذه القضايا جميعاً بصورة تحميه من تركها تحت ضغط الشدة والرخاء.

وأمّا الكفائي فهو التعمُّق في معرفة قيمة الدليل صحةً، وسلامةً من التعارض وإنزالاً على الواقع، وكذلك معرفة دقائق هذه القضايا إلى حدٍّ الوصول إلى الفقه الاجتهادي في قضية أو أكثر، وبلد أو أكثر، وربَّما إلى الفقه الاجتهادي المطلق، وبذلك يصير هذا الفقه الاجتهادي المطلق قادراً على مواكبة كلٍّ ما يظهر من الحوادث، والوقائع، وضبطها بضوابط الشرع الحنيف.

وعندئذٍ يمكن التوفيق بين حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] وبين قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

يقول الحافظ أبو عمر بن عبد البرِّ: «قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعيِّنٌ على كلِّ امرئ... والطائفة في لسان العرب: الواحد فما فوقه»[2].

الجانب الرابع: أهم أصول الفقه في الدين وقواعده وطريق توفيق الله العبد لتحصيله:

وللفقه في الدين أصول وقواعد يقوم عليها، وأهمُّها:

١ ـ اليقين أن الإسلام دين يشمل مظاهر الحياة جميعاً في كل شأن من شئونها، وكل ناحية من نواحيها، فهو عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ونظم وتشريعات.

---

(١) انظر: صحيح الجامع الصغير للألباني ٢/ ٧٢٧ رقم ٣٩١٤.

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٦ـ٥٩.

٢ ـ القرآن الكريم، والسنَّة النبوية هما المصدران الأساسيان في التشريع الإسلامي، إمَّا نصًا، وإما استنباطًا بشروطه الصحيحة المتعارف عليها بين العلماء.

٣ ـ اللغة العربية ضرورة لابدَّ منها للفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ.

٤ ـ الاطلاع على فقه العلماء من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا، فإنَّ اللَّه قد منحهم نوراً وبصيرة في الفقه لتقواهم، وتمكنهم من هذا الفقه، وبصيرتهم بواقعهم وواقع الآخرين المحيطين بهم.

٥ ـ جمع النصوص المتعلقة بأيِّ مسألة من المسائل، ثم دراستها في ضوء بعضها البعض، ومحاولة التوفيق بين المتعارض منها إمَّا بالجمع، وإمَّا بالترجيح وفق القواعد المتعارف عليها بين العلماء.

٦ ـ اختلاف العلماء في الفقه في غير المجمع عليه ظاهرة صحية لتفاوت العقول في الفقه، ولتباين الأدلة من ناحية الاطلاع عليها، وعدم الاطلاع، ومن ناحية ثبوتها وعدم ثبوتها، ومن ناحية تغير جهة الدلالة، وتغير الواقع من بيئة إلى بيئة... ومن حال إلى حال.

٧ ـ لا يصح اتخاذ الخلاف المذكور آنفًا سبيلاً للتفرق في الدين، أو الخصومة والبغضاء، ولا بأس من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظلِّ الحبِّ في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجرَّ ذلك إلى المراء المذموم، والتعصب.

٨ ـ سؤال أهل الذكر عند الجهل، وتعذر الوصول إلى الحقيقة.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ...﴾ (النحل: ٤٣)، و(الأنبياء: ٧).

الطريق إلى توفيق الله العبد للفقه في الدين وتحصيله:

وتتمثل هذه الطريق في:

١ ـ **الإخلاص** مع اتباع السنَّة أو التقوىٰ، فإن ذلك يكون سببًا في منح الله للعبد فرقانًا، ونورًا.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...﴾ (الأنفال: ٢٩).

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ...﴾ (الحديد: ٢٨).

٢ ـ **التواضع** ورد الفضل في كلِّ شيءٍ إلىٰ الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢١).

وقال تعالىٰ علىٰ لسان شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩).

وقال النبي ﷺ: «من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله»(١).

وقال الشعبي: «صلَّىٰ زيدُ بن ثابت علىٰ جنازة، فقربتْ إليه بغلته ليركبها،

---

(١) الحديث **أورده العراقي** في: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ١/ ٤٥، وعقَّب عليه بقوله: «أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح، وقال: غريب من حديث الثوري، ولابن ماجة نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن».

فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس هكذا أُمِرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبَّل زيدٌ بن ثابت يده، وقال: هكذا أُمِرنا أن نفعل ببيت نبينا ﷺ»(١).

٣. **الصبر والتحمل**، فإن فقه المسائل وأدلتها، وحفظها شاق وصعب على النفوس، ومواجهة ذلك إنما يكون بالصبر والتحمل وطول النفس، قال تعالى عن الحوار الذي دار بين موسى ـ عليه السَّلام ـ وبين العبد الصالح:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف: ٦٦ـ٦٩).

٤. **التمتع بقدر من الذكاء والفطنة** ونعني بذلك الجانب المكتسب لا الفطري لأن الفطري هبة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا مدخل لأحد فيه، ويحصل ذلك للمرء بالتجارب والإفادة من الخطأ، وكذلك مخالطة الآخرين، والإفادة من خبراتهم، والوضع في المسئولية منذ نعومة الأظفار، والبعد عن المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، والتوبة منها فوراً بغير تسويف عند اقترافها، ودوام المطالعة والمذاكرة، وكثرة السؤال، وتعلم كيفية التصنيف والتأليف، وممارسة ذلك شيئاً فشيئاً حتى يقوى العود، ويشتد الساعد، إلى غير ذلك من أساليب تنمية الذكاء، والفطنة.

٥. **الاجتهاد والجد في طلب العلم**، وجعل ذلك الشغل الشاغل مع الحرص وعدم التفريط، قال تعالى ليحيى ـ عليه السلام ـ:

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم: ١٢).

---

(١) الحديث **أورده العراقي** في: المغني ١/ ٥٠، وعقَّب عليه بقوله: «أخرجه الطبراني والحاكم، والبيهقي في المدخل، إلا أنهم قالوا: [هكذا نفعل]، قال الحاكم: [صحيح الإسناد على شرط مسلم]».

وقال تعالىٰ عن بني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٦٣، ٩٣، والأعراف: ١٧١).

وقال تعالىٰ لموسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ (الأعراف: ١٤٥).

٦. ملازمة العلماء، والتلقي عنهم لاسيَّما في أوائل الطلب، والتحذير الشديد من الاعتماد علىٰ الكتب وحدها في البداية، فإن هذا ينتهي بالطالب إلىٰ أخطاء لا تُحمد عقباها، علىٰ أنه يشترط فيمن تجب ملازمته من العلماء أن يكون من أهل الاجتهاد والحكمة بحيث يبدأ التربية باختيار رأي واحد، حتىٰ إذا تيقَّن قوة ساعد تلميذه، واشتداد عوده أطلعه علىٰ الآراء الأخرىٰ في غير مذهبه، وأعلمه كيف يوازن بين الأدلة فيجمع بينها، أو يرجح بعضها علىٰ بعض.

يقول الغزالي في آداب المتعلم والمعلم ووظائفه: «الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلىٰ اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله، ويحيِّر ذهنه، ويَفتُر رأيه، ويوئسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة، الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلىٰ المذاهب والشبه، وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد، وإنما عادته نقل المذاهب، وما قيل فيها، فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده، فلا يصلح الأعمىٰ لقود العميان، وإرشادهم، ومَنْ هذا حاله يُعد في عمىٰ الحيرة، وتيه الجهل، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، وندب القوي إلىٰ النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي علىٰ مخالطة الكفار، ولهذا يمنع الجبان عن التهجُّم علىٰ صفِّ الكفار، وينبذ الشجاع له»[1].

كما يشترط متانة الدين في هؤلاء العلماء الذين يلزمهم، ويتلقىٰ عنهم، حيث يُربُّون بسلوكهم قبل أن يُربوا بأقوالهم.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين ١/ ٥١.

الجانب الخامس : ماهية الطائفة المذكورة في الحديث وخصائصها :

اختلف العلماء في تحديد ماهية الطائفة المذكورة في الحديث، فذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أنهم أهل الحديث، قائلاً: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هم»[1]، وعلَّق على ذلك القاضي عياض فقال: «إنما أراد أحمد: أهل السُّنة والجماعة، وَمَنْ يعتقد مذهب أهل الحديث»[2]، وذهب الإمام البخاري إلى أنهم أهل العلم[3]، وكأنه استشف ذلك مما جاء في صدر الحديث من قوله ﷺ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقِّههُ في الدين».

وذهب الإمام النووي إلى أن هذه الطائفة ليستْ محصورةً في شخصٍ بعينه، وإنما تضمُّ كلَّ مسلمٍ ملتزمٍ بالإسلام، عاملٍ له، مضحٍّ في سبيله غير مبالٍ بما ينزل به مِنْ محنٍ وشدائد من مفسِّر، ومحدِّث، وفقيه، وداعية، ومربٍّ، وطبيب، ومهندسٍ، وقاضٍ، وكاتبٍ، وأديبٍ، ومفتٍ، وباحثٍ، وهلمَّ جرّا.

فقد قال: «قلتُ: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرَّقة بين أنواع المؤمنين، منهم: شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض»[4].

واستدل بصحة ما ذهب إليه بقوله: «وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف مازال بحمد الله تعالى من زمن النبيِّ ﷺ إلى الآن، ولايزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث»[5].

وكلام النووي مع وجاهته وموضوعيته يعارضه من حيث المكان الذي تكون به هذه الطائفة حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: «لايزال أهل الغرب

---

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣ / ٦٨.
(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣ / ٦٩.
(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣ / ٦٨.
(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣ / ٦٩.
(٥) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣ / ٦٩.

ظاهرين على الحقِّ حتى تقوم الساعة»[1]، إذ قال علي بن المديني المراد بأهل الغرب: العرب، وقال آخرون: المراد به الغرب من الأرض، وحديث: «آخرهم بيت المقدس» أي أهل الشام، وما وراء ذلك، والحقُّ أنه لا تعارض، لأن هذه الطائفة إنما تكون ابتداءً في كل أنحاء الأرض، وأقواها، وآخرها يكون ببيت المقدس وما وراءه من بلاد الشام، إذ هي أرض الرباط كما جاء في الحديث إلى قيام الساعة[2].

أما خصائص هذه الطائفة فهي كما في الحديث:

١ ـ الفقه في الدين فقهًا يجمع بين الأصالة والمعاصرة، والشمول، والوسطية، ورعاية أدب الخلاف، وأصول الوحدة، ونبذ الفرقة، ونحو ذلك من كلِّ ما يسهم في استمرار قيام الطائفة المذكورة في الحديث بواجبها إلى الوقت الذي أبرمه الله، وقضاه.

٢ ـ الانتماء إلى هذه الأمة المسلمة لا إلى أمة أخرى، بدليل قوله ﷺ: «لا تزالُ طائفة من أمتي...».

٣ ـ الاستمساك بأمر الله بالتحلِّي به في نفسها، ودعوة الآخرين إليه، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدُّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا.

٤ ـ الصبر على المحن والشدائد التي تعترض طريق هذه الطائفة إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

٥ ـ الظهور على النَّاس بالحق، والغلبة به ودليل هذه الخصائص الآخرة جميعًا قوله ﷺ: «قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس».

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب قوله ﷺ: «لا تزالُ طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُّهم مَنْ خالفهم» ١٣/ ٧٠ رقم ٤٩٣٥ / ١٧٧ / ٩ من حديث سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣ / ٧٠.

ما يُستفاد من الحديث دعوياً وتربوياً :

١ - **الحرص على الفقه في الدين** لكونه مأموراً به في الكتاب والسنة والفوائد والثمرات التي مضى الحديث عنها خلال شرح الحديث .

٢ - **اليقين أنَّ خيرية الأمة الإسلامية مستمرة** إلى قرب قيام الساعة كما يكشف عن ذلك قيام الطائفة المذكورة في الحديث بالتحلي بمبررات هذه الخيرية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله - عزَّ وجلَّ - بحيث يثمر هذا اليقين القضاء على اليأس والقنوط ، ثم غرس الثقة والأمل في النفوس .

٣ - **دعوة كل مسلم أن يؤدي واجبه** بكل ما لديه من طاقات وإمكانات ، وأنْ يتحمل مشاق الطريق ومتاعبها فيكون له شرف الانتماء للطائفة المذكورة في الحديث ، وهذه الدعوة مأخوذة من الحديث تلميحاً لا تصريحاً ، لأن التعبير بالخير في الحديث مآله الأمر ، كأنه قال : كونوا ضمن هذه الطائفة القائمة بأمر الله والمستمسكة به دون مبالاة بخذلان المخذِّلين ، ومخالفة المخالفين إلى أن يأتي أمرُ الله وهم على الناس ظاهرون .

٤ - **زيادة اليقين بصدقه** ﷺ في دعوى النبوة والرسالة ، حيث أخبر بما أخبر به ، وصدَّقه الواقع من عصره إلى اليوم رغم العقبات والمعوِّقات ، وسيظل الأمر كذلك إن شاء الله إلى قيام الساعة ، فكانتْ هذه أمارة من أمارات النبوة ، وتظهر ثمرة زيادة هذا اليقين في مزيد من تحكيمه ﷺ في كل شئون الحياة الجليِّ منها والخفيِّ ، والكبير والبسيط ، مع الرضا بما قضى والتسليم ظاهراً وباطناً ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء : ٦٥) .

٥ - **تحقيق وَعْد الله بحفظ دينه** في قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر : ٩) ، إذ أبقى في هذه الأمة مثل هذه الطائفة لحفظ دينه ، وحمايته من كيد الكائدين وعبث العابثين .

الحديث الثالث والثلاثون

عن أنس بن مالك، عن معاذ بن جبل قال: كنتُ رِدْفَ النَّبيِّ ﷺ ليس بيني وبينه إلا مُؤَخِّرةِ الرحل، فقال: «يا معاذ بن جبل»، قلتُ: لبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلتُ: لبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلتُ: لبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حقُّ الله - عزَّ وجلَّ - على العباد؟» قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حقُّ العبادِ على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «ألاَّ يُعَذِّبَهُمْ».

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب اسم الفرس والحمار، رقم ٢٨٥٦، وكتاب اللباس : باب إرداف الرجل خلف الرجل رقم ٥٩٦٧، وكتاب الاستئذان : باب مَنْ أجاب بلبيك وسعديك رقم ٦٢٦٧، وكتاب الرقاق، باب مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله رقم ٦٥٠٠، وكتاب التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى رقم ٧٣٧٣ .

ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الدليل على أن مَنْ مات على التوحيد دخل الجنَّة قطعاً رقم ١٤٣-١٤٦ / ٤٨-٥١ / ١٣٠أ، ب، جـ، د، وهذا لفظه .

والترمذي في: الجامع: كتاب الإيمان: باب ما جاء في افتراق الأمة رقم ٢٦٤٣، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوي من غير وجه عن معاذ بن جبل».

وابن ماجة في: السُّنن: كتاب الزهد: باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة رقم ٤٢٩٦.

وأحمد في: المسند ٥/ ٢٣٨ كلهم من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا مع تفاوت في اللفظ.

وينبغي الانتباه إلى أن هناك حديثًا آخر رواه أنس بن مالك أيضًا عن معاذ فيما يتعلق بجزاء من مات على التوحيد صدقًا من قلبه، وقد أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب العلم: باب مَنْ خَصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا رقم ١٢٨.

ومسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدليل على أنَّ مَنْ مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا رقم ١٤٨ / ٥٣ / ٣٢، ولما تشابه الحديثان في أن معاذًا كان رديف النبي ﷺ في كلٍّ منهما، وأنه وقع في كلٍّ منهما منع النبي ﷺ معاذًا أن يخبر الناس لئلا يتكلوا: ظنهما بعض العلماء ـ كأبي نصر الحميدي الأندلسي المتوفى ٤٨٨، ومَنْ تبعه ـ أنهما حديثٌ واحد، والحقُّ أنهما حديثان لاختلاف موضع كلٍّ من ناحية، ولتضمن حديث جزاء من مات على التوحيد جملة: «فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا» تلك التي خلا منها هذا الحديث.

من ناحية أخرى: كما بيَّن ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني في: فتح الباري ٦/ ٦٠.

المعنى الإجمالي للحديث:

قامتْ الدلائل العقلية والنقلية والفطرية على أنَّ اللَّهَ واحدٌ حَيٌّ قيوم لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم، موصوف بكل كمال، مُنزَّه عن كلِّ نقص كما قامتْ

الدلائل كذلك على أن كلَّ نعمةٍ دقَّتْ أو عظُمَتْ، ظهرت أو خفيتْ، مردُّها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما أكثر هذه النعم :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (طه: ٨).

وقال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ... ﴾ (النحل: ٥٣).

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا... ﴾ (إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨).

وإذا كان الأمر على ما ذكر فإن حقَّ الله على عباده أن يخضعوا له وينقادوا ظاهرًا، وباطنًا، مع كمال الحبِّ والتعظيم، ومع الاستمرار والدوام.

والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يشير إلى هذا الحق، وجزائه، وقد سلك النبي ﷺ في بيانه مسلك السؤال المتكرر مع الصمت برهة من الزمن عند كلِّ مرَّةٍ يسأل فيها بغرض أن يجمع السامع همته، وأن يستحضر ذهنه حتى إذا كان الجواب وقع من النفس كلَّ موقع.

إذ سأل معاذًا عن حقِّ الله على عباده، وكان معاذ ـ رضي الله عنه ـ غاية في حُسن التأدب، وكمال التفويض حين ردَّ الأمر في ذلك كله إلى الله ورسوله، وكان جواب النبي ﷺ أن العبادة لله القائمة على التوحيد، وعدم الشرك هي حقُّ الله على عباده الذي لا يجوز إهداره أو إهماله بحال، ثم بيَّن النبي ﷺ أن جزاء مَنْ عَبَدَ الله فلم يشرك به شيئًا إنما هو الجنة بغير سابقة عذاب، ولكن عبَّر عن هذا الجزاء بالحقِّ الذي أوجبه الله على نفسه، ولم يوجبه عليه أحد من خلقه من باب الحثِّ، والتحريض، والتشجيع.

ولتتضح معالم الحديث بصورة أكثر فإننا سنعرض له من هذه الجوانب:

الجانب الأول: معاني المفردات والجُمل والمغزى الذي ترمي إليه هذه المفردات والجُمل.

الجانب الثاني: تعريف العبادة ومفهومها ومضمونها وأقسامها، وشروط صحتها، وسرُّ التحذير من الشرك.

الجانب الثالث: مبررات أن العبادة الخالية من الشرك حقُّ الله على عباده.

وذلك على النحو التالي:

الجانب الأول: معاني المفردات والجُمل والمغزى الذي ترمي إليه هذه المفردات والجُمل:

قوله: «كنتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل»:

«الرِّدْف»: أصل الرِّدْف، والإرداف: الركوب أو الإركاب على ردف الدابة أي عجزها، كما يطلق على: التابع، والتتابع، ويطلق كذلك على: التأخر والتأخير، ويطلق أيضًا على الدنوِّ والقُرب، والإدناء والتقريب ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ هو ركوب المرء خلف غيره على سبيل التبعية والتأخر لكن مع الدنوِّ والقُرب[1].

والمراد به في الحديث هو ركوب معاذ خلف النبي ﷺ مع دنوِّه منه وقربه لايفصل بينهما إلا مُؤَخَّرة، الرَّحْل، ومأخرة الرَّحْل هي الخشبة أو العود الذي يُجعل خلف الراكب يستند إليه كي لا يؤذيه الركوب، وقصد معاذ من وراء هذه الجملة: المبالغة في شدة قربه، كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٣٣٩ ـ ليكون أوقع في نفس سامعه أنَّه ضبط ما رواه.

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي ٢/ ٩١ ـ ٩٣ بتصرف كثير، والنهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: «رَدِفَ»، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٤٢٩ (١٠/ ٣٩٨) بتصرف.

قوله : «لبَّيْك يا رسول الله وسعديك» :

إجابة بعد إجابة، وإسعاداً بعد إسعاد، وكرر النبي ﷺ السؤال ثلاثًا مع السكوت برهة من الزمن بعد كل سؤال ليحمل معاذًا على العناية والاهتمام بما يخبره به فيجمع همته، ويستحضر ذهنه، ويفهم ما يلقى عليه جيداً، ويعيه، ويعمل به، ويبلِّغه غيره بما يمكن من أساليب البلاغ ووسائله التي لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف(١) .

قوله : «هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟» :

أي ما يستحقه على عباده مِمَّا كلفهم به من حكمه، وألزمهم إياه بصورة دائمة لا انقطاع فيها ولا تردد .

قال القرطبي : «وحقُّ الله على عباده : ما أوجبه عليهم بحكمه، وألزمهم إياه بخطابه»(٢) .

قوله : «قال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» :

المراد : ما وعدهم به من الثواب والجزاء، وقد جعل ربُّ العزَّة هذا الوعد بمثابة حقٍّ للعباد عليه تفضلاً منه وكرمًا، ولا يجوز تخلفه، لأن الكريم إذا وعد لا يُخلف وعده(٣) .

قوله : «ألاَّ يُعذِّبَهُم» :

يقصد أن الله يُدخِلهم الجنة دون سابقة حساب ولا عذاب .

الجانب الثاني : تعريف العبادة، ومفهومها ومضمونها وأقسامها، وشروط صحتها :

لغة : تطلق العبادة في اللغة على معانٍ، نذكر منها :

---

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ١/ ٢٠٣ بتصرف .
(٢، ٣) انظر : المفهم ١/ ٢٠٣ .

١ ـ الانقياد، والخضوع، والذل مطلقًا، تقول: عَبَدَ فلانٌ فلانًا: انقاد له وخضع وذَلَّ، وعبَّدَ الطريق: ذلَّلَهُ، وقيل الانقياد والخضوع والذلُّ لكن مع التعظيم.

٢ ـ الطاعة، تقول: عَبَدَه أطاعه[١].

ولا تعارض بين المعنيين، إذ الطاعة الحقَّة منشؤها التذلل والخضوع، كما أن صدق التذلل والخضوع يقود إلى كمال الطاعة.

وفرَّق الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي بين: العبودية والعبادة بقوله: «والعبودية إظهارُ التَّذلُّل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التَّذلُّل ولا تليق إلا بمن له غاية الإفضال كالباري تعالى»[٢].

شرعًا: أمَّا العبادة في لسان الشرع فهي ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: «اسم جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[٣].

مضمون العبادة ومحتواها مع الدليل:

ومضمون العبادة ومحتواها: شعب الإيمان البضع والستون أو البضع والسبعون التي جاء بها حديث أبي هريرة مرفوعًا: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[٤]، وفي رواية: «الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٥].

---

(١) انظر: القاموس المحيط ١/ ٥٩٦، والصحاح في اللغة والعلوم لنديم وأسامة المرعشليين، ص٧٠٠، المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠ مادة: «عبد» بتصرف.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٣/ ٢٧.

(٣) انظر: العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٣١، نقلاً عن: رسالة العبودية لابن تيمية.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب أمور الإيمان بهذا اللفظ على سبيل الجزم ١/ ٩.

(٥) الحديث أخرجه **مسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان عدد شُعب الإيمان =

وقد ساق ابن تيمية تصوراً لها، فقال:

«فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عبادة، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود عبادة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والخادم، والرحمة بالضعيف، والرفق بالحيوان عبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء في رحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك كله عبادة، بل الدين كله داخل في معنى العبادة، وخير دليل على صحة هذا المضمون، وذلك المحتوى كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة النبي ﷺ، إذ كتاب الله ناطق أن العبادة هي الحياة كلها، وحسبنا آية البر: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى**

=وأفضلها، وأدناها ١/ ٦٣ رقم ٥٧ بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»، ورقم ٥٨ بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، **وأبو داود** في: السنن: كتاب السنة: باب في رد الإرجاء ٥/ ٥٥ ـ ٥٦ رقم ٤٦٧٦ بهذا اللفظ، ولكن بإبدال: «الأذى» بـ: «العظم»، **والترمذي** في: السنن: كتاب الإيمان: باب الإيمان: باب ما جاء في استكمال الإيمان، وزيادته ونقصه ٥/ ١٢ رقم ٢٦١٤ بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله»، وعقّب عليه بقوله: [هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى سهيل بن أبي صالح، عن عبدالله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، وروى عمارة بن غَزِيَّة هذا الحديث، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الإيمان: أربعة وستون باباً»، قال: حدثنا بذلك قتيبة، عن بكر بن مضر، عن عمارة بن غزية به]، **والنسائي** في: السُّنن: كتاب الإيمان: باب ذكر شعب الإيمان ٨/ ١١٠ كرواية مسلم الأولى، وكرواية أبي داود [المجتبى] ٦/ ٥٣٢ رقم ١١٧٣٥ ـ ١١٧٣٦ [السنن الكبرى]، **وابن ماجة** في: السنن: المقدمة: باب في الإيمان ١/ ٢٢ رقم ٥٧ كرواية مسلم الثانية، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وحسبنا كذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ إلىٰ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا...﴾ (الإسراء: ٢٢-٣٩).

وقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا...﴾، إلىٰ قوله سبحانه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا...﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٤)... إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقوله ﷺ: «إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنَّة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنبله، وارموا واركبوا، وأن ترموا أحبَّ إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا في ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه، ونبله، ومَنْ ترك الرمي بعدما علمه رغبةً عنه فإنها نعمةٌ كفرها، أو قال: كفر بها»[1].

---

(١) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السُّنن: كتاب الجهاد: باب في الرمي ٣/ ٢٨-٢٩ رقم ٢٥١٣، **والترمذيُّ** في: السُّنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ٣/ ١٤٩ رقم ١٦٣٧، وعقَّب عليه بقوله: «وفي الباب عن كعب بن عجرة، وعمرو بن عبسة، وعبدالله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح»، **والنسائيُّ** في: السُّنن: كتاب الخيل: باب تأديب الرجل فرسه ٦/ ٢٢٢-٢٢٣ [المجتبىٰ]، ٣/ ٣٩-٤٠ رقم (٤٤٢٠ [الكبرىٰ]، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الجهاد: باب الرمي في سبيل ٢/ ٩٤٠ رقم ٢٨١١، **وأحمد** في: المسند ٤/ ١٤٦، والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: باب مَنْ علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها ٢/ ٩٥ كلهم من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً به، وبنحوه، وعقَّب **الحاكم** بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»=

وقوله ﷺ: «ما مِنْ مسلمٍ يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان به صدقة»(١)، وفي رواية ثانية: «ما مِنْ مسلمٍ يغرس غرسًا إلا كان ما أُكِلَ منه له صدقة، وما سُرِقَ منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة»(٢).

=وأقرَّه الذهبي على ذلك في: التلخيص، وساق الحاكم له شاهداً من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «كل شيء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة: انتضالك بقوسك، وتأديبك فرسك، وملاعبتك أهلك، فإنها من الحقّ»، وقال: «انتضلوا، واركبوا، وأن تنتضلوا أحبُّ إليَّ، إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب فيه الخير، والمتنبِّل، والرامي به»، وقال: صحيح على شرط مسلم»، ولم يوافقه الذهبي على ذلك، إذ قال في: التلخيص: «قلت: كذا قال، وسويد- يقصد ابن عبدالعزيز، أحد رجال الإسناد- متروك».

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المزارعة: باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٣/ ١٣٥ عن قتيبة، وعبدالرحمن بن المبارك، وكتاب الأدب: باب رحمة الناس والبهائم ٨/ ١٢ عن أبي الوليد، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب البيوع: باب فضل الغرس والزرع ٣/ ١٨٩ رقم ١٥٥٣/ ١٢، عن يحيى بن يحيى، وقتيبة، ومحمد بن عبيد بن حساب، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب الأحكام: باب ما جاء في فضل الغرس ٣/ ٦٦٦ رقم ١٣٨٢ عن قتيبة، **وأحمد** في: المسند ٣/ ١٤٧، ٢٢٨-٢٢٩ عن يونس، ٢٤٣ عن عفان، سبعتهم: أعني: [قتيبة، وعبدالرحمن بن المبارك، وأبا الوليد، ويحيى بن يحيى، ومحمد بن عبيد الله بن حساب، ويونس، وعفان]، عن أبي عوانة الوضاح اليشكري، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً، واللفظ لمسلم، وعقّب الترمذي على حديثه بقوله: «حديث أنس حديث حسن صحيح».

ومسلم في: الصحيح: كتاب المزارعة (المساقاة): باب فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٩ رقم ١٥٥٣ / ١٣، عن عبد بن حميد، عن مسلم بن إبراهيم، عن أبان بن يزيد، **والبخاري** في: الصحيح: كتاب المزارعة: باب فضل الزرع والغرس إذا أُكِل منه ٣/ ١٣٥ قائلاً: وقال لنا مسلم: حدثنا أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس مرفوعاً، ولفظ مسلم: أنَّ نبيَّ الله ﷺ دخل نخلاً لأمِّ مبشِّر- امرأة من الأنصار- فقال رسول الله ﷺ: مَنْ غرسَ هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟ قالوا: مسلم، بنحو حديثهم، **وأحمد** في: المسند ٣/ ١٩٢ عن بهز وعفان قالا: حدثنا أبان، عن قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ «دخل نخلاً لأمِّ مبشر امرأة من الأنصار. . . .» الحديث.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب فضل الغرس والزرع =

وقوله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء»[1].

وقوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2].

وحسبنا أيضًا أن حياته ﷺ في سِلْمه، وحربه، في حِلِّه وترحاله، في خاصة نفسه، ومع أهله وذويه، في نومه ويقظته، في كلامه وصمته، في أكله

=٣/ ١١٨٨ رقم ١٥٥٢ / ٧ـ ١١ من عدة طرق إلى جابر بن عبدالله مرفوعاً بهذا اللفظ، وبنحوه، **والدارميُّ** في: السُّنن: كتاب البيوع: باب في فضل الغرس ٢/ ٢٦٨ـ ٢٦٩ من حديث جابر بن عبدالله، عن أمِّ مبشِّر، عن النبي ﷺ به، **وأحمد** في: المسند ٦/ ٤٢٠ من حديث جابر، عن أمِّ مبشِّر مرفوعاً به.

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب البيوع: باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم ٣/ ٥١٥ رقم ١٢٠٩، **والدارميُّ** في: السُّنن: كتاب البيوع: باب في التاجر الصدوق ٢/ ٢٤٧ من حديث أبي سعيد مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السنن: كتاب المناقب: باب فضل أزواج النبي ﷺ ٥/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧ رقم ٣٨٩٥ من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثوري، ما أقل من رواه عن الثوري، ورُوِي هذا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ مرسل».

وابن ماجة في: السُّنن: كتاب النكاح: باب حُسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٦ رقم ١٩٧٧ من حديث عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وعقّب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة ٢/ ١١٧ ـ ١١٨ بقوله: «الحديث من رواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ رواه الترمذي في جامعه، وابن حبان في صحيحه، وأمَّا رواية ابن عباس فإسناد ضعيف لأن عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبّان في: الثقات، وقال عبدالحقّ: ليس بالقويِّ، وقال ابن القطان: مجهول الحال»، ورقم ١٩٧٨ من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «خياركم خياركم لنسائهم»، وعقّب عليه البوصيري في: المصباح ٢/ ١١٨ بقوله: «إسناده على شرط الشيخين.

والحديث **رواه الترمذي** من حديث أبي هريرة، وقال: «حسن»، **والدارميُّ** في: السُّنن»: كتاب النكاح: باب في حسن معاشرة النساء ٢/ ١٥٩، بإسناد الترمذيِّ، ولفظه.

وشربه، مع الخالق والمخلوق، في كلِّ أحواله كانت لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فكانت عبادة تطبيقًا لقوله سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣).

وحسبنا كذلك تطبيقات المسلمين من لدن عصره ﷺ إلى أن طرأ الضعف والانحطاط على حياتهم في عصرنا هذا، إذ كان منهم الخليفة والأمير والوالي، والعامل، والقاضي، والمعلِّم، والمتعلم، والزارع، والصانع، والتاجر، والشرطي، والمجاهد، ونحو ذلك من الحرف والمهارات، بل إن الأمر اللافت للنظر هو أنَّ العلماء في الجملة كانوا يحترفون مع الاشتغال بالعلم استغناءً عمَّا في أيدي السَّلاطين، وغيرهم من الناس فيظلون أحرارًا في الجهر بالحقِّ، وإنكار المنكر بضوابطه الشرعية من غير أن تأخذهم في الله لومة لائم، ولم يكن الاشتغال بهذه الحرف في فقههم خارجًا عن مضمون العبادة ومحتواها.

فأبو حنيفة: النعمان بن ثابت ت ١٥٠ صاحب أول المذاهب الأربعة المشهورة المتبوعة كان بزازًا، ومسلم بن الحجاج صاحب أصح الكتب بعد كتاب الله، وبعد صحيح البخاري ت ٢٦١هـ كان بزازًا، وغيرهما وغيرهما.

أقسام العبادة وشروط صحة كلٍّ منها:

تنقسم العبادة إلى قسمين:

الأول: عبادة مقيدة أو مخصوصة وهي التي حدد الشارع جوهرها وشكلها من العقيدة، والشعائر التعبدية: صلاةً، وزكاةً، وصيامًا، وحجًا وعُمرةً، ونحوها، وهذه لا تُقبل إلا بشرطين:

١ ـ **اتباع السُّنة** بحيث لا يكون فيها تغيير بزيادة أو نقص أو تحريف.

٢ ـ **الإخلاص** بحيث لا يبقى فيها حظ لغير الحق تبارك وتعالى.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

وقال النبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَىٰ. فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلىٰ اللّه ورَسُولِه فهِجْرَتُهُ إِلىٰ اللّه ورَسُولِه، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُه لِدُنْيا يُصِيبُهَا أو امْرأةٍ يَنْكِحُهَا فهِجْرَتُهُ إِلىٰ ما هَاجَرَ إِليه»(١).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنا هذا مالَيْسَ منه فَهُو ردٌّ»(٢).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ١/ ١، وكتاب العتق: باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ٣/ ١٩١، وكتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة ٥/ ٧٢، وكتاب النكاح: باب مَنْ هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوىٰ ٧/ ٤، وكتاب الطلاق: باب الطلاق في الإغلاق والكره [الترجمة] ٧/ ٥٨، وكتاب الأيمان: باب النية في الأيمان ٨/ ١٧٥، وكتاب الإكراه [الترجمة] ٩/ ٢٥، وكتاب الحيل: باب في ترك الحيل ٩/ ٢٩، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية ٢/ ١٥٧، ١٥٨، **وأبو داود** في: السُّنن: كتاب الطلاق: باب فيما عُني به الطلاق والديات ٢/ ٥١٠، **والترمذي** في: السنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فيمن يقاتل رياءً وللدنيا ٤/ ١٧٩ ـ ١٨٠، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، **والنسائي** في: السنن: كتاب الطهارة: باب النية في الوضوء ١/ ٥١، وكتاب الطلاق: باب الكلام إذا قصد به النية في اليمين ٧/ ١٢ ـ ١٣، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الزهد: باب النية ٢/ ١٤١٣ رقم ٤٢٢٧، **وأحمد** في: المسند ١/ ٢٥، ٤٣ كلهم من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٣/ ٢٤١، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٣/ ١٣٤٣ ـ ١٣٤٤ رقم ١٧١٨/ ١٧ ـ ١٨، **وأبو داود** في: السنن: كتاب السنة: باب في لزوم السنة ٥/ ١٢ رقم ٤٦٠٦، **وابن ماجة** في: السنن: المقدمة: باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ١/ ٧ رقم ١٤، **وأحمد** في: المسند ٦/ ٢٧٠ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً به، وزاد مسلم في روايته الثانية: أن سعد بن إبراهيم قال: سألتُ القاسم بن محمد عن رجل له ثلاثة مساكن، فأوصىٰ بثلث كل مسكن منها، قال: يجمع ذلك كله في مسكن واحد، ثم قال: أخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

الآخر: عبادة مطلقة أو عامة، وهي التي لا تسود الأمة، ولا تقوى شوكتها إلا بهأ من الاشتغال بالعلوم التجريبية، والحِرَف، والصناعات، ونحوها، وهذه لم يتدخل الشرع فيها إلا بوضع شروط لها وضوابط، وأهم هذه الشروط وتلك الضوابط:

١ ـ ألا تتعارض مع كتاب الله وسنّة رسوله نصّاً أو استنباطاً.

٢ ـ أن يكون فيها نفعٌ أو مصلحة للفرد والجماعة.

٣ ـ أن يُراد بها وجه الله ومرضاته.

قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (الأنفال: ١٣)، وقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...** ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ...** ﴾ (الحج: ٧٧).

وقال تعالى: ﴿ **لاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء: ١١٤).

سرُّ التحذير من الشرك مع أن العبادة الحقة تقتضي التحرر منه:

وسرُّ التحذير من الشرك مع أنَّ العبادة الحقة تقتضي التحرر منه: أن نفرًا من الناس يقعون في الشرك، وهم يعبدون الله تشبهًا ببعض الكفرة، الذين كانوا يدعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون معه آلهةً أخرى، فاشترط النبيُّ ﷺ نَفْيَ ذلك[1]، كأن تقدير الكلام: أن حقَّ الله على عباده أن يعبدوه حال عدم الإشراك به على حدِّ قوله سبحانه:

﴿ **يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...** ﴾ (النور: ٥٥).

---

(١) انظر: فتح الباري ١٤/ ٥٢١ ط دار أبي حيان ١١/ ٣٣٩ ط السلفية.

وإنما اشترط النبي ﷺ نفي الشرك لأن وجوده يحبط العمل، ويوجب الخلود في النار:

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ....﴾ (المائدة: ٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢).

ويقول النبي ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادىٰ منادٍ: مَنْ كان أشرك في عملٍ عَمِلَهُ لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك»[1]، إلىٰ غير ذلك من الدلائل.

الجانب الثالث: مبررات أنَّ العبادة الخالية من الشرك حقُّ الله على عباده:

ومبررات أن العبادة الخالية من الشرك حقُّ الله علىٰ عباده كثيرة، منها:

١ ـ **وحدانية الله**، وكمالاته التامة، وجلاله المطلق مع التنزه عن كلِّ نقص، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (طه: ٨).

---

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الكهف ٥/ ٣١٤ رقم ٣١٥٤، وقال عقيبه: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد ابن بكر»، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الزهد: باب الرياء والسمعة ٢/ ١٤٠٦ رقم ٤٢٠٣، **وأحمد** في: المسند ٣/ ٤٦٦، ٤/ ٢١٥ كلهم من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة، وكان من الصحابة مرفوعاً، واللفظ لابن ماجة.

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤).

وفحوى هذا المبرر: اطمئنان الناس أن ربهم معهم يرعاهم على قدم المساواة، ولا يتخلّى عنهم أبدًا لاسيَّما إذا عبدوه حقَّ عبادته.

٢ ـ نِعَم الله التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ما ظهر منها وما بطن، ما علمنا منها، وما لم نعلم مع استمرار هذه النعم وإن عصى الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١-٢٢).

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل: ٨١).

٣ ـ أمرُ الله ورسوله بذلك:

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: ٧٧).

وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت: ٥٦).

وقال ﷺ لوفد عبد القيس : «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا . . . » الحديث(١) .

والمسلم الحقُّ لا يسعه أمام أمر الله ورسوله إلا الامتثال .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور : ٥١) .

الجانب الرابع: الجزاء الذي يتفضل به رب العزة على من قام بأداء حقّ الله عليه من العبادة الخالية من الشرك:

الجزاء الذي يتفضل به رب العزة على من قام بأداء حق الله عليه من العبادة الخالية من الشرك هو السلامة من العذاب كما في الحديث «ألا يُعذِّبهم» وهذا أدناه، أمَّا أعلاه فهو الحياة الطيبة في الدنيا، والجنة والرضوان في الآخرة، قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٩٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٧) .

مع الاطمئنان إلى تحقيق هذا الجزاء إذا تحقق شرطه، إذن فالله هو الذي أوجب ذلك على نفسه، وألزمها به عندما سمَّى ذلك حقًّا، مع أنه لا موجب

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب الصلاة : باب قول الله تعالى : ﴿منيبين إليه واتقوه، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ ص ٨٩، رقم ٥٢٣ من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال : قدم وفد عبدالقيس على رسول الله ﷺ فقالوا : إنا من هذا الحيِّ من ربيعة ولسنا نصل إليك إلا في الشهر الحرام، فمرنا بشيء نأخذه عنك، وندعو إليه من وراءنا، فقال : «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع : الإيمان بالله وحده - ثم فسَّرها لهم - شهادة ألاَّ إله إلا الله، وأني رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا إليَّ خُمُسَ ما غنمتم، وأنهى عن الدُّباء، والحنتم، والمقيَّر، والنقير» .

لأحد على الله، ولا ملزم له بشيء أبدًا فكان ذلك منه سبحانه تطمينًا وتشجيعًا للمضي في العبادة مع التخلص من الشرك بكل صوره وأشكاله، ولا عبرة بما ذهب إليه المعتزلة في أن الوجوب على الله إنما هو عقلي، لا شرعي، لأن الله - كما يقول القرطبي -: «لايجب عليه شيء بحكم الأمر، إذ لا أمر فوقه، ولابحكم العقل، إذا العقل كاشف لا موجب»[1].

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا:

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها:

١ - أن عبادة الله التي رأسها التوحيد الخالي من كلِّ شائبة شرك: حقٌّ ثابت لله على عباده، لا يصح إهماله، أو التفريط فيه بحال، ويعين على الالتزام بهذا الحقِّ:

أ - تذكر كمال الله، وجلاله، إذ ذلك يقتضي الحب، والتعظيم، والتوحيد، والتخلص من الشرك ظاهره وباطنه، كبيره وصغيره، ماعلمنا منه وما لم نعلم.

ب - استحضار أنَّ الله أمر بهذه العبادة في قوله: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ (العنكبوت: ٥٦)، كما أمر بها الرسول ﷺ على النحو الذي ذكر آنفًا، والمسلم الصادق لا يسعه أمام أمر الله ورسوله سوى الخضوع والتسليم والانقياد.

جـ - الوقوف مع النِّعم جملة وآحادًا، وكيف يفيض بها الحقُّ تبارك وتعالى على عباده وإن عصوه وخالفوه، فإن ذلك يحمل على الاستحياء، ثم المسارعة إلى إتيان ما يحبه الله ويرضاه، والبعد عن كلِّ ما يبغضه الله ولا يرضاه، وهل العبودية سوى ذلك؟

٢ - أن جزاء عبادة الله الحقة: الحياة الطيبة في الدنيا، والنجاةُ من النار والفوزُ بالجنة غدًا، فضلاً من الله ونعمةً، لقوله سبحانه:

---

(١) انظر: المفهم للقرطبي.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

٣ـ أهمية التهيئة الحافزة في جمع الهمَّة، وحضور الذهن، والقلب، الأمر الذي يساعد على الاستيعاب، والتحليل، والاستنباط، وقد تجلَّتْ هذه التهيئة في ندائه ﷺ معاذًا عدة مرات دون مفاتحته في شيء، حتى إذا صار مهيأ كان السؤال، وكان معه الجواب.

٤ـ فضل السؤال في تحصيل العلوم والمعارف، إذ المرء إذا سئل جمع همته لينطق بالجواب، فإن عجز أصغى ليسمع الجواب، ثم يعمل جاهدًا على الاحتفاظ به، وأن يظل ذاكرًا له فلا ينساه.

٥ـ رحمة الله بعباده، وفضله عليهم بعظيم المثوبة، وجميل المكافأة إن هم عبدوه، فلم يشركوا به شيئًا، بل تشجيعهم حين جعل ذلك حقًّا لهم، وأوجبه على نفسه، والكريم إذا تفضل بوعدٍ ما أنفذه على وجهه الذي به تنشرح الصدور، وتقرُّ الأعين، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (لقمان: ٨، ٩).

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: الرجلُ يقاتل للمغنم، والرجلُ يقاتلُ للذكر، والرجلُ يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله».

تخريج الحديث :

الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٦/ ٣٤ـ٣٦ رقم ٢٨١٠ [فتح الباري]، وكتاب العلم : باب مَنْ سأل وهو قائم عالمًا جالسًا ١/ ٢٩٦ رقم ١٢٣ ، بلفظ : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله، فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حميَّة؟ فرفع إليه رأسه، قال : ـ وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا ـ فقال : «مَنْ قَاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عزَّ وجلَّ».

وكتاب فرض الخمس : باب مَنْ قاتَل للمغنم هل ينقص من أجره، ص ٥١٧ رقم ٣١٢٦ بلفظ : قال أعرابي للنبي ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه، مَنْ في سبيل الله؟ فقال : «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وكتاب التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . . .﴾ ص ١٢٨٥ رقم ٧٤٥٨ بلفظ : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال : «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

ومسلم في : الصحيح : كتاب الإمارة : باب مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ص ٨٥٢ رقم ١٤٩ / ١٩٠٤ / ٤٩١٩ بلفظ البخاري في : فرض الخمس، ورقم ١٥٠ / ١٩٠٤ / ٤٩٢٠ بلفظ البخاري في : التوحيد غير أنه قدم : الشجاعة على الحميَّة، ورقم ١٥١ / ١٩٠٤ / ٤٩٢٢ بلفظ البخاري في : العلم.

وأبو داود في : السنن : كتاب الجهاد : باب مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ص ٣٦٥، رقم ٢٥١٧، بلفظ : أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن الرجل يقاتل للذكر، ويقاتل ليحمد، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليُرى مكانه، فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ قاتل حتى تكون كلمة الله هي أعلى، فهو في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ».

والترمذي في : السُّنن : كتاب فضائل الجهاد : باب ما جاء فيمن يقاتل رياء، وللدنيا، ص ٣٩٤ رقم ١٦٤٦ بلفظ مسلم رقم ١٥١، وعقب بقوله : «وفي الباب عن عمر، وهذا حديث حسن صحيح».

والنسائي في : السنن : كتاب الجهاد : باب مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ص ٤٣١، رقم ٣١٣٨ بلفظ أبي داود، غير أنه لم يذكر : «ويقاتل ليحمد».

وابن ماجه في : السنن : كتاب الجهاد : باب النية في القتال، ص ٤٠٢، رقم ٢٧٨٣ بلفظ مسلم رقم ١٥٠، وكلهم من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

معاني المفردات :

«**للمغنم**» : يعني بقصد الغنيمة والربح المادي.

«**يقاتل للذِكْر**» : يعني : لِيُذكَرَ بين الناس، ويُشار إليه بالبنان، ويشتهر بالشجاعة كما دلَّ على ذلك ما ذُكر في كتاب التوحيد : «ويقاتل شجاعة».

«**يقاتل ليُرى مكانه**» : يعني : للرياء، كما دلَّ على ذلك ما ذُكر في كتاب : فرض الخمس.

«**ويقاتل رياء**» : وفرق هذه الخصلة من سابقتها، أن سابقتها يقصد صاحبها بها (السمعة)، وهذه يقصد بها صاحبها أن يراه الناس يعني : «الرياء».

«**يقاتل حمية**» : يعني : عصبيةً لأهل، أو عشيرة، أو صاحب، أو أرض، أو وطن.

«**يقاتل غضباً**» : يعني لأجل حظِّ نفسه[1]، وهناك تفسير آخر لابن حجر، إذ قال : «ويحتمل أن يفسَّر القتال للحميَّة بدفع المضرة، والقتال غضبًا بجلب المنفعة»[2].

المعنى الإجمالي للحديث :

يُعدُّ الجهاد في سبيل الله الحصن الحامي لدين الله من أن يتطاول عليه المتطاولون، أو يعبث به العابثون، وقد وعد الله المجاهدين الأجر العظيم في الدنيا والآخرة شريطة أن يكون جهادهم خالصًا لله عزَّ وجلَّ، حمايةً لدينه، وإعلاءً لكلمته، وطمعًا في مثوبته، فقال سبحانه : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ (التوبة : ٢٠-٢٢).

ويبين النبي ﷺ في هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه الآن، أن مقاصد الدنيا من طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب، قد تكون داخلة في الشرط المذكور آنفًا إذا ما أريد من المغنم أن يكسب المجاهد رزقًا

---

(١) انظر في كلِّ معاني المفردات : فتح الباري ٦/ ٣٥-٣٦ رقم ٢٨١ بتصرف، والكواكب الدراري للكرماني ٦/ ١١٢-١١٣.

(٢) انظر : فتح الباري ٦/ ٣٦.

حلالاً لنفسه ولأهله فيستغني به عن السؤال، بل يحمله على مواصلة الجهاد ومتابعته، وإذا ما أريد من إظهار الشجاعة إرهاب العدوِّ وتخويفه، أو حمل الآخرين أن يكون شجعان مثله لإعلاء كلمة الله، وإذا ما أريد بالرياء اقتداء الآخرين من القاعدين، وحملهم على النهوض لأداء دورهم وواجبهم، أو نشاط الكسالى والفاترين منهم في مواصلة الجهاد، وعدم الانقطاع، وإذا ما أريد بالحميَّة الدفاع عن الدماء، والأعراض، والأموال والأوطان والمقدسات لتبقى راية دين الله مرفوعة، خفاقة في العالمين، وإذا ما أريد من الغضب الحفاظ على حياته، وعدم استعجال القتل أو الموت لأن المقام يقتضي مقارعة الظالمين وعدم التهاون معهم أو مهادنتهم فيبقى الحكم لله وحده، وقد تكون هذه جميعًا منافية لذلك الشرط إذا ما أريد من طلب المغنم التفاخر والمباهاة والتكاثر فحسب، على حدِّ قول صاحب الجنتين لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف: ٣٤)

وإذا ما أريد من الشجاعة إظهار العضلات، والتباهي بالقوة، وإذا ما أريد من الرياء الثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس، وطلب المثوبة أو المكافأة منهم، وإذا ما أريد من الحميَّة: العصبية الجوفاء التي تحمي ما يكون به التفاخر والتعاظم من الأهل والعشيرة، والأصحاب، والدار، والوطن، وإذا ما أريد من الغضب تخويف الآخرين، وإرهابهم ليبقى رفيعًا، عظيمًا في أعين الآخرين.

وقد جاء ذلك البيان منه ﷺ بكلمات موجزة، ولكنها من جوامع كلمه ﷺ إذ لما سأله سائل عمن يقاتل لبعض هذه الخصال أو لها جميعًا، مَنْ يكون منها في سبيل الله؟ أجابهُ ﷺ بقوله: «مَنْ قَاتَلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله»، وكأنه قال: فَصْلُ ذلك النيَّة، فإن كانت نيته الله فهي جميعًا في سبيل الله، وإن كانت نيته غير الله فهي جميعًا في سبيل غير سبيل الله.

وحتى تضح معالم الحديث بصورة أجلى فإننا سنعرض لهذه الجوانب:

- **الجانب الأول:** حكم القتال للمغنم، وأدلة هذا الحكم.
- **الجانب الثاني:** حكم القتال لإظهار الشجاعة، وأدلة هذا الحكم.
- **الجانب الثالث:** حكم القتال للرياء، وأدلة هذا الحكم.

- **الجانب الرابع :** حكم القتال للحمية، وأدلة هذا الحكم.

- **الجانب الخامس :** حكم القتال للغضب، وأدلة هذا الحكم.

وذلك على النحو التالي :

الجانب الأول : حكم القتال للمغنم، وأدلة هذا الحكم :

اختلف العلماء في حكم القتال للمغنم، فذهب القرطبي - صاحب المفهم - إلى أنه إذا كان الباعث على القتال هو طلب المغنم وحده، بحيث لو لم يتحقق هذا الباعث لقعد عن الجهاد، ولم يشارك فيه بصورةٍ مَّا من الصور فإنه يكون مردوداً وقد حبط عمله، مستدلاً بحديث الباب، حيث لم يذكر النبي ﷺ المغنم أو غيره مما تضمنه السؤال بمجموع روايات الحديث ضمن ما يكون به القتال في سبيل الله[1]، ويشهد له صنيع المنافقين في العهد النبوي، وتخلفهم في تبوك لكونها لم تكن مظنة المغنم.

وذهب ابن بطال، وتبعه ابن حجر العسقلاني إلى التفريق بين أن يكون مراده بطلب المغنم لكسب الحلال ليستغني به هو وأهله وذووه، وليتقوَّىٰ به على مواصلة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وبين أن يكون مراده هو التكاثر والمباهاة والتفاخر على حدِّ قول صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا** ﴾ (الكهف : ٣٤)، فالأول مقبول، لأن مآله أن صار في سبيل الله[2]، على أن الله - عز وجل - قال : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ...** ﴾ (البقرة : ١٩٨)، حين تحرَّج نفرٌ من المسلمين أن يضم إلى الحج التجارة، فنزلت لبيان الجواز مادام الهدف الأسمى الحج وغيره جاء تبعًا، ومثل الحج : الجهاد، وسائر الأعمال.

وجاء عن النبي ﷺ قوله : «إن من خير معايش الناس رجلاً ممسكًا فرسه في

---

(١) انظر : المفهم للقرطبي ٣/ ٧٤٢ - ٧٤٣ بتصرف.

(٢) انظر : شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٥ - ٢٦ بتصرف، وعنه نقل ابن حجر في : فتح الباري ٦/ ٣٦ - ٣٧.

سبيل الله»[1]، فجعل الجهاد - كما يقول صاحب المفهم - : مما يصح أن يتخذ للمعاش، كما جاء عنه ﷺ قوله: «وَجُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رمحي. . . الحديث»[2]، ومازال المسلمون من العصر النبوي إلى اليوم يجاهدون، ويغرون، ويصيبون المال، وبه يستغنون، ويواصلون الجهاد والغزو، ولم يَقُل أحد إنَّ عملهم هذا باطل أو شرك.

وأمَّا الثاني فغير مقبول لأنه قصد به عرضًا من الدنيا مكاثرة ومباهاة ومفاخرة، كما دل على ذلك ظاهر حديث الباب، حيث لم يجعل طلب المغنم داخلاً في سبيل الله[3]، وحديث الذي خرج للجهاد وهو يريد عرض الدنيا، فقال النبي ﷺ: «لا أجر له»[4]، ولا تعارض بين قول القرطبي، وقول ابن بطال ومَنْ معه، لأن القرطبي أجمَل، وابن بطال ومَنْ معه فصَّلُوا، وجعلوا المدار على النية، وهذا هو الحق الذي يشهد له قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى. . .» الحديث[5].

---

(١) الحديث جزء من حديث **أخرجه مسلم في**: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل الجهاد والرباط، ص ٨٤٦ رقم ١٢٥ / ١٨٨٩ / ٤٨٨٩ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعًا، ولفظه: «من خير معاش الناس لهم: رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة (صوت حضور العدوِّ)، أو فزعة (النهوض إلى العدوِّ) طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة (أعلى الجبل) من هذه الشعف، أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربَّه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير».

(٢) انظر: المفهم للقرطبي ٣/ ٧٤٣.

(٣) الحديث سبق تخريجه في: المجلد الأول، ص ٣٧٨.

(٤) الحديث **أخرجه الحاكم** في المستدرك: كتاب الجهاد: باب لا أجر لمجاهد يبتغي متاع الدنيا ٢/ ٨٥ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يتبغي عرضًا من عروض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له»، فسأله الثانية، والثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له»، ثم عقَّب عليه بقوله: «وهو حديث حسن الإسناد، ولم يخرجاه»، وأقرَّه الذهبي في التلخيص.

(٥) الحديث سبق تخريجه في المجلد الأول، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

وقوله ﷺ: «مَنْ غزا في سبيل الله، ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى»[1].

بَيْد أنه إذا تجرد المرء عن طلب المغنم فلاشك أن منزلته أرفع، ومكانته أعلى على نحو ما وقع من هذا الصحابي الجليل الذي جاء النبي ﷺ فآمن به واتبعه، فقال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ فقسمه، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظَهْرَهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكنِّي اتبعتك على أن أُرْمَى ههنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت، فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك»، ثم نهضوا إلى قتال العدوِّ، فأُتي به رسول الله ﷺ يحمل، وقد أصابه سهم حيثُ أشار، فقال النبي ﷺ: «هو، هو؟» قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقه»، وكفَّنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ ثم قدَّمه، فصلَّى عليه، وكان مما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، قتل شهيداً، وأنا عليه شهيد»[2].

الجانب الثاني: حكم القتال لإظهار الشجاعة، وأدلة هذا الحكم:

ذهب بعض العلماء إلى أنه إن قاتل للأجر والذكر أو لإظهار الشجاعة فجهاده مردود، وقد حبط عمله مستدلين بحديث الذي جاء إلى النبي ﷺ يقول: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر، والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لاشيء له»، فأعادها ثلاث مرات، يقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتُغي به وجهه»[3].

فكيف بمن كان همَّهُ الذكرُ أي الصيت أو إظهارُ الشجاعة فقط، إن بطلان جهاد هذا، وحبوط عمله أولى، وأظهر.

---

(١) الحديث سبق تخريجه في المجلد الأول، ص ٣١٥.

(٢) الحديث سيأتي تخريجه في: شرح الحديث: الثامن والثلاثين.

(٣) الحديث سبق تخريجه في: المجلد الأول، ص ٣٢١.

وفرق ابن بطال وابن حجر بين أن يكون القصد من الذكر أو إظهار الشجاعة: إرهاب العدو، وتخويفه، أو حمل الآخرين، أن يكونوا شجعان مثله بحيث يستمر الجهاد، وتعلو راية التوحيد، وكلمة الله، وبين أن يكون القصد: إظهار العضلات، والتباهي بالقوة، أمَّا الأول فمقبول لأنه آل في الحقيقة إلى إعلاء كلمة الله التي أخبر النبي ﷺ في حديث الباب أن القتال من أجلها هو الذي يكون في سبيل الله[1].

ويمكن تقوية ذلك بما جاء عن النبي ﷺ من قوله لأبي دجانة يوم أحد وقد أعلم بعصابة حمراء، فنظر إليه وهو مختال في مشيته بين الصفين فقال: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع»[2].

ومن قوله للمسلمين يوم عمرة القضاء، وقد قال المشركون: إنه يقدم عليكم وفدٌ وهنتهم حمَّى يثرب: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة»، وأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين[3].

وأما الثاني فغير مقبول بدليل حديث: «إن أوَّل الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجلٌ استشهد فأُتي به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ، قال: كذبت، ولكنَّك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار..»[4].

ولاتعارض بين الرأيين، لأن الأول أجمل، والثاني فصَّل، وجعل المدار على النية، وهو الأظهر الذي يشهد له حديث الباب، وحديث «إنما الأعمالُ بالنيات...».

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥/ ٢٥-٢٦، وفتح الباري ٦/ ٣٥ بتصرف.

(٢) **أخرجه الطبراني** في: المعجم الكبير: مسند سماك بن خرشة أبي دجانة الأنصاري ٧/ ١٠٤ رقم ٦٥٠٨، **وأورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب المغازي: باب منه في وقعة أحد ٦/ ١٠٩، وعزاه إلى الطبراني قائلاً: «رواه الطبراني، وفيه مَنْ لم أعرفه».

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المغازي: باب عمرة القضاء، ص ٧٢١، رقم ٤٢٥٦ من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً.

(٤) الحديث سبق تخريجه في: المجلد الأول، ص ٤٣-٤٤.

الجانب الثالث: حكم القتال للرياء وأدلة هذا الحكم:

قال نفرٌ من العلماء ـ منهم القرطبي صاحب المفهم ـ: القتال رياءً: شركٌ مهلكٌ صاحبَه، ومستوجبٌ له النار، مستدلين بحديث الباب حيث لم يذكر من مبررات كون الجهاد في سبيل الله سوىٰ إعلاء كلمة الله، وسكت عن الباقي بما فيه الرياء، وكأن سكوته هذا إعلان بأن ما عدا إعلاء كلمة الله ليس جهاداً في سبيل الله[1]، ويشهد لكلامهم قوله ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: «وإن قاتلت مرائيًا مكاثراً، بعثك الله مرائيًا مكاثراً، على أيِّ حالٍ قاتَلْتَ أو قُتِلْتَ بعثك الله بتلك الحال»[2].

وقوله ﷺ: «الغزو غزوان: فأمَّا مَنْ ابتغىٰ وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومَهُ ونَبهَهُ أجرٌ له، وأمَّا مَنْ غزا فخراً ورياءً، وسمعةً، وعصىٰ الإمام وأفسد في الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف»[3].

وفرَّق ابن بطال، وابن حجر بين أن يكون مقصوده تشجيع الآخرين كي يقدموا، ولا يتقاعسوا، ولا يتوانو، وبين أن يكون مقصوده إرضاء الناس، والظفر منهم بالمحمدة، والثناء بل والمكافأة، أمَّا الأول فمقبول لحديث: «مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها، وأجر مَنْ عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سنَّ في الإسلام سُنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر مَنْ عَمِلَ بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[4].

وأما الثاني فغير مقبول لأنه نوع من الشرك، والشرك محبط العمل، موجب النار، والعياذ بالله[5].

---

(١) انظر: المفهم ٣/ ٧٤٢ بتصرف.

(٢) الحديث سبق تخريجه في: المجلد الأول، ص ٣١٦.

(٣) الحديث سبق تخريجه في: المجلد الأول، ص ٣١٨.

(٤) الحديث سبق تخريجه في: المجلد الأول، ص ٣٢٤.

(٥) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥/ ٢٥ـ٢٦، وفتح الباري ٦/ ٣٥ بتصرف.

ولا تعارض بين الرأيين، لأن الأول أجمل، وهذا فصَّل، وجعل المدار على النية، وهذا هو الأليق الذي يشهد له حديث الباب، وحديث النيَّة، ومقاصد الشريعة.

الجانب الرابع: حكم القتال حميَّةً، وأدلة هذا الحكم:

ذهب فريق من العلماء إلى أن القتال حميَّة محبط العمل، مستوجب الوزر مستدلين بحديث الباب، حيث اقتصر في مبررات كون الجهاد في سبيل الله على إعلاء كلمة الله.

ويشهد لهم حديث قُزْمان الذي كان يقول فيه النبي ﷺ إذا ذكر عنده: «إنه لمن أهل النار»، وقد صدقت الأيام ما قال النبي ﷺ، إذ لما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً، فقتل وحده: ثمانيةً أو سبعةً من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار أبي ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزمَان فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلتُ إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ، ثم لما اشتدت عليه جراحته أخذ سهمًا من كنانته فقتل به نفسه[1].

وفرَّق ابن بطال وابن حجر بين أن تكون الحمية من أجل حماية الوطن

---

(١) الحديث **أورده ابن هشام** في: السيرة ٢/ ١٤٧، والطبري في: تاريخ الملوك والأمم ٢/ ٥٣١ وعيون الأثر لابن سيِّد النَّاس ١/ ٢١٠، ٢/ ١٦ من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، **وأخرجه البخاري** بلفظ آخر في: الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب لا يقول فلان شهيد ٤/ ٤٥، وكتاب المغازي: باب غزوة خيبر ٥/ ١٧٠، وكتاب القدر: باب الأعمال بالخواتيم، وما يخاف منها، وباب العمل بالخواتيم ٨/ ١٢٨، ١٥٥، **والإمام مسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١/ ١٠٦ رقم ١٧٩، **وأحمد** في: المسند ٥/ ٣٣٢ من حديث سهل بن سعد السَّاعدي مرفوعًا، **وأورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب المغازي والسير: باب منه في وقعة أحد ٦/ ١١٦ بإسناد ابن هشام والطبري، وإسناد البخاري ومسلم وأحمد، وعقَّب بقوله: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح»، وانظر تخريجه في: من أخلاق النصر، ص ٢٠٢.

ليبقى دار إسلام تصان فيه الدماء، والأموال، والأعراض، والمقدسات، وبين أن تكون من أجل الأهل، والعشيرة، والأرض عصبية، أو تحزبًا.

أما الأول فمقبول لأنه صار داخلاً ضمن إعلاء كلمة الله التي هي المبرر الحقيقي لكون الجهاد في سبيل الله[1]، ويشهد لذلك قوله سبحانه:

﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا** ﴾ (النساء: ٧٥).

وحديث: «مَنْ قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومَنْ قُتِل دون دمه فهو شهيد، ومَنْ قُتِل دون دينه فهو شهيد، ومَنْ قُتِل دون أهله فهو شهيد»[2].

وأما الآخر فغير مقبول لأنه صار لغير الله، كما جاء في حديث قُزْمان المذكور آنفًا.

ولا تعارض بين القولين، لأن الأول أجمل، والثاني فصّل، وجعل النية هي المحور، وهي فصل الخطاب، ولعل هذا هو الذي تؤيده نصوص الكتاب والسنَّة، ومقاصد الشريعة.

الجانب الخامس: حكم القتال غضبًا، وأدلة هذا الحكم:

ذهب نفر من العلماء إلى أن القتال غضبًا لا يوجب لصاحبه أجرًا بل يأثم به، وعمله باطل، مستدلين بحديث الباب، حيث لم يذكر من مبررات كون الجهاد في سبيل الله سوى إعلاء كلمة الله، أما باقي المبررات التي جاءتْ في سؤال السائل، ومنها: الغضب، فقد أضرب عنها صفحًا، ولم يقم لها وزنًا.

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥/ ٢٥-٢٦، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٣٥.

(٢) الحديث **أخرجه النسائي** في: السنن: كتاب السنة: باب في قتال اللصوص، ص ٦٧٥ رقم ٤٧٧٢، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الديات: باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد ص ٣٤٣-٣٤٤ رقم ١٤٢١ كلاهما من حديث سعيد بن زيد- رضي الله عنه- مرفوعًا.

وفصَّل آخرون بين أن يكون الغضب لله، وبين أن يكون للنفس، أما الأول فمحمود، لأنه صار والحال هذه قتالاً في سبيل إعلاء كلمة الله، وصيانة حرماته[1]، ويشهد لذلك حديث عمرو بن أقيش المعروف بأصيرم بن عبدالأشهل: «إذ كان له ربًا في الجاهلية فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمِّي؟ قالوا: بأُحد، قال: بأحد، فلبس لأمته، وركب فرسه، ثم توجَّه قِبَلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنَّا يا عمرو، قال: إني قد آمنتُ، فقاتل قتالاً حتى جرح، فحمل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فقال لأخيه سلمَة: حميَّةً لقومه، أو غضبًا لله ورسوله، فقال: بل غضبًا لله ورسوله، فمات فدخل الجنَّة، وما صلى لله صلاةً»[2].

وأمَّا الآخر فمردود، لأنه صار والحال هذه لغير الله، وكل ما كان لغير الله فمردود، وباطل، إذ سأل عبدالله بن عمرو بن العاص رسول الله ﷺ: ماينقذني مِنْ غضب الله؟ قال: «لا تغضب»[3].

ولا تعارض بين الرأيين، إذ الأول أجمل، والآخر فصّل جاعلاً المدار على النية على نحو ما سبق به البيان في سائر الخصال الواردة في السؤال.

الجانب السادس: بعض النصوص الأخرى الواردة في معنى الحديث:

جاءتْ نصوص أخرىٰ في معنىٰ الحديث، منها:

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥/ ٢٥ـ٢٦، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٣٥ بتصرف.

(٢) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الجهاد: باب فيمن يسلم، ويقتل مكانه في سبيل الله، ٣/ ٤٣ رقم ٢٥٣٧، وعنه نقل الحافظ الذهبي في: تاريخ الإسلام: قسم المغازي ص ١٨٤ـ١٨٥، **وأورده الشيخ محمد يوسف** في: حياة الصحابة، نقلاً عن ابن حجر في الإصابة، وقد عزاه ابن حجر بدوره إلى أبي داؤد، والحاكم، وعقب عليه بقوله: «هذا إسناد حسن» ١/ ٤٩٥ـ٤٩٦.

(٣) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٢/ ١٧٥ من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعًا بهذا اللفظ.

قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوىٰ...»[1].

وقوله ﷺ: «مَنْ غزا في سبيل الله، ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوىٰ»[2].

وقوله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم»، قالت عائشة: قلتُ يا رسول الله: كيف يخسف بأولهم وآخرهم؟ قال: «يخسف بأوَّلهم، وآخرهم، ثم يُبعثون علىٰ نياتهم»[3].

وقوله ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص، وقد سأله عن: الجهاد والغزو: «إن قاتلت صابراً محتسبًا بعثك الله صابراً محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا بعثك الله مرائيًا، مكاثرًا، علىٰ أيِّ حالٍ قَاتَلْتَ أو قُتِلْتَ بعثك الله بتلك الحال»[4]، إلىٰ غير ذلك من النصوص.

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا:

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا فوائد، منها:

١ ـ الحرص علىٰ معرفة الحق أو الصواب لاسيَّما في المسائل الشائكة أو المشكلة بحيث يقع العمل مطابقًا لهذا الحق أو الصواب، وبالتالي يكون القبول وما يتبعه من الأجر والثواب.

٢ ـ أن كلاً من الجهاد للمغنم، والشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب قد يكون مقبولاً محفوفًا بالأجر والثواب، وقد يكون مردوداً مقرونًا بالوزر، والعقاب، والمدار في ذلك كله علىٰ النيّة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٣ ـ بلاغته ﷺ وبيانه، حيث ساق الجواب عامًّا، وترك للمُخاطَب مراجعة نفسه، إن كان يريد الأجر حَسَّن النية وجعلها لله، وإن كان يريد غير ذلك دنَّسَ النيّة، وجعلها لغير الله.

٤ ـ الراجح أن الجهاد إذا كان لله أصلاً، وأدخل عليه المجاهد بعد ذلك

(١، ٢، ٣، ٤) هذه الأحاديث سبق تخريجها في: المجلد الأول، ص ٣٠٩ـ٣١٠، ٣١٥ـ٣١٦.

قصد المغنم، فلا ضير لقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ (البقرة: ١٩٨)، أما إذا تساويا أو غلب طلب المغنم قصد إعلاء كلمة الله فهنا يكون الحرج والوقوع في المحظور، ومثل ذلك يقال في القتال للحمية، والقتال للغضب.

٥ ـ أن أمثل الطرق وأقومها لفقه الكتاب والسنَّة جمع النصوص ذات الموضوع الواحد، وربطها ببعضها، ومحاولة التأليف بين المتعارضات منها إما بالجمع، وإما بالترجيح، كما في هذا الحديث، إذ ما كان يمكن فقهه فقهًا دقيقًا سليمًا إلا بسلوك هذه الطريق، وبذلك يقضي على انحراف السلوكيات، وخلل التطبيق.

٦ ـ أنه لاشي يعدل الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، لما يترتب على إعلاء كلمة الله من نشر الحقِّ والفضيلة، بل وتثبيت دعائمها، وكذلك من محاصرة الباطل والرذيلة، وربما القضاء عليهما، الأمر الذي يأمن معه الناس كل الناس على دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، ومقدساتهم وسائر الحرمات، ويعبد المؤمنون ربهم بحرية، وراحة بال، فضلاً عن وحدة الصف وجمع الكلمة، والغنى واليسار، وبعبارة أخرى تكون سعادة الدنيا، وفوز الآخرة.

٧ ـ أنه لا يحكم على واحد بعينه أتى عملاً يصلح للدنيا والآخرة: أن عمله مقبول أو غير مقبول، وإنما يفوَّض الأمر في ذلك إلى الله الذي يعلم خائنة الأعين، وما تُخفي الصدور، أو مَنْ يطلعه الله على ذلك من الأنبياء، والمرسلين، أمَّا الحكم بالقبول، أو الرد على واحد بصفته فجائز بأن نقول: مَنْ أتى عملاً يريد به الدنيا فعمله مردود، ومَنْ أتاه يريد به الآخرة فعمله مقبول، لأن ذلك ليس من قبيل الهجوم أو الجرأة على الغيب.

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسيُدي، قال: - وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلتُ نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكونُ عند رسول الله ﷺ يُذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وماذاك؟»، قلتُ: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة: ساعة، وساعة» (ثلاث مرات).

تخريج الحديث:

الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب التوبة: باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات، والاشتغال بالدنيا ٤/ ٢١٠٦ رقم ١٢ (٢٧٥٠)، فقال: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، وقطن بن نسير (واللفظ ليحيى) قال: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسيدي، وساق الحديث بهذا اللفظ، وقال: حدثني إسحاق بن منصور، قال أخبرنا عبدالصمد، قال سمعت أبي يحدث، قال: حدثنا سعيد الجريري، عن أبي عثمان النهدي عن

حنظلة، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت، فضاحكت الصبيان، ولاعبت المرأة، قال: فخرجت، فلقيت أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، نافق حنظلة، فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلتُ مثل ما فعل، فقال: «يا حنظلة: ساعةٌ وساعةٌ، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تُسلّم عليكم في الطرق»، وقال حدثنا زهير بن حرب، قال حدثنا الفضل بن دكين، قال حدثنا سفيان عن سعيد الجريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة التميمي الأسيدي الكاتب، قال: كنا عند النبي ﷺ فذكرنا الجنة والنار، فذكر نحو حديثهما.

والترمذي في: السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٥٤٧ رقم ٢٤٥٢ عن عباس العنبري، عن أبي داود (الطيالسي)، عن عمران القطان عن قتادة عن يزيد بن عبدالله بن الشخير، عن حنظلة الأسيدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تكونون كما تكونون عندي لأظلتكم الملائكة بأجنحتها»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، عن حنظلة الأسيدي، عن النبي ﷺ، وفي الباب عن أبي هريرة» ٤/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥ رقم ٢٥١٤ عن بشر بن هلال البصري، عن هارون بن عبدالله البزاز، عن سيار، كلاهما عن جعفر بن سليمان، عن سعيد الجريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة، وكان من كتّاب النبي ﷺ أنه مرّ بأبي بكر وهو يبكي... الحديث، وقال في آخره: «... ولكن: يا حنظلة ساعة، وساعة، وساعة»، ثلاث مرات، بدل مرتين، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وكتاب صفة الجنة باب في صفة الجنة ونعيمها ٤/ ٥٨٠ رقم ٢٥٢٦ عن أبي كريب، عن محمد بن فضيل، عن حمزة الزيات، عن زياد الطائي، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا يا رسول الله: ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فأنسنا أهالينا، وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة في بيوتكم...»

الحديث، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل، وقد روي هذا الحديث بإسناد آخر، عن أبي مدلة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ».

وابن ماجة في: السنن: كتاب الزهد: باب المداومة على العمل ٢/ ١٤١٦ رقم ٤٢٣٩ عن أبي بكر بن أبي شيبة عن الفضل بن دكين، عن سفيان، عن الجريري، عن أبي عثمان، عن حنظلة الكاتب التميمي الأسيدي، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأي العين، فقمتُ إلى أهلي وولدي، فضحكت، ولعبت، قال: فذكرتُ الذي كنا فيه، فخرجتُ فلقيت أبا بكر، فقلت: نافقت، نافقت، فقال أبو بكر: إنا لنفعله، فذهب حنظلة فذكره للنبي ﷺ، فقال: «يا حنظلة، لو كنتم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو على طرقكم، يا حنظلة: ساعة، وساعة».

وأحمد في: المسند ٤/ ١٧٨ بإسناد مسلم الثاني إلى حنظلة، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأي عين، فأتيتُ أهلي وولدي فضحكت، ولعبت، وذكرت الذي كنا فيه، فخرجت فلقيت أبا بكر، فقلت: نافقت، نافقت، فقال: إنا لنفعله، فأتيتُ النبي ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال: «ياحنظلة، لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو في طريقكم، أو كلمة نحو هذا ـ هكذا قال هو، يعني: سفيان ـ: ياحنظلة ساعة، وساعة»، ٤/ ٣٤٦ عن أبي أحمد الزبيري قال: حدثنا سفيان، عن الجريري، عن أبي عثمان، عن حنظلة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار، حتى كانا رأي عين، فقمتُ إلى أهلي فضحكت ولعبت مع أهلي، وولدي، فذكرت ما كنت عند رسول الله ﷺ فخرجت، فلقيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر: نافق حنظلة، قال: وما ذاك، قلت: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار، حتى كانا رأي عين، فذهبتُ إلى أهلي فضحكت ولعبت مع ولدي وأهلي، فقال: إنا لنفعل ذاك، قال: فذهبت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «يا حنظلة، لو كنتم تكونون في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة، وأنتم على فرشكم، وبالطرق، يا حنظلة، ساعة، وساعة».

وبالإسناد الأول عند **الترمذي**، ولكن بلفظ: قلتُ يا رسول الله: إنا إذا كنا عندك كنا، وإذا فارقناك كنا على غير ذلك، فقال: والذي نفسي بيده لو كنتم تكونون على الحال التي تكونون عندي لصافحتكم الملائكة، ولأظلتكم بأجنحتها».

وبنظرة خاطفة في الأسانيد التي روي بها هذا الحديث يظهر أن:

١ ـ **الإسناد الأول عند مسلم «صحيح»**، وإذا كان فيه: «قطن بن نسير» وهو ـ كما في التقريب ٢/ ١٢٦ ـ: «صدوق يخطئ»، فإن ذلك لا يضره، لأن معه يحيى بن يحيى التميمي، وهو ـ كما في التقريب ٢/ ٣٦٠ ـ: «ثقة ثبت إمام» وإذا كان فيه: «جعفر بن سليمان الضبعي» وهو ـ كما في التقريب ١/ ١٣١ ـ: «صدوق زاهد، لكنه كان يتشيع»، فإن ذلك لا يضره، لأن التشيع هنا يُراد به محبة: «علي وآل بيته»، دون الحط على الشيخين أو غيرهما من الصحابة على أنه إذا كان بدعة، فإنها ليست مكفرة يرد بها الحديث، كما أن الحديث ليس دعوة إليها.

وإذا كان فيه: «سعيد بن إياس الجريري»، وهو كما قال ابن حجر في: التقريب ١/ ٢٩١: «ثقة من الخامسة اختلط قبل موته بثلاث سنين»، فإن ذلك لا يضره، إذ يحمل الأمر ـ كما قال أبو عمرو ابن الصلاح فيما نقله عنه تلميذه محيي الدين النووي في مقدمة المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١/ ١٨ ـ على أن الاختلاط طرأ بعد أخذ مسلم عنه.

وكذلك الإسناد الثاني عن مسلم «صحيح»، ووجود سعيد بن إياس الجريري به لا يضره كما تقدم في الإسناد الأول.

والإسناد الثالث: «صحيح» أيضًا: وإذا كان فيه سفيان الثوري، وهو كما قال ابن حجر في التقريب ١/ ٣١١: «ثقة حافظ، فقيه، عابد، إمام، حجة، من رؤوس الطبقة السابعة، وكان ربما دلس»، فإن ذلك لا يضره لأنه كما قال الذهبي في: ميزان الاعتدال ٢/ ١٦٩: «كان له نقد وذوق»، ـ يعني يعي مايحمل

وما يروي - ولذا أكمل الذهبي فقال: «ولا عبرة لقول من قال: يدلس، ويكتب عن الكذابين».

وقد جمع مسلم في سياقه أسانيد هذا الحديث بين العالي منها، وهو الأول، وبين النازل وهو الثاني، والثالث، وهو من مفاريده.

٢ - الإسناد الأول عند الترمذي فيه: «عمران القطان»، وهو كما في: التقريب ٢/ ٨٣: «صدوق يهم ورُمي برأي الخوارج»، وروى عباس الدوري عن يحيى كما في الميزان ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ فقال: «كان عمران القطان يرى رأي الخوارج، ولم يكن داعية»، فهو كما قال الترمذي: «حسن غريب من هذا الوجه».

والإسناد الثاني عند الترمذي أيضًا فيه: «سيار بن حاتم»، وهو كما في: التقريب ١/ ٣٤٣: «صدوق له أوهام»، وفيه: «سعيد الجريري»، وقد تقدم الكلام فيه.

والإسناد الثالث أعله الترمذي نفسه بقوله: «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل»، ولعله يشير بذلك إلى: «زياد الطائي» فإنه كما يقول ابن حجر في: التقريب ١/ ٢٧١: «مجهول، أرسل عن أبي هريرة»، فضلاً عن أن «حمزة الزيّات» مع كونه صدوقًا، ربما يهم كما في: التقريب ١/ ١٩٩، ثم بيّن أن الانقطاع في هذه الرواية قد وصل بمجيء الحديث بإسناد آخر إلى أبي مدلة مولى عائشة، عن أبي هريرة، رفعه.

أضواء على حياة الصحابي راوي الحديث:

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل: حنظلة بن الربيع ينتهي نسبه إلى أسيد بن عمرو بن تميم، فيقال في نسبه: «الأسيدي، التميمي»، كنيته: أبو ربعي ولقبه: الكاتب، حيث جعله النبي ﷺ خليفة كل كاتب من كتابه إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمة، فقال له: الزمني، وأذكرني بكل شيء أنا فيه، وكان لا يأتي على مال، ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره

فلا يبيت ﷺ وعنده منه شيء.

ومرّ رسول الله ﷺ يومًا بامرأة مقتولة يوم فتح مكة فقال لحنظلة: الحق خالدًا، وقل له: لا تقتلن ذرية، ولا عسيفًا - أي: أجيرًا.

وبعثه ﷺ إلى أهل الطائف: أتريدون الصلح أم لا؟ فلما توجه إليهم قال رسول الله ﷺ: «ائتموا بهذا، وأشباهه».

وكتب لأبي بكر الصديق في خلافته - بعد أن التحق - ﷺ بالرفيق الأعلى، وشارك خالد بن الوليد حروبه في العراق.

كما شارك في معركة القادسية على عهد عمر - رضي الله عنه - ومن مناقبه آنذاك: أنه لما وجه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سعدًا إلى العراق، وكتب إليه أن يسبع القبائل أسباعًا، ويجعل على كل سبع رجلاً، فعل سعد ذلك، وجعل السبع الثالث تميمًا، وأسدًا، وغطفان، وهوازن، وأميرهم حنظلة بن الربيع هذا، بل كان أحد من سير إلى يزدجرد يدعوه إلى الإسلام، نزل الكوفة، وتخلّف عن علي يوم الجمل، حيث لم يظهر له مع من يكون الصواب أو الحق؟ وحين سمع سب عثمان علانية خرج من الكوفة إلى قرقيسياء[1]، واعتزل فيها قائلاً: «لا أقيم في بلد يُشتم فيه عثمان»، وظل بها حتى وافته منيته بعد علي، وكان كثير التفقد لقلبه، حاضر الدمعة، متهمًا نفسه دومًا بالتقصير، والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن خير شاهد على ذلك.

ومن خلال هذا العرض تبرز عدة حقائق منها:

١ - أنه كان عالي الهمة، قوي الإرادة، صادق العزيمة، بدليل هذه المهام الجليلة التي كانت منوطة به، وقام بإنجازها جميعًا دون أن يؤثر عنه فتور أو تقصير.

---

(١) قرقيسياء: بالفتح ثم السكون، وقاف أخرى، وياء ساكنة، وسين مكسورة، وياء أخرى، وألف ممدودة، بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات فهي في مثلث بين الخابور والفرات، انظر معجم البلدان ٤/ ٣٢٨.

٢ ـ كما كان ذا عقل ووعي، يفرق بين ما ينبغي أن يدخل فيه، وبين ما ينبغي أن يعتزله.

٣ ـ وأنه كان محل ثقة رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر.

٤ ـ وأن الذي صنع منه جميع ما تقدم إنما هو إيمانه القوي، وإخلاصه وصدقه مع الله، واتباعه للسنّة، مع تفقده لقلبه دومًا واتهامه نفسه بالتقصير، والحرص على الإنابة والتوبة.

هذا، وقد روى عن النبي ﷺ ثلاثة أحاديث، أخرج اثنين منها: مسلم والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وروى عنه جماعة منهم: الحسن البصري، وقيس بن زهير، وابن ابن أخيه المرقع بن صيفي بن رياح، والهيثم بن خنش، ويزيد بن عبدالله بن الشخير، وأبو عثمان النهدي[1].

سبب ورود الحديث:

وسبب ورود الحديث ما جاء مبينًا فيه من اتهام حنظلة لنفسه بالنفاق، وسعيه إلى النبي ليجد عنده المخرج، وحكايته لحاله عند النبي ﷺ وفي بيته مع زوجه وأولاده وأمواله، وليس لمعرفة هذا السبب من كبير فائدة في فقه الحديث، إذ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ما لم تقم قرينة تدل على خلاف ذلك، ولا قرينة هنا، غير أنه يكشف عن طيب معدن الصحابة، وكيف كانت قضية الإيمان والقلوب هي الشغل الشاغل لديهم، حتى كانوا يقدمونها على كل

---

(١) انظر: طبقات خليفة ص ٤٣، ١٢٩، العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي ٣/ ٢٩٨، ٤/ ٢٤٤ـ٢٤٥، الثقات لابن حبان ٣/ ٩٢، تاريخ الصحابة لابن حبان ص ٧٩، ترجمة رقم ٣٠٩، الجمع بين رجال الصحيحين ١/ ١١٠، ترجمة رقم ٤٢٥، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٢١٣ باب ذكر من كان يكتب لرسول الله ﷺ، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ١٣ـ١٥ تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران)، تهذيب الكمال للمزي ٧/ ٤٣٨ـ٤٤٣ ترجمة رقم ١٥٦٠، تاريخ الإسلام للذهبي ص ٤٤ـ٤٥ حوادث سنة ٥٠هـ، تخريج الدلالات السمعية لعلي بن محمد المعروف بالخزاعي ص ١٧٨ـ١٧٩.

شيء في حياتهم من طعام، وشراب، وزوجة وولد، ومال، وغير ذلك، ويحرصون على السؤال عما يجهلون، موقنين أن شفاء العيِّ السؤال.

معاني المفردات والجُمل:

قوله: «كيف أنت يا حنظلة؟»: سؤال عن حاله وصحته، تقديره: في أي حال أو على أي حالٍ أنت، وهل أنتَ صحيح مُعافىً؟ وعليه فكيف: اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم، وأنت مبتدأ مؤخر.

قوله: «قلت: نافق حنظلة»: معناه كما قال ابن علان في دليل الفالحين ١/ ٤٠١: «أي خاف على نفسه النفاق لما كان يحصل له من الخوف في مجلس النبي ﷺ ويظهر عليه فتح كمال المراقبة والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج، واشتغل بما سيأتي[1] ذهب عنه ذلك، وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر، وهو نوعان: **أكبر** وهو الذي يكون في أصل الدين، حيث يكون صاحبه كافرًا في حقيقة حاله، منتسبًا إلى الإسلام في ظاهره، **وأصغر**، وهو الذي لا يكون في أصل الدين، وإنما يكون في العمل، وصاحبه لا يكون كافرًا خارجًا عن الإسلام في حقيقته، بل يكون عاصيًا[2] وقد تضمنت الأحاديث بعض صفات هذا الصنف من المنافقين، إذ يروي عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربعٌ مَنْ كُنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه

---

(١) انظر: دليل الفالحين ١/ ٤٠١، نقلاً عن النووي في: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/ ٥٩٤ بتصرف إذ عبارة النووي: «قوله [نافق حنظلة]: معناه أنه خاف أنه منافق، حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي ﷺ ويظهر عليه ذلك مع المراقبة، والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة، والأولاد، ومعاش الدنيا، وأصل النفاق: إظهار ما يكتم خلافه من الشر، فخاف أن يكون ذلك نفاقاً».

(٢) انظر: فتح الباري ١/ ٨٩ بتصرف: إذ نص عبارته: «والنفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه».

خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهدَ غدر، وإذا خاصم فَجَر»[1].

ويروي أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[2]، فالمراد

---

(١) الحديث أخرجه **البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب علامة المنافق ١/ ١٥ عن قبيصة بن عقبة، عن سفيان، وقال بعده: «تابعه شعبة عن الأعمش، وكتاب المظالم: باب إذا خاصم فجر ٣/ ١٧٢ عن بِشر بن خالد عن محمد بن جعفر (غندر)، عن شعبة، وكتاب الجزية والموادعة: باب إثم من عاهد ثم غدر ٤/ ١٢٤ عن قتيبة بن سعيد، عن جرير.

ومسلم في: الصحيح، كتاب الإيمان: باب بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ رقم ١٠٦ عن أبي بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبدالله بن نمير كلاهما عن عبدالله بن نمير، وعن زهير ابن حرب، عن وكيع عن سفيان أربعتهم [أعني: سفيان، وشعبة، وجريراً، وعبدالله بن نمير]، عن الأعمش، عن عبدالله بن مرة، عن مسروق بن الأجدع، عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه.

وأبو داود في: السنن: كتاب السنة: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصه ٥/ ٦٤ رقم ٤٦٨٨ عن أبي بكر بن أبي شيبة به.

والترمذي في: السنن: كتاب الإيمان: باب في علامة المنافق ٥/ ٢٠ ـ ٢١ رقم ٢٦٣٢ عن الحسن بن علي الخلال، عن عبدالله بن نمير به، وعن محمود بن غيلان، عن عبيدالله ابن موسى عن سفيان به، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

والنسائي في: السنن: كتاب الإيمان وشرائعه: باب علامة المنافق ٨/ ١١٦ [المجتبى] ٦/ ٥٣٥ [الكبرى] رقم ١١٧٥١، وكتاب السير: باب الغدر ٥/ ٢٢٤ رقم ٨٧٣٤ [الكبرى] عن بشر بن خالد به.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب علامة المنافق ١/ ١٥، وكتاب الوصايا: باب قول الله تعالى من بعد وصية يوصى بها أو دين ٤/ ٥ ـ ٦ عن أبي الربيع الزهراني، وكتاب الشهادات: باب من أمر بإنجاز الوعد ٣/ ٢٣٦، وكتاب الأدب: باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ ٨/ ٣٠ عن محمد ابن سلام، **ومسلم** في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٠٧ عن يحيى بن أيوب وقتيبة، **والترمذي** في: السنن: كتاب الإيمان: باب ما جاء في علامة المنافق ٥/ ٢٠ رقم ٢٦٣١، عن علي بن حجر، **والنسائي** في: السنن: كتاب =

بالنفاق هنا نفاق العمل على الراجح بدليل قوله في الحديث الأول: «كان منافقاً خالصاً»(١).

وتدور هذه المادة على (النون، والفاء، والقاف) ولذلك معانٍ منها:

١ ـ الرواج والربح، تقول: نفق البيع نفاقًا كسحاب: راج، وربح.

٢ ـ الموت والفناء والنفاد، أو القلة، تقول: نفق الرجل، والدابة نفوقًا: ماتا، ونفق الجرح: تقشر، ونفق الزاد، ونفق كفرح، ونصر: نفد، وفني، أو قل.

٣ ـ كتمان شيء وإظهار غيره، تقول: نفق، ونافق في الدين: ستر كفره، وأظهر إيمانه، ومنه النافقاء، والنفقة كهمزة إحدى جحرة اليربوع

=الإيمان وشرائعه: باب علامة المنافق ٨/ ١١٦ ـ ١١٧ عن علي بن حجر خمستهم [أعني: أبا الربيع الزهراني، ومحمد بن سلام، ويحيى بن أيوب، وقتيبة، وعلي بن حجر] عن إسماعيل بن جعفر، عن أبي سهيل نافع بن مالك، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً به، وعقَّب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث صحيح، وأبو سهيل هو عم مالك بن أنس، واسمه: نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحولاني».

ومسلم في: الصحيح كتاب الإيمان: باب بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ رقم ١٠٩ عن عقبة بن مكرم العمي، **والترمذي** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب ما جاء في علامة المنافق ٥/ ٢٠ رقم ٢٦٣١ عن عمرو بن علي، كلاهما عن يحيى بن محمد بن قيس أبو زكير، عن العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً به، غير أن مسلماً زاد في روايته قوله: «وإن صام، وصلى، وزعم أنه مسلم»، وعقّب عليه الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن غريب من حديث العلاء، وقد رُوي من غير وجه، عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ، ومسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان خصال المنافق ١/ ٧٨ رقم ١٠٨ عن أبي بكر محمد بن إسحاق الصغاني، عن سعيد بن أبي مريم، عن محمد بن جعفر عن العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «من علامات المنافق ثلاثة...» الحديث، ورقم ١١٠ عن أبي نصر التمار، وعبدالأعلى بن حماد، كلاهما عن حماد بن سلمة، عن داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب، وعن أبي هريرة مرفوعاً بمثل حديث يحيى بن محمد عن العلاء أي ذكر فيه: «وإن صام، وصلى، وزعم أنه مسلم».

(١) انظر: فتح الباري ١/ ٨٨، وفيه التوفيق بين العلامات الثلاث والأربع.

يكتمها، ويظهر غيرها، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق[1].

والعلاقة بين المعاني اللغوية، والمعنى الاصطلاحي أو الشرعي بينة واضحة إذ المنافق يسلك طريق الالتواء ظانًا أن ذلك يقيه الفضيحة والمؤاخذة ويحقق له الربح والمصلحة والحقيقة أنه لا يظفر بشيء لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

إذ المؤمنون يعرفونه في الدنيا بسمته، ومن خلال لحنه في القول كما قال الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...** ﴾ (محمد: ٣٠)، ولذلك يحذرونه.

وأما في الآخرة فعقابه ما أخبر عنه الحق - تبارك وتعالى - بقوله: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً** ﴾ (النساء: ١٤٥).

وقد جمع الله سوء مقصدهم هذا وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة بسببه فقال: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (البقرة: ٩)، ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ...** ﴾ (النساء: ١٤٢).

ونقل الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي عن ابن الأعرابي قوله:

«وفي الاعتدال[2] لتسمية المنافق منافقًا ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه يُسِرُّ كفره ويخفيه، فشبه بالذي يدخل النفق، وهو السَّرب يستتر فيه، **والثاني**: أنه نافق كاليربوع، وذلك أن اليربوع له جحران أحدهما يقال له: النافقاء، والآخر: القاصعاء، فإذا طُلِب من النافقاء خرج من القاصعاء، **والثالث**: أنه شبه به لمخادعته، وذلك أن اليربوع يحتفر الأرض من تحتها حتى يرقها جدًا، فإذا طُلب

---

(١) انظر: القاموس المحيط ٣/ ٤١٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٤٢، وظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ ١/ ٥٢ - ٥٣ بتصرف.

(٢) هكذا في الأصل، ولعل صوابها: «الاعتلال» بمعنى العلة، إذ هذا هو المناسب للسياق، والله أعلم.

من باب جُحْره عمد إلى ذلك الموضع الذي رقق ترابه بحفره، ودفعه برأسه خارجًا، فظاهر جُحْره أرض، وباطنه حفر، فكذلك المنافق، ظاهره مؤمن، وباطنه كافر»[1].

وتبعًا لما تقدم عن النفاق يظهر أن نسبة حنظلة النفاق إلى نفسه وموافقة الصديق له إنما هي من قبيل الخوف، والإشفاق على أنفسهما أن تكون الغفلة عن ذكر الله، والدار الآخرة، انشغالاً بمتاع الحياة الدنيا من نقص الإيمان، وأن يكون ذلك بسبب شوائب النفاق[2].

«**سبحان الله، ما تقول؟**»: تنزيهًا لله، وقد قالها الصدِّيق تعجبًا مما قال، حيث خفي عليه سبب ذلك، كأنه يقول: إني لضعفي وقصوري البشري خفي عليَّ سبب ما قلت، أما الذي لا يخفى عليه ذلك ولا غيره فإنما هو الحق تبارك وتعالى، المُنزَّه عن كل نقص، والموصوف بكل كمال، وهكذا كان يذكر النبي ﷺ ربه بذلك حين يقع ما يدعو إلى الاستغراب والتعجب.

«**ما تقول**»: معناه: ما الذي تقول، أي تأمله، وانظر فيه جيداً.

«**كأنا رأي عين**»: يعني كأنا نراها رأي عين وهو منصوب على أنه مصدر مفعول مطلق لفعل محذوف، والجملة في محل رفع خبر كأن، ويجوز الرفع على أنه خبر كأن، قال القاضي عياض[3]: «ضبطناه بالرفع أي كأنا ذوو رأي عين، أي بحال من يراهما».

«**عافسنا الأزواج والأولاد**»: عالجنا، ومارسنا، ولاعبنا»، إذ المعافسة: المعالجة، والممارسة، والملاعبة[4]، قال النووي: «وروى الخطابي هذا الحرف

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٤/ ٢٣٩ـ٢٤٠.

(٢) انظر: ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ ١/ ٨٠.

(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي ٥/ ٥٩٣، ودليل الفالحين لابن علان ١/ ٤٠١ بتصرف.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ١١٠.

[عانسنا] بالنون، قال: ومعناه لاعبنا»، ورواه ابن قتيبة بالشين المعجمة، قال: ومعناه: عانقنا، والأول هو المعروف، وهو أعمُّ[1].

«**والضيعات**»: جمع ضيعة، وهي معاش الرجل من مال، أو حرفة: تجارة أو صناعة، أو زراعة ونحوها[2].

«**فنسينا كثيراً**»: قال ابن علان: «أي إذا خرجنا واشتغلنا بهذه الأمور، وذهب منا ذلك الحال الذي كان ونحن عند النبي ﷺ وسماع موعظته ومشاهدته»[3].

«**فو الله لنلقى مثل هذا**»: قائل هذه الجملة هو أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ومراده بذلك أنه يقع له مثل ما يقع لحنظلة، ولئن كان هذا نفاقاً فهو منافق.

«**وماذاك؟**»: أي ما الذي نافق به؟ يعني اذكر السبب الذي من أجله قلت عن نفسك إنك منافق، وقائل هذه الجملة: إنما هو النبي ﷺ.

«**والذي نفسي بيده**»: هذه صيغة قسمه ﷺ في كثير من أحاينه، ومعناها: أحلف بالله الذي ناصيتي وروحي بيده، يقدر أن يُخرسني ويقبضني توًا إن أنا افتريت على الله الكذب فأخبرتكم بما لا يصح، وبما لا يرضاه، والمقصود من هذه الجملة تطمين وتثبيت حنظلة ومعه الصديق ومن على شاكلتهما أن ما يلقى عليهم حق وصدق، إذ هو معصوم لا ينطق عن الهوى.

«**لو تدومون على ما تكونون عليه عندي**»: من المراقبة، والتفكير في المآل، والإقبال على الله تعالى.

«**وفي الذكر**»: هكذا بالعطف، وهو يشعر: أن مصافحة الملائكة لهم على الفرش، وفي الطرقات مرهونة بأمرين: الاستمرار على الحال التي يكونون عليها عند النبي ﷺ والمواظبة على الذكر.

---

(١) انظر: المنهاج ٥/ ٥٩٣.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٢٩.

(٣) انظر: دليل الفالحين ١/ ٤٠١.

قال القرطبي: «هكذا صحت الرواية بالواو العاطفة للظرف الثاني على الظرف الأول، فيفيد أن مصافحة الملائكة المذكورة في قوله: «لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم» موقوفة على حصول حالتين لنا.

على حال مشاهدة الجنة والنار مع ذكر الله تعالى، ودوام ذلك، فيعنى - والله أعلم - أن التمكن هو أن يشاهد الأمور كلها بالله، فإذا شاهد الجنة لم يحجبه ما شاهد من نعيمها، وحسنها عن رؤية الله تعالى، بل لا يلتفت إليها من حيث هي جنة، بل من حيث إنها محل القرب من الله تعالى، ومحل رؤيته، ومشاهدته، فيكون فرقه في جمعه، وعطاؤه في منعه، ومن كان هكذا ناسب الملائكة في معرفتها، فبادرت إلى إكرامه ومشافهته، وإعظامه، ومصافحته»[1].

«ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»: النصب على أنه مفعول فيه لفعل محذوف، والتقدير: تذكر ساعة، وتلهو ساعة، والرفع على أنه: مبتدأ وخبره محذوف مقدم عليه لكونه نكرة، تقديره: لنا ساعةٌ، ولله ساعة.

قال أبو البقاء العكبري: «يجوز النصب على معنى: تذكر ساعة، وتلهو ساعة، والرفع على تقدير: لنا ساعة، ولله ساعة»[2].

والساعة تطلق على معانٍ عدة، منها:

أ - الجزء من أجزاء الوقت والحين، وإن قل.

ب - الجزء من أربعة وعشرين جزءاً من الليل والنهار.

جـ - القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (الروم: ١٤).

د - الآلة يعرف بها الوقت بالساعات، والدقائق والثواني شمسية، أو رملية، أو مائية، أو إلكترونية[3] ونحوها والمراد بها في الحديث: المعنى الأول يعني: البرهة أو الجزء من أجزاء الوقت، والحين، وإن قل.

---

(١) انظر: دليل الفالحين ١/ ٤٠٢-٤٠٣.

(٢) انظر: إعراب الحديث النبوي، ص ١٧٥، حديث رقم ١٥٦.

(٣) انظر: القاموس المحيط ٣/ ٦٠، الصحاح في اللغة والعلوم، ص ٥١٨، والمعجم الوسيط: ١/ ٤٦٣.

المعنى العام أو الإجمالي للحديث :

يشعر المرء من نفسه : أنه تعتريه فترات يقوىٰ إيمانه فيها، وتزكو نفسه وتشرق حتىٰ لكأنه ملك من الملائكة يتحرك ويعيش علىٰ ظهر هذه الأرض في صورة بشر، كما تعتريه فترات أخرىٰ يضعف إيمانه، وينكر نفسه، ويضيق صدره حتىٰ لكأن نفسه ليست هي النفس التي عرف، وقلبه ليس هو القلب الذي ألف.

والمطلوب منه في الحالين : حال قوة الإيمان والنشاط والهمة، وحال ضعف الإيمان، والركون والعجز : أن يفتش باحثًا عن السبب، ثم يستثمر هذا السبب في تنمية الإيمان وتقويته، أو في مقاومة هذا الضعف، ونبذه، والقضاء عليه.

والحديث الذي نحن بصدد بيانه والكلام عليه الآن يحمل صورة عملية دقيقة لما نقول : إذ فيه يلقىٰ الصدِّيق الصحابي الجليل : حنظلة بن الربيع الكاتب الأسيدي، فيسأله عن حاله، وعن صحبته، فيجيبه أنه صار منافقًا، ويعجب الصدِّيق من جوابه هذا، ويسأله عن سبب اتهامه نفسه بالنفاق، وهو يعرف منه في الظاهر خلاف ذلك فيجيب : إنه حين يكون بين يدي النبي ﷺ وهو يذكرهم يقوىٰ إيمانه، ويعظم يقينه، وتصدق لديه المراقبة حتىٰ لكأن الجنة والنار قد مثلتا أمامه، وصارتا حاضرتين كأنه يراهما رأي العين، ولكنه بعد أن يقوم من مجلس النبي ﷺ ويعود إلىٰ بيته، ويشتغل بمداعبة أهله، وملاعبة أولاده، ومعالجة أمواله، ودنياه يضعف لديه ما كان يجد عند النبي ﷺ وهنا شاركه الصدِّيق شعوره وأحاسيسه، فقال : فو الله إنا لنلقىٰ مثل هذا.

يعني : لست أنت وحدك الذي تجد في نفسك هذا الشعور، وتلك الأحاسيس وإنما أنا وغيري نشعر بما تشعر به، ونحس بما تحس به، وحينئذ لم يعد أمامهم من يستفتونه، ويرشدهم في حالهم هذه غير رسول الله ﷺ فانطلقا إليه حتىٰ دخلا عليه وهنا شكىٰ حنظلة حاله للنبي ﷺ والصدِّيق واقف متغير منصت ينطق لسانه حاله بمشاركة حنظلة في كل ما يقول.

وحين انتهى حنظلة من عرض شكواه تلك التي يشاركه فيها الصدِّيق وآخرون كثيرون، أفهمه النبي ﷺ أنه لو بقي ومن على شاكلته على الحال التي يكونون عليها عنده، وفي ساعات الذكر لفرحت بهم الملائكة، أعظم الفرح، ولترجمت هذا الفرح بالتسليم عليهم، والمصافحة لهم، وهم على فرشهم، وفي مخادع النوم، بل وهم في الشوارع والطرقات، ولكن ذلك يقتضي الانقطاع عن معالجة الحياة الدنيا بما فيها من النساء والبنين، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، والانقطاع بدوره يؤدي إلى تعطيل دولاب الحياة، وإهدار الإنسان لدوره ورسالته التي خلقه الله لها في هذه الأرض حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ (هود: ٦١)، ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (فاطر: ٣٩).

ولابد إذن من الاعتدال والتوسط في الأمر، فلا ننقطع للذكر، والتفكر، ونضيع دنيانا، ولا نشتغل بالدنيا مضيعين للذكر والتفكر، وإنما نسلك سبيلاً وسطًا، فساعة للذكر والتفكر، وأخرى للدنيا بما فيها من الأهل والأولاد، والحرف، ومعاناة الحياة، شريطة أن تكون هذه الساعة الأخيرة بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، قائلاً: «والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»، مؤكدًا ما قال وما أشار به بتكراره ثلاث مرات، وهكذا لم يخرج ﷺ فيما أشار عليهم، وأفتاهم به عن النهج الذي رسمه له ربه في قوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾ (القصص: ٧٧).

والذي نطق هو ﷺ به صراحة في قوله: «إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلاتعدوه»[1].

---

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السنن: كتاب صفة القيامة ٤/ ٥٤٨ رقم ٢٤٥٣ عن =

وفي رواية ثانية : «فإن لكل عابد شرة، ولكل شرة فترة، فإما إلى سُنَّة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سُنَّة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»[1] .

وفي رواية ثالثة : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجال ينصبون في العبادة من أصحابه نصباً شديداً، فقال رسول الله ﷺ : «تلك ضراوة[2] الإسلام وشرته[3] ولكل ضراوة شرة، ولكل شرة فترة[4] ، فمن كانت فترته إلى الكتاب والسنة

=يوسف بن سليمان أبو عمر البصري، عن حاتم بن إسماعيل عن ابن عجلان، عن القعقاع ابن حكيم، عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً به، وعقّب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وقد رُوي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : «بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا إلا من عصمه الله» .

(١) الحديث جزء من حديث **أخرجه أحمد** في : المسند ٢/ ١٥٨ من حديث عبدالله بن عمرو قال : زوجني أبي امرأة من قريش، فلما دخلت عليَّ جعلت لا أنحاش لها مما بي من القوة على العبادة من الصوم، والصلاة، فجاء عمرو بن العاص إلى كنته فدخل عليها، فقال لها : كيف وجدت بعلك؟ فقالت : خير الرجال أو كخير البعولة من رجل، لم يفتش لنا كنفاً، ولم يعرف لنا فراشاً، فأقبل عليَّ فعذمني، وعضَّني بلسانه، فقال : أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب فعضلتها ، وفعلت وفعلت، ثم انطلق إلى النبي ﷺ فشكاني، فأرسل إليَّ النبي ﷺ فأتيته، فقال لي : «أتصوم النهار؟» قلت : نعم، قال : «وتقوم الليل؟» قلت : نعم، قال : «لكني أصوم وأفطر، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني . . .» الحديث .

(٢) ضراوة الإسلام : عادةً ولهجاً به لا يصبر عنه، أخذاً من قولهم ضرىً بالشيء : بفتح الضاد، والراء المخففة المكسورة : ضرىٌ، وضراوةً إذا اعتاده، ولزمه، وأولع به، كما يضري السبع بالصيد وهو من باب تعب، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٨ .

(٣) شِرَّة الإسلام : نشاطه والرغبة فيه، وهي بكسر الشين المعجمة، وتشديد الراء المفتوحة، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٢١٢ .

(٤) الفترة تطلق على معنيين : ما بين الرسولين من رسل الله من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة، وأيضاً : الضعف والانكسار، أو اللين بعد الشدة، والسكون بعد الحدة، والأول هو المراد هنا بدلالة السياق، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٨٢ .

فلأم[1] ماهو، ومن كانت فترته إلى معاصي الله، فذلك هو الهالك»[2].

الأحاديث الأخرى الواردة في معنى الحديث غير ما تقدم:

هذا وقد حفلت دواوين الحديث المشهورة ببعض الأحاديث الأخرى الواردة في معنى الحديث غير ما سبق في المعنى الإجمالي، ومنها:

حديث أنس - رضي الله عنه - قال: قال أصحاب رسول الله ﷺ: إنا إذا كنا عند النبي ﷺ رأينا في أنفسنا ما نحب، فإذا رجعنا إلى أهلنا وخالطناهم، أنكرنا نفوسنا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «لو تدومون على ما تكونون عندي في الخلاء لصافحتكم الملائكة بأجنحتها، ولكن ساعة، وساعة»[3].

وفي رواية: «لصافحتكم الملائكة حتى تظلكم بأجنحتها عياناً»[4].

---

(١) لأم ما هو: بكسر اللام، وفتح الهمزة، وتشديد الميم المكسورة منونة: أي قصد الطريق المستقيم، يقال أمه يؤمه أماً، وتأمه، وتيممه، قصده، ويحتمل أن يكون الأم أقيم مقام المأموم أي هو على طريق ينبغي أن يقصد، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٤٣.

(٢) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٢/ ١٦٥، من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب عليه الساعاتي في: بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ١٩/ ١٢ بقوله: «الحديث سنده صحيح، أورده الهيثمي، وقال: رواه الطبراني في: الكبير بنحوه، ورجال أحمد ثقات، وقد قال ابن إسحاق: حدثني أبو الزبير، فذهب التدليس، ومعنى ذلك أن ابن إسحاق روى هذا الحديث مرتين، فقال: في إحداهما حدثني أبو الزبير - وهي الرواية الصحيحة التي أثبتناها في: المتن -، وقال في الثانية: عن أبي الزبير لم يصرح بالتحديث في هذه المرة، وهي التي أثبتنا سندها في الشرح، وابن إسحاق ثقة مدلس، فإذا عنعن لايحتج بحديثه، وإذا صرح بالتحديث فحديثه يحتج به، والله أعلم».

(٣) الحديث **أورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب ساعة وساعة ١٠/ ٣٠٨، وعزاه إلى البزار قائلاً: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير زهير بن محمد الرازي، وهو ثقة».

(٤) الحديث **أخرجه أبو يعلى** في: المسند ٥/ ٣٠٣٥، **وأورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب ساعة، وساعة ١٠/ ٣٠٨ وعزاه إلى أبي يعلى بلفظه والبزار بغير الزيادة الأخيرة التي عند أبي يعلى.

وحديث أنس أيضاً : «قال : غدا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : هلكنا ورب الكعبة، قال : «وما ذاك؟»، قالوا : النفاق، النفاق، قال : «ألستم تشهدون ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؟»، قالوا : بلى، قال : «ليس ذاك النفاق»، قال : ثم عادوا الثانية، فقالوا : يا رسول الله : هلكنا ورب الكعبة، قال : «وماذاك؟»، قالوا : النفاق، النفاق، قال : «ألستم تشهدون ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؟»، قالوا : بلى، قال : «ليس ذاك النفاق»، ثم عادوا الثالثة، فقالوا : يا رسول الله : هلكنا ورب الكعبة، قال : «وماذاك؟»، قالوا : النفاق، قال : «ألستم تشهدون ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله؟»، قالوا : بلى، قال : «ليس ذاك النفاق»، قالوا : إنا إذا كنا عندك كنا على حال، وإذا خرجنا من عندك، همتنا الدنيا وأهلونا، قال : «لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على الحال التي تكونون عليه لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة»[1].

وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : ماهية العبادة ومضمونها، وأقسامها، وفضلها :

تُطلق العبادة لغة على معانٍ : أهمها :

١ ـ التذلل والخضوع، نقول : طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام.

٢ ـ الطاعة، نقول : عَبَدَ الله عبادةً : أطاعه[2].

ولا تعارض بين المعنيين : إذ الطاعة الحقة منشؤها التذلل والخضوع، كما

---

(١) الحديث **أخرجه أبو يعلى** في : المسند ٦/ ٥٨ رقم ٣٣٠٤، **وأورده الهيثمي** في : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب علامة البراءة من النفاق ١٠/ ٣١٠، وعزاه إلى أبي يعلى قائلاً : «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير غسان بن برزين، وهو ثقة».

(٢) انظر : القاموس المحيط ١/ ٥٩٦ مادة «عبد» بتصرف، الصحاح في اللغة والعلوم لنديم وأسامة المرعشليين ص ٧٠٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

أن صدق التذلل والخضوع يقود إلىٰ كمال الطاعة.

وقد فرّق الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي بين العبودية والعبادة بقوله: «والعبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا تليق إلا بمن له غاية الإفضال كالباري تعالىٰ»(١).

شرعًا: أما العبادة في لسان الشرع فهي - كما عرّفها ابن تيمية -: «اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»(٢).

ومضمون ومحتوىٰ العبادة: شعب الإيمان البضع والستون أو البضع والسبعون التي جاء بها حديث أبي هريرة مرفوعًا: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»(٣).

وفي رواية: «الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(٤).

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٣/ ٢٧.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٣١، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الإيمان: باب أمور الإيمان بهذا اللفظ علىٰ سبيل الجزم ١/ ٩.

(٤) الحديث **أخرجه مسلم في**: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ١/ ٦٣ رقم (٥٧) بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»، ورقم (٥٨) بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذي عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، **وأبو داود في**: السنن: كتاب السنة: باب في رد الإرجاء ٥/ ٥٥-٥٦ رقم ٤٦٧٦ بهذا اللفظ، ولكن بإبدال: «الأذىٰ» بـ«العظم»، **والترمذي في**: السنن: كتاب الإيمان: باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصه ٥/ ١٢ رقم ٢٦١٤ بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح» وهكذا روىٰ سهيل بن أبي صالح عن عبدالله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، وروىٰ عمارة بن غَزِيّة هذا الحديث، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الإيمان أربعة وستون باباً، قال: حدثنا بذلك قتيبة عن بكر بن مضر، عن عمارة بن=

وقد عدد ابن تيمية طرفًا منها فقال: «فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عبادة، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود عبادة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والخادم، والرحمة بالضعيف، والرفق بالحيوان عبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء في رحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك كله عبادة، بل الدين كله داخل في معنى العبادة، إذ الدين يتضمن معنى الخضوع، والذل، يقال: أدنته فدان أي: أذللته فذل، ويقال: يدين الله، ويدين لله، أي: يعبد الله ويطيعه، ويخضع له، فدين الله عبادته، وطاعته، والخضوع له، والعبادة: أصل معناها: الذل أيضًا، يقال: طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطأته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها، تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله، بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ومن أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله، فتعظيمه باطل»[1].

وخير دليل على صحة هذا المضمون، وذلك المحتوى: كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة النبي ﷺ، إذ في القرآن أن الهدف من خلق الإنس والجن: العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا

=غَرِيبٌ به»، **والنسائي** في: السنن: كتاب الإيمان: باب ذكر شعب الإيمان ٨/ ١١٠، كرواية مسلم الأولى، وكرواية أبي داود [المجتبى]، ٦/ ٥٣٢ رقم ١١٧٣٥ـ١١٧٣٦ [السنن الكبرى]، **وابن ماجة** في: السنن: المقدمة: باب في الإيمان ١/ ٢٢ رقم ٥٧ كرواية مسلم الثانية، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(١) انظر: العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٣١، ٣٢، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية.

أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦ـ٥٨).

وفي السُّنَّة أن حق الله على العباد: العبادة القائمة على التوحيد ونبذ الشرك، إذ يقول النبي ﷺ لمعاذ ـ وقد كان رديفه على دابة ـ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً...» الحديث(١).

ثم يسوق الحق في كتابه وعلى لسان نبيه شعب الإيمان شعبة شعبة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على دخول هذه الشعب، وما في معناها من كل خير، وبر ومعروف مما لا يتعارض مع الكتاب والسنة في مضمون، ومحتوى العبادة، حتى المتاع الجنسي الغليظ، إذ يقول ﷺ: «... وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»(٢).

---

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الجهاد: باب اسم الفرس والحمار ٤/ ٣٥ وكتاب اللباس: باب إرداف الرجل خلف الرجل ٧/ ٢١٨، وكتاب الاستئذان: باب من أجاب بلبيك وسعديك ٨/ ٧٤، وكتاب الرقاق: باب من جاهد نفسه في طاعة الله ٨/ ١٣٠، ١٣١، **ومسلم في**: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١/ ٥٨، ٥٩، رقم ٤٨ـ٥١، **والترمذي في**: السنن: كتاب الإيمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ٥/ ٢٦، ٢٧، رقم ٢٦٤٣، **وابن ماجة في**: السنن: كتاب الزهد: باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٢/ ١٤٣٥ـ١٤٣٦ رقم ٤٢٩٦، كلهم من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وعقّب الترمذي على روايته بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، ورُوي من غير وجه عن معاذ بن جبل».

(٢) الحديث جزء حديث **أخرجه مسلم في**: الصحيح: كتاب الزكاة: باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٢/ ٦٩٧، ٦٩٨ رقم ١٠٠٦، **وأبو داود في**: السنن: كتاب الصلاة: باب صلاة الضحى ٢/ ٢٦، ٢٧، رقم ١٢٨٥، وكتاب الأدب: باب في إماطة الأذى عن الطريق ٤/ ٣٦٢ رقم ٥٢٤٣، **وأحمد في**: المسند ٥/ ١٦٧، ١٦٨، كلهم من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به، وبنحوه، واللفظ لمسلم.

بل حتى النفقة على الأولاد، ومداعبة الأهل، ومعالجة الحرف والصناعات، إذ يقول ﷺ: «. . . ولستَ تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك»(١).

ويقول ﷺ: «إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله، وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا في ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه، ونبله، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها، أو قال: كفر بها»(٢).

---

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الوصايا: باب أن يترك ورثته أغنياء خيرٌ من أن يتكففوا الناس ٤/ ٣، وكتاب مناقب الأنصار: باب قول النبي ﷺ: «اللهم امض لأصحابي هجرتهم» ٥/ ٨٧، ٨٨، وكتاب المغازي: باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٥، وكتاب النفقات: باب فضل النفقة على الأهل ٧/ ٨٠، ٨١، وكتاب الفرائض: باب ميراث البنات ٨/ ١٨٧، ١٨٨، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الوصية: باب الوصية بالثلث ٣/ ١٢٥٠، ١٢٥٣ رقم ٥ ـ ٧، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الوصايا: باب ما جاء فيما لا يجوز للموصي من ماله ٣/ ١١٢ ـ ١١٣ رقم ٢٨٦٤، **والترمذي** في: السنن: كتاب الوصايا: باب ما جاء في الوصية بالثلث ٤/ ٤٣٠، ٤٣١، رقم ٢١١٦، وقال عقبيه: «وفي الباب عن ابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح. . .»، **وأحمد** في: المسند: ١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به، وبنحوه، واللفظ لمسلم.

(٢) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الجهاد: باب في الرمي ٣/ ٢٨ ـ ٢٩ رقم ٢٥١٣، **والترمذي** في: السنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ٣/ ١٤٩ رقم ١٦٣٧، وعقب عليه بقوله: «وفي الباب عن كعب بن مرة، وعمرو بن عبسة، وعبدالله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في: السنن: كتاب الخيل: باب تأديب الرجل فرسه ٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ [المجتبى]، ٣/ ٣٩ ـ ٤٠ رقم ٤٤٢٠ [الكبرى]، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الجهاد: باب الرمي في سبيل الله ٢/ ٩٤٠ رقم ٢٨١١، **وأحمد** في: المسند ٤/ ١٤٦، **والحاكم** في: المستدرك: كتاب الجهاد: باب من علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها ٢/ ٩٥، كلهم من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً به، وبنحوه، وعقّب الحاكم بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم =

إلى غير ذلك مما أُثر عنه ﷺ في كل شئون الحياة الدنيا والآخرة، وعلى هذا الفهم مضى سلوك المسلمين من عصر الصحابة إلى عصور الضعف، والانحلال، والانحطاط.

وغاية ما في الأمر أن العبادة تنقسم إلى قسمين:

الأول: عبادة مخصوصة أو مقيدة، حددها الشارع وبيَّنها، فليس لنا أن نزيد فيها، أو ننقص منها، وهي التي لا تصح العبودية إلا بها مثل العقائد، والصلوات، والزكوات، والصيام، والحج، ونحوها، وهذا النوع من العبادة لا يُقبل إلا إذا تحقق فيه شرطان: الإخلاص لله، واتباع السنة، حيث يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

ويقول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

=يخرجاه»، وأقره على ذلك الذهبي في: التلخيص، وساق الحاكم له شاهداً من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «كل شيء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة: انتضالك بقوسك، وتأديبك فرسك، وملاعبتك أهلك، فإنها من الحق، وقال: انتضلوا واركبوا، وأن تنتضلوا أحب إليَّ، إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب فيه الخير، والمنتبل، والرامي به»، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ولم يوافقه الذهبي على ذلك، إذ قال في: التلخيص: «قلت: كذا قال: وسويد - يقصد ابن عبدالعزيز - أحد رجال الإسناد - متروك».

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ١، وكتاب العتق: باب الخطأ والنسيان في العتاقة، والطلاق، ونحوه ٣/ ١٩١، وكتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٥/ ٧٢، وكتاب النكاح: باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى ٧/ ٤ وكتاب الطلاق: باب الطلاق في الإغلاق والكره [الترجمة] ٧/ ٥٨، وكتاب الأيمان: باب النية في الأيمان ٨/ ١٧٥، وكتاب الإكراه [الترجمة] ٩/ ٢٥ وكتاب الحيل باب في ترك الحيل ٩/ ٢٩، =

ويقول ﷺ أيضاً: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١).

الثاني: عبادة عامة مطلقة، لم يتدخل الشارع فيها إلا بوضع شروط وضوابط لها، وهي التي لا تسود الأمة، ولا تقر إلا بها من الاشتغال بالعلوم التجريبية، والحرف، والصناعات، ونحوها، وهذه الضوابط، وتلك الشروط: أن يقصد بها وجه الله ومرضاته، وألا تتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله نصاً أو استنباطاً، وأن يكون من ورائها منفعة أو مصلحة تعود على الفرد والجماعة(٢).

والذين فهموا العبادة بهذا المفهوم الواسع العميق يختلفون في أفضلها على طوائف:

= **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» ٢/ ١٥٧، ١٥٨، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الطلاق: باب فيما عني به الطلاق والديات ٢/ ٥١٠، **والترمذي** في: السنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا ٤/ ١٧٩ ـ ١٨٠، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في: السنن: كتاب الطهارة: باب النية في الوضوء ١/ ٥١، وكتاب الطلاق: باب الكلام إذا قصد به النية في اليمين ٧/ ١٢ ـ ١٣، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الزهد: باب النية ٢/ ١٤١٣ رقم ٤٢٢٧، **وأحمد** في: المسند: ١/ ٢٥، ٤٣ كلهم من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور، فالصلح مردود ٣/ ٢٤١، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور ٣/ ١٣٤٣ ـ ١٣٤٤ رقم ١٧١٨ (١٧ ـ ١٨)، **وأبو داود** في: السنن: كتاب السنة: باب في لزوم السنة ٥/ ١٢ رقم ٤٦٠٦، **وابن ماجة** في: السنن: المقدمة: باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ١/ ٧ رقم ١٤، **وأحمد** في: المسند ٦/ ٢٧٠ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً به، وزاد مسلم في روايته الثانية أن سعد بن إبراهيم قال: سألت القاسم بن محمد: عن رجل له ثلاثة مساكن فأوصى بثلث كل مسكن منها، قال: يجمع ذلك كله في مسكن واحد، ثم قال: أخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٣٢، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية بتصرف كثير.

الطائفة الأولى: ترىٰ أن أفضل العبادة ما كان شاقًا وصعبًا علىٰ النفوس قائلة: إن في هذا دليلاً علىٰ أن المرء قد تمكن من رياضة نفسه بحيث خالف هواها وحملها علىٰ الشاق الصعب الذي تكره، والأجر علىٰ قدر المشقة والتعب.

الطائفة الثانية: ترىٰ أن أفضل العبادة: التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها قدر الإمكان علىٰ اعتبار أنها إلىٰ زوال، والعاقل من تقلل منها قانعًا بالكفاف، وهذه الطائفة ما بين ملتزم بذلك جامع لهمته عليه، مفرغ القلب من كل ما سوىٰ الله والدار والآخرة، وما بين عامل به، داع الناس إليه.

الطائفة الثالثة: ترىٰ أن أفضل العبادة: ما كان متعديًا إلىٰ الغير من إعانة هذا الغير بالنفس والمال، وبذل النصيحة، والدعوة إلىٰ الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستندة إلىٰ قوله ﷺ لعلي يوم خيبر: «فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمُر النعم»[1]، وقوله ﷺ: «من دل علىٰ خيرٍ فله مثل أجر فاعله»[2]، وقوله ﷺ: «من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»[3]، وأن ذلك الخير يستمر حتىٰ إلىٰ

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الجهاد: باب دعاء النبي ﷺ إلىٰ الإسلام والنبوة ٤/ ٥٧، ٥٨، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ٤/ ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ رقم ٣٣ ـ ٣٥، **والترمذي** في: السنن: كتاب المناقب: باب مناقب علي بن أبي طالب ٥/ ٦٣٨ رقم ٣٧٢٤ كلهم من حديث سهل مرفوعاً بنحوه، وبمثله.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ٣/ ١٥٠٦ رقم ١٣٣ (١٨٩٣)، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الأدب: باب في الدال علىٰ الخير ٤/ ٣٣٣ رقم ٥١٣٩، **والترمذي** في: السنن: كتاب العلم: باب ما جاء في الدال علىٰ الخير كفاعله ٤/ ٤١ ـ ٤٢ رقم ٢٦٧١ كلهم من حديث أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وقال الترمذي عقيب حديثه: «هذا حديث حسن صحيح»، وللحديث روايات أخرىٰ مقرونة بسبب الورود عند مسلم.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب إثم من دعا إلىٰ ضلالة أو سن سنة سيئة ٩/ ١٢٧، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب العلم: باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٤/ ٢٠٦٠ رقم ١٦ (٢٦٧٤)، **وأبو داود** في: السنن: كتاب السنة: باب لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم ٤٦٠٩ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً به وبنحوه

ما بعد الموت لحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

الطائفة الرابعة: ترىٰ أن أفضل العبادة: الحرص علىٰ مرضاة الله في كل وقت، وفي كل مكان بما يناسب هذاالوقت، وذلك المكان، فإذا دخل العدو بلاد المسلمين، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وانتهك الأعراض، وداس الحرمات والمقدسات، فعبادة الوقت الجهاد، وإن ترتب علىٰ ذلك ضياع صلاة ليل، وصيام نهار تطوعًا، وإذا حضرت الصلاة والحال حال أمن وسلام، فعبادة الوقت إجابة النداء وأداء الصلاة.

وإذا جاء ضيف فعبادة الوقت إكرامه والحفاوة به وهلم جرا، ورأي هذه الطائفة الأخيرة هو الراجح وهوالأولىٰ بالقبول، إذ هو الموافق لهديه ﷺ حيث كان يعطي كل وقت وكل ظرف المناسب من العبادة.

يقول ابن القيم بعد سرده لآراء هذه الطوائف جميعًا وأدلة كل في الموازنة بين رأي الطائفة الرابعة، وآراء الطوائف الثلاث قبل: [وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتىٰ خرج أحدهم عن النوع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه، يرىٰ نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله علىٰ وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق، ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره علىٰ غيره، بل لايزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة، عمل علىٰ سيره إليها، واشتغل بها حتىٰ تلوح له منزلة أخرىٰ، فهذا دأبه في السير حتىٰ ينتهي سيره، فإذا رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الوصية: باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/ ١٢٥٥ رقم ١٦٣١، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الوصايا: باب ما جاء في الصدقة عن الميت ٣/ ٣٠٠ رقم ٢٨٨٠، **والترمذي** في: السنن: كتاب الأحكام: باب في الوقف ٣/ ٦٦٠ رقم ١٣٧٦، **والنسائي** في: السنن: كتاب الوصايا: باب فضل الصدقة عن الميت ٦/ ٢٥١ [المجتبىٰ] ٤/ ١٠٩ رقم ٦٤٧٨ [الكبرىٰ].

الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾، حقًا.

القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسير، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حرٌ مجرد، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتُهِكَتْ محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه، عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه! والله المستعان، وعليه التكلان][1].

الجانب الثاني: علاقة حديث حنظلة: «ساعة وساعة» بفقه العبادة:

وواضح مما تقدم حول فقه العبادة أن حديث حنظلة صورة دقيقة للعبادة بشقيها أو بقسميها: إذ فيه العبادة المخصوصة المقيدة المتمثلة في الذكر، والفكر، والمراقبة، والتي عبّر عنها حنظلة بقوله: «نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين»، والتي دعا إليها رب العزة ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ (آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤).

---

(١) انظر: تهذيب مدارج السالكين ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ...﴾ (البقرة: ١٥٢).

ودعا إليها النبي ﷺ بقوله حكاية عن يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ إن الله أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات: أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها... الحديث، وفيه: «وآمركم أن تذكروا الله، وإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»[1].

وقوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه مُعلّق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه، ورجلٌ

---

(١) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٤/ ٢٠٢، **والترمذي** في: السنن: كتاب الأمثال: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام، والصدقة ٥/ ١٤٨ ـ ١٤٩ رقم ٢٨٦٣ كلاهما من حديث الحارث الأشعري مرفوعاً، ولفظه: «إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمرني بخمس كلمات أن أعملهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مَثَل من أشرك بالله، كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال له: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إليَّ فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك، وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة، ومعه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم...» الحديث، وعقّب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وقوله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر: مثل الحي والميت»[2].

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الأذان: باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضائل المساجد ١/ ١٦٨، وكتاب الزكاة: باب الصدقة باليمين ٢/ ١٣٨، وكتاب الرقاق: باب البكاء من خشية الله ٨/ ١٢٥، ١٢٦، وكتاب الحدود: باب فضل من ترك الفواحش ٨/ ٢٠٣ من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ في الروايتين: الأولى والثانية، ومقتصراً على صنف البكائين في الرواية الثالثة وبتقديم بعض هذه الأصناف على بعض في الرواية الأخيرة، **ومسلم في**: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل إخفاء الصدقة ٢/ ٧١٥، ٧١٦ رقم ٩١ من حديث أبي هريرة على القطع مع تقديم اليمين على الشمال في التخفي بالصدقة، ومن حديث أبي سعيد، وأبي هريرة على الشك، **والترمذي في**: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء في الحب في الله ٤/ ٥٩٨، ٥٩٩ رقم ٢٣٩١، من حديث أبي هريرة، أو أبي سعيد، وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روي هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا، وشك فيه، وقال: عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد، وعبيدالله بن عمر، رواه عن حبيب بن عبدالرحمن، ولم يشك فيه يقول: «عن أبي هريرة»، **والنسائي في**: السنن: كتاب آداب القضاة: باب الإمام العادل ٨/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ من حديث أبي سعيد، أو أبي هريرة بمثل رواية البخاري الأخيرة، **وأحمد في**: المسند ٢/ ٤٣٩ من حديث أبي هريرة، مع تقديم صنف: الذي ذكر الله خالياً ففاضت عيناه على الذي تصدق بصدقة فأخفاها.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الدعوات: باب فضل ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ ٨/ ١٠٧ من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٢١٠ على هذه الرواية بقوله: «سقط لفظ [ربه] الثانية من غير رواية أبي ذر هكذا وقع في جميع نسخ البخاري»، **ومسلم في**: الصحيح: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد ١/ ٥٣٩ رقم ٧٧٩ (٢١١) عن عبدالله بن براد الأشعري، ومحمد بن العلاء كلاهما عن أبي أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى مرفوعاً بلفظ: «مثل البيت الذي يُذكر الله فيه، والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت»، زاد ابن حجر في: (الفتح ١١/ ٢١٠) فقال: «وكذا أخرجه الإسماعيلي، وابن حبان في صحيحه جميعاً عن أبي يعلى، عن أبي كريب، وكذا أخرجه أبو عوانة عن أحمد بن عبدالحميد، والإسماعيلي أيضاً عن الحسن بن سفيان، عن عبدالله بن براد، وعن القاسم بن زكريا عن يوسف بن موسى، وإبراهيم بن سعيد=

وفيه كذلك العبادة العامة المطلقة المتمثلة في ملاعبة الأهل والولد، ومعالجة شئون المعاش من زراعة، وصناعة، وتجارة، ونحوها، والتي خاف منها حنظلة أن تكون طريقًا للنفاق فجاء يشكو حاله إلى النبي ﷺ، ولكن النبي ﷺ أفهمه أنها من العبادة بقوله: «ولكن ساعة وساعة».

وجاءت عنه ﷺ أحاديث أخرى سبقت في تعريف العبادة تؤكد ذلك، وأفضل العبادة من هذين القسمين اللذين جاء بهما الحديث: الحرص على مرضاة الله في كل وقت وفي كل مكان بما يناسب هذا الوقت، وذلك المكان، فساعة الوعظ والتذكير في حينها ومكانها أفضل من ملاعبة الزوجة والأولاد والاشتغال بشئون المعاش، وساعة ملاعبة الزوجة والأولاد، والاشتغال بشئون المعاش في حينها ومكانها أفضل من الجلوس في مجالس الوعظ والتذكير، وهكذا.

مع دوام التفكر في آلاء الله في النفس وفي الكون، ومراقبته في كل هذه الساعات، بحيث يرى النعمة والمنعم معًا في سائر الأحايين، وفي كل الأحوال.

الجانب الثالث: حديث حنظلة: «ساعة وساعة» وفقه غير سديد:

وقد فقه نفر من الناس من جوابه ﷺ لحنظلة بقوله: «ساعة وساعة»، أنه دعوة من النبي ﷺ إلى إطلاق العنان للنفس أن تأخذ حظها من الشهوات كما تشاء من غير قيود أو ضوابط، مُفَسِّرين قوله ﷺ لحنظلة: «ساعة وساعة»، بأن

=الجوهري، وموسى بن عبدالرحمن المسروق، والقاسم بن دينار، كلهم عن أبي أسامة، فتوارد هؤلاء على هذا اللفظ يدل على أنه هو الذي حدَّث به بريد بن عبدالله شيخ أبي أسامة، وانفراد البخاري باللفظ المذكور دون بقية أصحاب أبي كريب، وأصحاب أبي أسامة يشعر بأنه رواه من حفظه أو تجوز في روايته بالمعنى الذي وقع له، وهو أن الذي يوصف بالحياة والموت حقيقة هو الساكن لا السكن، وأن إطلاق الحي والميت في وصف البيت إنما يُراد به ساكن البيت، فشبه الذاكر بالحي، الذي ظاهره متزين بنور الحياة وباطنه بنور المعرفة، وشبَّه غير الذاكر بالميت الذي ظاهره عاطل، وباطنه باطل».

المراد: ساعة لقلبك أو ساعة لنفسك وساعة لربك، فالمرء في الساعة الأولى - وهي ساعة القلب، أو النفس - حر في سلوكياته وتصرفاته دون التزام بقيود أو ضوابط، أما في الساعة الثانية - وهي ساعة الربّ - فإنه ليس حرًا في تصرفاته، وسلوكياته، بل لابد من الالتزام بالقيود، والضوابط الشرعية.

والحقيقة أن هذا الفقه غير سديد لأمور، منها:

١ - أن النبي ﷺ مُرسل من قِبَل ربه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى صراط العزيز الحميد، كما قال سبحانه:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢-٥٣).

ولا يُعقل أن تكون هذه هي فحوى رسالته ثم يدعو الناس إلى ما يناقضها أو يعارضها من جعل الحياة قسمين: قسمًا لله، وقسمًا للنفس والشيطان.

٢ - وأنه قد جاءت عنه ﷺ الأخبار بالدعوة إلى الاهتمام بحق الأهل والأولاد، والاشتغال بشئون المعاش من زراعة، وصناعة، وتجارة، ونحوها مع الترتيب والنظام: إذ جاء عنه قوله ﷺ: «ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده،

وهي مسئولة عنهم، وعبدُ الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسئول عنه، ألا فكُلكم راعٍ، وكُلُكم مسئول عن رعيته»[1].

وقوله ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»[2].

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الجمعة: باب الجمعة في القرىٰ والمدن ٢/ ٦، وكتاب الجنائز: باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته ٢/ ١٠٠ معلقاً، وكتاب الاستقراض: باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه ٣/ ١٥٧، ١٥٨، وكتاب العتق: باب كراهية التطاول على الرقيق، وباب العبد راع في مال سيده ٣/ ١٩٦، ١٩٧، وكتاب الوصايا: باب تأويل قول الله تعالىٰ ﴿من بعد وصية يُوصىٰ بها أو دين﴾ ٤/ ٦، وكتاب النكاح باب ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾، وباب المرأة راعية في بيت زوجها ٧/ ٣٤، ٤١، وكتاب الأحكام: باب قول الله تعالىٰ: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ ٩/ ٧٧، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل ٣/ ١٤٥٩، ١٤٦٠ رقم ٢٠، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الخراج، والإمارة، والفيء: باب ما يلزم الإمام من حق الرعية ٣/ ٣٤٢، ٣٤٣، رقم ١٧٠٥، **وأحمد** في: المسند ٢/ ٥، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١ كلهم من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، وعقّب الترمذي على حديثه بقوله: «وحديث ابن عمر حديث حسن صحيح».

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل النفقة على العيال والمملوك، وإثم من ضيعهم، أو حبس نفقتهم عنهم ٢/ ٦٩١ ـ ٦٩٢ رقم ٩٩٤ (٣٨) من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان مرفوعاً بهذا اللفظ، وفي آخره: «قال أبو قلابة: وبدأ بالعيال»، ثم قال أبو قلابة: «وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار، يعفهم، أو ينفعهم الله به، ويغنيهم»، **والترمذي** في: السنن: كتاب البر والصلة ٤/ ٣٠٤ رقم ١٩٦٦ من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان مرفوعاً بمثل لفظ مسلم وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب الجهاد: باب فضل النفقة في سبيل الله تعالىٰ ٢/ ٩٢٢ رقم ٢٧٦٠ من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان مرفوعاً بمثل حديث مسلم، **وأحمد** في: المسند ٥/ ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤، من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان مرفوعاً بمثله وبنحوه.

وقوله ﷺ: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة»(١).

وقوله ﷺ: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرتَ بها حتى ما تجعل في في امرأتك»(٢).

وقوله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيع من يقوت»(٣).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب ما جاء إن الأعمال بالنية، والحسبة، ولكل امرئ ما نوى ١/ ٢١ـ٢٢ عن حجاج بن منهال، وكتاب المغازي: باب منه ٥/ ١٠٧ عن مسلم بن إبراهيم، وكتاب النفقات: باب فضل النفقة على الأهل ٧/ ٨٠... عن آدم بن أبي إياس، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل النفقة، والصدقة على الأقربين، والزوج، والأولاد... ٢/ ٦٩٥ رقم ١٠٠٢ (٤٨) عن عبيدالله بن معاذ، عن أبيه، وعن أبي بكر بن نافع، ومحمد بن بشار (بندار) كلاهما عن محمد بن جعفر (غندر)، وعن أبي كريب عن وكيع، **والترمذي** في: السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في النفقة على الأهل ٤/ ٣٠٣ رقم ١٩٦٥ عن أحمد بن محمد، عن ابن المبارك، **والنسائي** في: السنن: كتاب الزكاة: باب أي الصدقة أفضل ٥/ ٦٩ [المجتبى] ٢/ ٣٦ رقم ٢٣٢٥ (٤) [الكبرى] عن ابن بشار، عن غندر، وكتاب عشرة النساء: باب ثواب النفقة على الذرية ٥/ ٣٨٢ـ٣٨٣ رقم ٩٢٠٥ (٢) عن إسماعيل بن مسعود، عن بشر بن المفضل **وأحمد** في: المسند ٥/ ٢٧٣ عن وكيع ثمانيتهم، أعني: [حجاج بن منهال، ومسلم بن إبراهيم، وآدم بن أبي إياس، ومعاذ بن معاذ العنبري، ومحمد بن جعفر، ووكيعا، وعبدالله بن المبارك، وبشر بن المفضل]، عن شعبة، عن عدي بن ثابت، عن عبدالله بن يزيد الأنصاري الخطمي ـ وله صحبه ـ عن أبي مسعود البدري (عقبة بن عمرو) مرفوعاً به، وبنحوه.

(٢) سبق تخريجه، ص ١٠٩.

(٣) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل النفقة على العيال والمملوك... ٢/ ٦٩٢ رقم ٩٦٦ من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً بلفظ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته»، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الزكاة: باب في صلة الرحم ٢/ ٣٢١ رقم ١٦٩٢ من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ، **والنسائي** في: السنن (الكبرى): كتاب عشرة النساء: باب إثم من ضيع عياله ٥/ ٣٧٤ رقم ٩١٧٦ (١)، ٩١٧٧ (٢) من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ، غير أنه قال في الرواية الأولى: «يعول» بدل «يقوت»، **وأحمد** في: المسند ٢/ ١٦٠، ١٩٣، ١٩٥ من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ.

وقوله ﷺ : «إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنبله، وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا في ثلاثة : تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبةً عنه، فإنها نعمة كفرها، أو قال : كفر بها»(١).

وقوله ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسًا ، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»(٢).

---

(١) سبق تخريجه في هذا الجزء، ص ١٠٩ .

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب المزارعة : باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه . . . ٣/ ١٣٥ عن قتيبة، وعبدالرحمن بن المبارك، وكتاب الأدب : باب رحمة الناس والبهائم ٨/ ١٢ عن أبي الوليد، **ومسلم** في : الصحيح : كتاب البيوع : باب فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٩ رقم ١٥٥٣ (١٢) عن يحيى بن يحيى، وقتيبة، ومحمد بن عبيد بن حساب، **والترمذي** في : السنن : كتاب الأحكام : باب ما جاء في فضل الغرس ٣/ ٦٦٦ رقم ١٣٨٢ عن قتيبة.

وأحمد في : المسند ٣/ ١٤٧، ٢٢٨ـ٢٢٩ عن يونس، ٢٤٣ عن عفان سبعتهم، أعني : [قتيبة، وعبدالرحمن بن المبارك، وأبا الوليد، ويحيى بن يحيى، ومحمد بن عبدالله بن حساب، ويونس، وعفان] عن أبي عوانة الوضاح اليشكري، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً، واللفظ لمسلم، وعقّب الترمذي على حديثه بقوله : «حديث أنس حديث حسن صحيح».

ومسلم في : الصحيح : كتاب المزارعة (المساقاة) : باب فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٩ رقم ١٥٥٣ (١٣) عن عبد بن حميد عن مسلم بن إبراهيم، عن أبان بن يزيد.

والبخاري في : الصحيح : كتاب المزارعة : باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٣/ ١٣٥ قائلاً : «وقال لنا مسلم : حدثنا أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس مرفوعاً، ولفظ مسلم : أن نبي الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر امرأة من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ : من غرس هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟ قالوا : مسلم، بنحو حديثهم»، **وأحمد** في : المسند ٣/ ١٩٢ عن بهز، وعفان قالا : حدثنا أبان، عن قتادة، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر امرأة من الأنصار . . . الحديث.

وفي رواية ثانية : «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة»(١).

وقوله ﷺ : «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء»(٢).

٣ ـ وأنه ﷺ جاءت عنهُ الأخبار الناطقة بعدم رضاه عمن ضيعوا حقوق الأهل والأولاد، أو تركوا الاشتغال بالمعاش، وعاشوا عالة على غيرهم.

هذا عبدالله بن عمرو بن العاص كان يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يقضي حق أهله، فقال النبي ﷺ: «ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل: صم، وأفطر، ونم، وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر»(٣).

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب فضل الغرس والزرع ٣/ ١١٨٨ رقم ١٥٥٢ (٧ ـ ١١) من عدة طرق إلى جابر بن عبدالله مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه، **والدارمي** في: السنن: كتاب البيوع: باب في فضل الغرس ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ من حديث جابر بن عبدالله عن أم مبشر عن النبي ﷺ به، **وأحمد** في: المسند ٦/ ٤٢٠ من حديث جابر عن أم مبشر مرفوعاً به.

(٢) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء في التجار، وتسمية النبي ﷺ إياهم ٣/ ٥١٥ رقم ١٢٠٩، **والدارمي** في: السنن: كتاب البيوع: باب في التاجر الصدوق ٢/ ٢٤٧ من حديث أبي سعيد مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الصوم: باب حق الجسد في الصوم، وباب حق الأهل في الصوم ٣/ ٥١، ٥٢، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الصيام: باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوت به حقاً ٢/ ٨١٣ ـ ٨١٨ رقم ١٨٢، ١٨٣، ١٩٣، **والنسائي** في: السنن: كتاب الصوم: باب صوم يوم وإفطار يوم ٤/ ٢١٠، ٢١١، وباب صوم عشرة أيام من الشهر ٤/ ٢١٥، كلهم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ واللفظ للبخاري.

وعن أبي جحيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي: صدق سلمان»(١).

ويقول ﷺ: «من تعلَّمَ الرمي، ثم تركه فليس منا»(٢).

٤ ـ وأنه ﷺ كان يُحسن معاشرة أهله حتى قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٣).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الصوم: باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ٣/ ٤٩، ٥٠، وكتاب الأدب: باب صنع الطعام، والتكلف للضيف ٨/ ٤٠، **والترمذي** في: السنن: كتاب الزهد: باب منه ٤/ ٦٠٨، ٦٠٩ رقم ٢٤١٣ كلاهما من حديث أبي جحيفة، عن سلمان مرفوعاً به، وعقّب الترمذي على حديثه قائلاً: «هذا حديث صحيح».

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضل الرمي والحث عليه ٣/ ١٥٢٣ ـ ١٥٢٣ رقم ١٩١٩، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الجهاد: باب الرمي ٤/ ٢٨ ـ ٢٩ رقم ٢٥١٣ كلاهما من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً، واللفظ لمسلم.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن: كتاب المناقب: باب فضل أزواج النبي ﷺ ٥/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧ رقم ٣٨٩٥ من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثوري، ما أقل من رواه عن الثوري، وروى هذا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبي ﷺ مرسل»، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب النكاح: باب حسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٦ رقم ١٩٧٧ من حديث عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»، وعقب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة ٢/ ١١٧ ـ ١١٨ بقوله: «الحديث من رواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ، رواه الترمذي في جامعه، وابن حبان في=

وكان لحسن عشرته ﷺ هذه صور، منها : مسابقته لأهله ، إذ تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ خرجتُ مع رسول الله ﷺ وأنا خفيفة اللحم فنزلنا منزلاً، فقال لأصحابه : «تقدموا»، ثم قال لي : «تعالي حتى أسابقك» فسابقني، فسبقته، ثم خرجتُ معه في سفرٍ آخر، وقد حملتُ اللحم، فنزلنا منزلاً، فقال لأصحابه : «تقدموا»، ثم قال لي : «تعالي أسابقك»، فسابقني، فسبقني، فضرب بيده كتفي، وقال : «هذه بتلك»(١).

ومنها إباحته لهن اللعب ، والنظر لمن يلعبون، وغيرها من الصور : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : «كنتُ ألعب بالبنات في بيت رسول الله ﷺ وكن لي صواحب يأتينني فيلعبن معي، فيتقمعن إذا رأين رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يُسر بهنّ إليّ، فيلعبن معي»(٢).

=صحيحه، وأما رواية ابن عباس فإسناد ضعيف، لأن عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبان في الثقات، وقال عبد الحق : ليس بالقوي، وقال ابن القطان : مجهول الحال»، ورقم ١٩٧٨ من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً «خياركم، خياركم لنسائهم»، وعقّب عليه البوصيري في : المصباح ٢/ ١١٨ بقوله : «إسناده على شرط الشيخين، والحديث رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال : حسن»، **والدارمي** في : السنن : كتاب النكاح : باب في حسن معاشرة النساء ٢/ ١٥٩ بإسناد ولفظ الترمذي.

(١) الحديث **أخرجه أبو داود** في : السنن : كتاب الجهاد : باب في السبق على الرجل ٣/ ٦٥ ـ ٦٦ رقم ٢٥٧٨، **وابن ماجة** في : السنن : كتاب النكاح : باب حسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٦ رقم ١٩٧٩، وعقّب عليه البوصيري كما يقول الشيخ محمد عبدالباقي قائلاً : «إسناده صحيح على شرط البخاري، وعزاه المزي في الأطراف للنسائي، وليس هو في رواية ابن السني»، وأقول إن عزو المزي صحيح بالنسبة للسنن الكبرى، إذ أخرجه النسائي هناك : كتاب عِشرة النساء : باب مسابقة الرجل زوجته ٥/ ٣٠٣ رقم ٨٩٤٢ ـ ٨٩٤٥ (١ ـ ٤) من حديث : هشام بن عروة عن أبيه، وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن كلاهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً، **وأحمد** في : المسند ٦/ ٣٩، ١٢٩، ١٨٢، ٢٦١، ٢٨٠، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ واللفظ للنسائي.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب الأدب : باب الانبساط إلى الناس ٨/ ٣٧، **ومسلم** في : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب في فضل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ٤/ ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ رقم ٢٤٤٠، **وأبو داود** في السنن : كتاب الأدب : باب في اللعب بالبنات=

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: [دخل الحبشة المسجد يلعبون، فقال لي: «يا حميراء: أتحبين أن تنظري إليهم؟» فقلت: نعم، فقام بالباب، وجئتُه فوضعت ذقني على عاتقه، فأسندتُ وجهي إلى خده، قالت: ومن قولهم يومئذ: أبا القاسم طيباً، فقال رسول الله ﷺ: «حسبك»، فقلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام لي، ثم قال: «حسبك»، فقلت: لا تعجل يا رسول الله، قالت: وما لي حب النظر إليهم، ولكني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي، ومكاني منه][1].

وليس يعقل أن يحسن النبي ﷺ عشرة النساء ثم يدعو إلى إهمال الأهل، أو على الأقل: سوء عشرتهن.

٥ ـ وأخيراً قد جاء عنه ﷺ صراحةً ما يبطل هذا الفقه المعوج من أساسه، إذ يقول ﷺ: «إن لكل عابدٍ شِرَّة، ولكل شِرَّة فترة، فإما إلى سُنَّة، وإما إلى

= ٥/ ٢٢٦ رقم ٤٩٣١، **والنسائي** في: السنن: كتاب النكاح: باب إباحة الرجل اللعب لزوجته بالبنات ٥/ ٣٠٥ـ٣٠٦ رقم ٨٩٤٦ـ٨٩٤٩ (١ـ٤) [الكبرى]، **وابن ماجة** في: السنن: كتاب النكاح: باب حسن معاشرة النساء ١/ ٦٣٧ رقم ١٩٨٢، **وأحمد** في: المسند ٦/ ٥٧، ١٦٦، ٢٣٤، كلهم من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً، واللفظ للبخاري، والنسائي.

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الصلاة: باب أصحاب الحراب في المسجد ١/ ١٢٣، وكتاب العيدين: باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين، وكذلك النساء ٢/ ٢٩ـ٣٠ وكتاب الجهاد: باب الدرق ٤/ ٤٧، وكتاب المناقب: باب قصة الحبش وقول النبي ﷺ: يابني أرفدة ٤/ ٢٢٥، وكتاب النكاح: باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة ٧/ ٤٨ـ٤٩، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب العيدين: باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ٢/ ٦٠٨ـ٦١٠ رقم ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، **والنسائي** في: السنن: كتاب العيدين: باب اللعب بين يدي الإمام يوم العيد، وباب اللعب في المسجد يوم العيد ونظر النساء إلى ذلك ٣/ ١٩٥ـ١٩٦ [المجتبى]، وكتاب عشرة النساء: باب إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب ٥/ ٣٠٧ـ٣٠٩ رقم ٨٩٥١ـ٨٩٥٨ (١ـ٨)، **وأحمد** في: المسند ٦/ ٥٦، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٦٦، ١٨٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٧٠، كلهم من حديث عائشة مرفوعاً واللفظ للنسائي.

بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»[1].

وهكذا يتبين أن مقولة: «ساعة لقلبك أو نفسك، وساعة لربك»، استناداً لهذا الحديث أو غيره مقولة باطلة، يُروِّج لها أصحاب الأهواء، وعبّاد الشهوات، ويرفضها المسلمون الصادقون، والله أعلم.

ما يُستفاد من الحديث دعوياً وتربوياً:

١ ـ قوة الإيمان، وشفافية النفس، وصفاء القلب في جيل الصحابة، الأمر الذي حملهم على التفتيش دوماً عما في نفوسهم والسعي لتدارك الخلل الواقع فيها حتى كتب الله لهم النصر والتمكين، وعلينا أن نقتدي بهم في ذلك، وأن نسلك سبيلهم.

٢ ـ أن العبادة في الإسلام تشمل الحياة جميعاً، إذ هي كما ذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ اسم أو كلمة جامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وحديث: «حنظلة... ساعة وساعة» خير شاهد على ذلك.

٣ـ أن الاشتغال بشئون المعاش من تجارة وصناعة وزراعة ونحوها، وكذلك القيام بحق الأهل، والولد ليس مما يشين أو يعاب، بدليل إقرار النبي ﷺ لحنظلة، ومعه الصديق، على ما كانا يفعلان من الاشتغال بشئون المعاش بحق الأهل والولد قائلاً: «ولكن ساعة وساعة».

٤ ـ أن الاستدلال بالحديث: «ساعة وساعة» على أن الحياة قسمان: قسم لله يكون الإنسان فيه مقيداً بالعبودية، وقسم للنفس يكون فيه الإنسان حراً طليقاً، استدلال غير صحيح يأباه لفظ الحديث، ويأباه كتاب الله، وسنة النبي ﷺ.

---

(١) الحديث سبق تخريجه، ص ١٠٣.

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي موسى: عبدالله بن قيس. الأشعري. رضي الله عنه. عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

تخريج الحديث:

الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب التوبة: باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، والتوبة ٩/ ٨٨ رقم ٣١/ ٢٧٥٩، **والنَّسائي** في: السُّنن: كتاب التفسير، **وأحمد** في: المسند ص ١٤٣١، رقم ١٩٧٥٨، ص ١٤٣٧، رقم ١٩٨٤٨.

معناه الإجمالي:

الخطأ لازم الإنسان تارةً لضغط الميول الطينية فيه، وتارةً لإغراء عدوِّه الأول إبليس وجنوده، وتارةً لإحاطة أقرانه به من بني آدم: أهل السوء، والمنكر، وتارةً لبريق الدنيا وزخرفها وزينتها، أو لشدائدها ومحنها، وتارةً لطول الطريق، وصدق الله الذي يقول: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا...﴾ (النساء: ٢٨).

ولو مضى الإنسان في خطئه فإنه تُظلم نفسه، وينقطع عنه عون ربِّه، فيبقى عنصر فساد وإفساد في الأرض، وقد تستيقظ نفسه من داخلها، فتقلع عن الخطأ، ويكون جاهلاً بطريق الخلاص من خطأ الماضي فيصيبه اليأس والقنوط، وربما حمله ذلك على قتل نفسه، ومفارقة الحياة الدنيا قبل أن يأذن الله عز وجل بانتهاء دوره في هذه الحياة، لهذا كله نَبَّهَ ربُّ العزة إلى طريق إيقاف الخطأ، وتكفير ما مضى منه بفتح باب التوبة والإنابة، والرجوع إليه. سبحانه. في أيِّ

وقتٍ، وعلى أي حال.

والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن: دعوة النبي ﷺ المخطئين أن يدركوا خطورة الذنوب بصورة تولد فيهم الندم والإقلاع عن هذه الذنوب فوراً مع ردِّ المظالم إلى أصحابها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومع العزم الصادق ألا يعودوا، وإن قُطِّعوا وحُرِّقوا بالنار، ثم المحافظة على حدود الله، والإكثار من الطاعات ليكفِّر الله عنهم ما مضى، ويصلح ما بقي.

وكانت سبيل هذه الدعوة التلميح لا التصريح، والإشارة لا العبارة، رفعًا لمعنويات المُخَاطَب، وإشعاره أنه مايزال سليم الفطرة، نقي السريرة، راشد العقل، بحيث يغنيه هذا التلميح عن التصريح، وتكفيه الإشارة عن العبارة، وذلك بالإخبار عن الربِّ الغني غنى مطلقًا أنه مع غناه المطلق يتودد إلى عباده، ويتحبب إليهم، فيبسط يده دائمًا، علامة على قبوله توبة العاصين، وفرحه برجوعهم إليه، وتجاوزه عنهم، ويجدد هذا البسط ليلاً ونهارًا، إيذانًا بأن من تكرر منه الخطأ لا يحملنَّه هذا التكرار على الخجل، والمضيِّ في طريق الأخطاء إلى غير رجعة، بل عليه الرجوع إلى ربه، وفي كل مرّةٍ سيجده مُقبلاً عليه، متوددًا إليه، باسطًا يديه له بالقبول، والستر، والتوفيق، والسداد.

ولكي تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فسنعرض له من هذه الجوانب:

الجانب الأول: معنى بسط الله يده، مع سرِّ تكرار ذلك ليلاً ونهارًا.

الجانب الثاني: ماهية التوبة، وشروط صحتها، وأمارات قبولها.

الجانب الثالث: آثار الذنوب على الفرد والجماعة، وسبيل التكفير لها.

الجانب الرابع: منزلة التوبة في الإسلام وأهميتها، ووجه الحاجة إليها مع الأدلة على ذلك.

الجانب الخامس: سبيل التحلي بالتوبة والإنابة إلى الله.

وذلك على النحو التالي:

الجانب الأول : معنى بسط الله يده، مع سرِّ تكرار ذلك ليلاً ونهاراً :

بسط اليد لغة يعني : نشرها ، ومدها[1] ، ونسبة بسط اليد إلى الله : حقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ، وثمرة ذلك : فرح الرب سبحانه وتعالى بتوبة العاصي ، ورضاه عن عمله ، وقبول توبته ، وقيل : بسط الله يده : مجاز لا حقيقة ، قال المازري : «المراد به قبول التوبة ، وإنما ورد لفظ : بسط اليد ، لأن العرب إذا رضي أحدهم الشيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه فَخُوطِبوا بأمرٍ حسِّيٍّ يفهمونه ، وهو مجاز ، فإن اليد الجارحة مستحيلة في حقِّ الله تعالى»[2] .

وقال القاضي عياض : «قوله : بيده القبض والبسط ، ويبسط يده لمسيء النهار : البسط هنا عبارة عن سعة رحمته ورزقه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ . . .** ﴾ (الشورى : ٢٧)»[3] .

والسرُّ في تكرار هذا البسط ليلاً ونهاراً : تشجيع العاصين على التوبة وإن تكررت منهم المعصية ، إذ كلما عصى العبد وتاب ، بسط الله له يده فرحًا به ، مع رضاه عنه ، وقبول توبته ليلاً كان ذلك أو نهاراً ، ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ : «أن عبداً أذنب ذنباً فقال : ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفر لي ، قال الله تعالى : علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرتُ لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ، فذكر مثل الأول مرتين ، أخريين»[4] .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ٢/ ٥١٧ - ٥١٨ مادة : «بسط» .

(٢) انظر : المعلم ٨ / ٢٦١ بتصرف .

(٣) انظر : مشارق الأنوار ١/ ١٣٣ مادة : «بسط» .

(٤) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : [«يريدون أن يُبدِّلوا كلام الله] رقم ٧٥٠٧ ، **ومسلم** في : الصحيح : كتاب التوبة : باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكرّرت الذنوب والتوبة ، رقم ٢٩/ ٢٧٥٨ ، **وأحمد** في : المسند ٢/ ٤٩٢ وفيه : «اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك» ، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ ، وبنحوه .

وفي رواية: أنه قال في الثالثة: «قد غفرتُ لعبدي، فليعمل ما شاء»(١).

الجانب الثاني: ماهية التوبة، وشروط صحتها، وأمارات قبولها:

التوبة لغة: الرجوع مطلقًا، أعم من أن يكون من قبيح إلى جميل، أو من حظر إلى إباحة، أو من الأثقل إلى الأخف، قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ...﴾ (البقرة: ٥٤)، أي ارجعوا عن معصيته إلى طاعته، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ...﴾ (البقرة: ١٨٧)، أي أباح ما حظر عليكم، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...﴾ (المزمّل: ٢٠)، أي خفَّفَ عنكم(٢).

التوبة شرعًا: جاءت عن العلماء عدة تعريفات شرعية للتوبة، منها:

١ - تعريف الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، حيث قال: «والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتداركه من الأعمال بالإعادة»(٣).

٢ - تعريف الجرجاني، حيث قال: «التوبة هي الرجوع إلى الله بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكلِّ حقوق الربِّ»(٤).

٣ - تعريف ابن القيِّم (ت ٧٥١هـ)، حيث قال: «إن حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من

---

(١) أخرج هذه الرواية الإمام مسلم في: الصحيح: كتاب التوبة: باب قبول التوبة رقم ٣٠/ ٢٧٥٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٥٧، والصحاح للجوهري ١/ ٩٢، ولسان العرب لابن منظور ١/ ٤٥٤، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي ١/ ٣١١، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ١/ ١٦١، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٢/ ٣٠٤، مادة: «توب» بتصرف كثير.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، ص ٧٦، مادة: «توب».

(٤) انظر: التعريفات، ص ٧٠.

مكروه إلى محبوب، أو هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسمَّاها: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات كأنها: اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان»[1].

ولا تعارض بين هذه التعريفات، إذ بعضهم عرّف التوبة بذكر شروط صحتها كُلاً وهو الراغب الأصفهاني، أو بعضاً وهو الجرجاني، وبعضهم عرَّفها بذكر حقيقتها، ومحتواها وهو ابن القيِّم.

وشروط صحة التوبة هي:

١. **وقوعها في وقت القبول:** يعني قبل أن يقع الروح في الحلقوم، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، لقوله ﷺ في حديث الباب: «حتى تطلع الشمس من مغربها»، ولقوله أيضاً: «مَنْ تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[2]، ولقوله كذلك: «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[3].

٢. **الإقلاع عن الذنب ظاهراً وباطناً:** إقلاعاً مقروناً ببغضه، وبغض كل ما يُعين عليه، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ (النساء: ١٧).

---

(١) انظر: تهذيب مدارج السالكين، ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء، والتوبة، والاستغفار: باب استحباب الاستغفار، والإكثار منه ٩/ ٢٩ رقم ٤٣/ ٢٧٠٣، **واحمد** في: المسند ٢/ ٤٩٥ كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً به.

(٣) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب الدعوات: باب: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، ص ٨٠٦ رقم ٣٥٣٧، **وأحمد** في: المسند ٢/ ١٣٢ كلاهما من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً به، وعقّب عليه الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن غريب».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٩).

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠).

وقوله ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب، تاب الله عليه»(١).

٣. الندم الشديد والتحسر، كيف كانت الجرأة على الله؟ وكيف كان الانتفاع بالنعمة مع عصيانه سبحانه بها؟ وكيف كان الإمهال من الله، وعدم معاجلة العقوبة؟ بل استمرار الفيض بهذه النعمة صباح مساء؟ لقوله ﷺ: «الندم توبة»(٢).

وقوله ﷺ: «يا عائشة إن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله، فإن التوبة من الذنب: الندم، والاستغفار»(٣).

٤. رد المظالم إلى أصحابها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن كانت فرائض

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب المغازي: باب حديث الإفك، ص ٧٠٣ رقم ٤١٤١، وكتاب التفسير: باب قوله: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم» سورة النور، ص ٨٣١، رقم ٤٧٥٠، **ومسلم في**: الصحيح: كتاب التوبة: باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٩/ ١١٥ـ١٢١ رقم ٥٦/ ٢٧٧٠، **وأحمد في**: المسند ٦/ ١٩٦ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً به.

(٢) الحديث **أخرجه أحمد في**: المسند ١/ ٣٧٦ (٦/ ٣٧ رقم ٣٥٦٨) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به، وعقب عليه الشيخ شعيب الأرناءوط وآخرون بقوله: «صحيح، وهذا إسناد حسن»، **وابن ماجة في**: السنن: كتاب الزهد: باب ذكر التوبة ٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٢ من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعاً به، وعقب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة ٤/ ٢٤٧ـ٢٤٨ بقوله: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٣) الحديث **أخرجه أحمد في**: المسند ٦/ ٢٦٤ (٤٣/ ٣١٤ رقم ٢٦٢٧٩) من حديث عائشة مرفوعاً به، وعقب عليه الشيخ شعيب الأرناءوط وآخرون بقوله: (حديث صحيح دون قوله في حديث الإفك: «فإن التوبة من الذنب: الندم والاستغفار»).

واجبة القضاء قضيت، وإن كانت حقوقًا للعباد مالية رُدَّتْ، أو غير مالية استُحل أصحابها في الجملة، أو مكنوا من القصاص.

لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٨٩)

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ...﴾ (النساء: ١٤٦).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٩).

ولقوله ﷺ: «مَنْ كانت له مظلمة لأخيه من عرضه، أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحُمِلَ عليه»(١).

٥. **العزم الصادق على عدم الرجوع إلى الذنب**: ولو كان تقطيع الأوصال أو التحريق بالنار.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (التحريم: ٨).

قال عمر: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود فيه، أو لا يريد أن يعود فيه»(٢)، وقال ابن مسعود: «توبة نصوحًا: يتوب ثم لا يعود»(٣) وقال مجاهد: «قوله: [توبة نصوحًا] قال: يستغفرون، ثم لا يعودون»(٤).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المظالم: باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته ص ٣٩٥ رقم ٢٤٤٩، **وأحمد** في: المسند ٢/ ٥٠٦ كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً به.

(٢، ٣، ٤) انظر: جامع البيان للطبري: سورة التحريم، آية رقم: ٧٠.

وأمارات قبول التوبة كثيرة نذكر منها :

١ ـ **الشعور بالحسرة والندامة** حين تُذكر المعصية، وزمنها، ومكانها، وأهلها، مع مفارقة كلّ ما يذكّر بهذه المعصية.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهبٍ فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجلٍ عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَنْ يحولُ بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا، وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرضُ سوءٍ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»(١).

٢ ـ **الاستمرار في البعد عن المعاصي والسيئات**، والمواظبة على أعمال البرّ والطاعات، لاسيما إصلاح ما وقع من فساد زمن المعصية، قال تعالى:

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١٢٢).

وقال تعالى:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (مريم: ٦٠).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: باب منه، ص ٥٨٥ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً.

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾ (الفرقان: ٧٠).

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢).

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٠).

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٨٩).

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٦).

وقال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الانعام: ٥٤).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (القصص: ٦٧).

٣. عدم الخجل من التوبة عند العودة إلى الذنب: وإن تكرر ذلك مرات ومرات، مادامت هذه التوبة قد استوفت شروطها في كل مرة.

وتقدم حديث أبي هريرة مرفوعًا «إن عبدًا أذنب ذنبًا، فقال ربِّ أذنبتُ ذنبًا فاغفر لي... الحديث»[1].

الجانب الثالث: آثار الذنوب على الفرد والجماعة، وسبيل التكفير لها:

للذنوب آثار ضارَّة، وعواقب مهلكة على الفرد والجماعة، منها:

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٢٩.

أ ـ على الفرد :

١ ـ **الحرمان من الأمن بصورة** يكون معها القلق والاضطراب النفسي والتشتت الذهني، ذلك أن المعصية تسوِّد القلب حتى يصير هذا السَّواد حجاباً، ثم يقفل القلب، ويختم عليه، وتكون الثمرة هي: الخوف المؤدِّي إلى القلق، والاضطراب النفسي، والتشتت الذهني.

قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...** ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وقال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ (النحل: ١١٢).

كما أن هذا هو مفهوم قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (الأنعام: ٨٢).

وهو مفهوم قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد: ٢٨).

٢ ـ **الابتلاء بعلل وأمراض بدنية** ما سمع الناس بمثلها من قبل كالزُّهَري، والسيلان، والإيدز، والجمرة الخبيثة، ونحوها، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر المهاجرين: خمس إذا ابتُليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...»(١).

---

(١) الحديث **أخرجه ابن ماجة** في: السنن: كتاب الفتن: باب العقوبات ٤/ ٣٦٧ـ٣٦٨ رقم ٤٠١٩ من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، وعقَّب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة ٤/ ١٨٥ـ١٨٦ بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد، هذا حديث صالح العمل به».

٣. **نقص الأقوات والأرزاق مع غلاء الأسعار**، فإن زادتْ الأقوات والأرزاق ونزلت الأسعار كان نزع البركة، مع ظلم السلاطين وجورهم، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقال الرسول ﷺ: «. . . ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخِذُوا بالسنين وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم. . .»[١].

وهو المفهوم من قوله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فَلْيَصِلْ رحمه»[٢].

٤. **نزع البركة من الأعمار**، وربما قصر الأعمار حقيقة تبعًا للقدر المعلَّق، وحديث «مَنْ سَرَّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره. . . الحديث»[٣]، المذكور آنفًا خير شاهد على ذلك.

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: [إن المعاصي تقصر العمر، وتمحق بركته ولابدَّ، فإن البرَّ كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر، وقد اختلف الناس في هذا الموضع: فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره، ومحقها عليه، وهذا حق، وهذا بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابًا كثيرة تكثره، وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده.

---

(١) نفس التخريج السابق.

(٢، ٣) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب البيوت: باب مَنْ أحب البسط في الرزق، ص ٣٣٢ رقم ٢٠٦٧ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، وكتاب الأدب: باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم، ص ١٠٤٨ رقم ٥٩٨٥ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، ورقم ٥٩٨٦ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق، والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عزَّ وجل فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله الكافر ميتًا غير حيٍّ، كما قال تعالى: ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ... ﴾ (النحل: ٢١)، فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر، والتقوى، والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي في حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي ضاعتْ عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر: ٢٤)، فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية، والأخروية أولاً، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسَّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره، وسرُّ المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثاره مرضاته](١).

٥ ـ التعرّض للغضب الإلهي: ذلك أن الله لا يرضى مَنْ عبده المعصية وقد نهاه عنها، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ... ﴾ (الزمر: ٧).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي... ﴾ (طه: ٨١).

وإذا نزل غضب الله بعبدٍ فلا تسأل عنه أبدًا، قال تعالى: ﴿ ...وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ (طه: ٨١).

---

(١) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

ب. على الجماعة:

١. **الفرقة والقطيعة بين المسلمين** مِنْ لَدُنْ البيت الواحد إلى الدولة الواحدة بل الدول جميعاً، وربما يتسع الأمر إلى حدِّ الحروب الأهلية، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢).

يقول أبو حيان: «المعنى: إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم، وتقطّعوا أرحامكم، لأن من أرحامكم كثيراً من المسلمين، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من الرحم»(١).

وقال النبيُّ ﷺ: «... وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم»(٢).

٢. **تسليط العصاة بعضهم على بعض** لسلب بعض ما في أيديهم، وإذاقتهم سوء العذاب، قال رسول الله ﷺ: «... ولا خفر قوم العهد إلا سلَّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم...»(٣).

٣. **تمرد الظواهر الكونية**، فيكون تلوث الهواء والماء، وتكثر الزلازل والخسوف، وتقع كوارث لا حصر لها في البرِّ، والبحر، والجو، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا...﴾ (الروم: ٤١).

ولعلَّ ما نزل بقارون يشرح ذلك ويؤكده، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١).

---

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي ٢٦/ ٦٩، المجلد التاسع.

(٢، ٣) الحديث سبق تخريجه.

وأما سبيل تكفير الذنوب فكثيرة، منها :

١ ـ **التوبة النصوح**، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . . . ﴾ (التحريم : ٨) .

٢ ـ **المحن**، والابتلاءات، والمصائب بكل أنواعها وصنوفها، لقوله ﷺ : «ما مِنْ مصيبة تُصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»(١) .

وقوله ﷺ : «ما يصيب المسلم من نصبٍ، ولا وصبٍ، ولا همٍّ، ولا غمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذىً ولا غمٍّ ـ حتى الشوكة يُشاكها ـ إلا كَفَّرَ اللهُ بها من خطاياه»(٢) .

٣ ـ **العقوبات الدنيوية** من القصاص، والحدود، والتعازير، ونحوها، لقوله ﷺ : «بايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولاتقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم، وأرجلكم، ولاتعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه . . .»(٣) .

٤ ـ **اتبّاع السُّنَّة** في كل شأنٍ من شئون الحياة، وفي كلِّ ناحيةٍ من نواحيها، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري في** : الصحيح : كتاب المرضى : باب ما جاء في كفارة المرض ص٩٩٩ رقم ٥٦٤٠ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٢) الحديث **أخرجه البخاري في** : الصحيح : كتاب المرضى : باب ما جاء في كفارة المرض، ص ٩٩٩ رقم ٥٦٤١ من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٣) الحديث **أخرجه البخاري في** : الصحيح : كتاب الإيمان : باب منه ص ٦ رقم ١٨ من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً بهذا اللفظ .

٥. **عفو أصحاب الحقوق عن حقوقهم**، لقوله ﷺ: «مَنْ كانت عنده لأخيه مظلمة في مالٍ أو عِرضٍ فليأته، فليستحلها منه قبل أن يُؤخذ، وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته، فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ في النار»(١).

٦. **اجتناب الكبائر**، لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١).

٧. **تقوى الله** المتمثلة في توحيد الله، وعبادته وحده، والنزول على حكمه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾ (الأنفال: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤).

وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها...»(٢).

٨. **المواظبة على دعاء كفارة المجلس**، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جلس في مجلسٍ فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك»(٣) إلى غير ذلك من السُّبُل التي تُكَفِّر الذنوب.

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المظالم: باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلَّلها له، ص ٣٩٥ رقم ٢٤٤٩ من حديث أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً بنحوه.

(٢) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء في معاشرة الناس، ص ٤٦٠ رقم ١٩٨٧ من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السنن: كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا قام من مجلسه، ص ٧٨٥ رقم ٣٤٣٣ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب=

الجانب الرابع: منزلة التوبة في الإسلام وأهميتها، ووجه الحاجة إليها مع الأدلة على ذلك:

للتوبة في ميزان الإسلام مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة، حسبنا:

١. **أن ربَّ العزَّة أمَرَ بها** على سبيل الوجوب العيني الذي لا يعفي منه أحدٌ، فقال تعالى: ﴿ . . .وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . . . ﴾ (التحريم: ٨).

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ . . . ﴾ (هود: ٣).

وأن الرسول ﷺ أمر بها كذلك، فقال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(١).

٢. **أنها تكون سببًا في محبَّة الله والعبد**، ومن أحبَّه الله أعانه، وأيَّده بكل صور الإعانة والتأييد، قال تعالى: ﴿ . . .إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

٣. **أنها تكون سببًا في الحياة الطيبة** في هذه الدنيا من: سعة الرزق، وكثرة الولد والعافية، والقوة، وراحة البال، قال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ . . . ﴾ (هود: ٣).

=عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث سهيل إلا من هذا الوجه».

(١) الحديث **أخرجه مسلم في**: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ص ١١٧٤ رقم ٦٨٥٩ من حديث الأغرّ بن يسار المزني -رضي الله عنه- مرفوعاً بهذا اللفظ.

وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ... ﴾ (هود: ٥٢).

٤. **أنها تكون سببًا في تكفير الذنوب**، ومحو السيئات، بل تبديل ذلك حسنات، قال تعالى:

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٧٠).

٥. **أنها تكون سببًا في أخوة الدين**، والدخول في حظيرة المؤمنين، قال تعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ.. ﴾ (التوبة: ١١)

وقال تعالى :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٦).

٦. **أنها مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده**، قال تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ... ﴾ (النساء: ٢٦-٢٧).

٧. **أنها تكون سببًا في صقل القلب**، وتنويره، بحيث يدبُّ فيه الأمن

والأمان والسكينة، قال رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا أخطأ نُكِتَتْ في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، وإن عاد زيد فيه، حتى تعلو قلبه، وهو الرَّان الذي ذكر الله : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين : ١٤)»[١].

٨ - **أنها سبب من أسباب فرح الربِّ بعبده** بصورة أشد من فرح من عثر على شيء ثمين بعد فقده، قال رسول الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة العبد من رجلٍ نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه، وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتد عليه الحرُّ والعطش، أو ما شاء الله، قال : أرجعُ إلى مكاني، فرجع فنام نومةً، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده»[٢].

٩ - **أنها تفتح باب الأمل أمام العاصي** كي يتابع المسيرة إلى نهايتها، قال تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣).

١٠ - **أنها تهيئ المرء لبيع نفسه**، وما تملك لله عز وجل بيعةً صادقةً لا رجعة فيها، ولا نقض، قال تعالى :

---

(١) الحديث **أخرجه الترمذي في** : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة ويلٌ للمطففين ص ٧٦١ رقم ٣٣٣٤، وابن ماجة في : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الذنوب ص٦١٨ رقم ٤٢٤٤، كلاهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً، واللفظ للترمذي، وعقَّب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الحديث **أخرجه البخاري في** : الصحيح : كتاب الدعوات : باب التوبة ص ١٠٩٧ رقم ٦٣٠٨، **ومسلم في** : الصحيح : كتاب التوبة : باب في الحض على التوبة، والفرح بها، ص ١١٨٩ - ١١٩١ رقم ٢٧٤٤ كلاهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١١-١١٢).

وبالجملة فإنها طريق النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، لقوله سبحانه:

﴿ ...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١).

وإذا كانت هذه منزلة التوبة في الإسلام، فإنها مهمَّة في حياة العبد، والحاجة إليها ماسَّة في كلِّ لحظة من لحظات حياته، وعلى أيِّ حالٍ يوجد أو يكون عليها.

الجانب الخامس: سبيل التحلي بالتوبة والإنابة إلى الله:

سبيل التحلِّي بالتوبة والإنابة إلى الله كثيرة، نذكر منها:

١- **استحضار عواقب التمادي في المعصية**، فردية كانت هذه العواقب أو جماعية، دنيوية أو أخروية، فإن من شأن هذا الاستحضار تحريك القلب وانتفاضته، وإثارة الأحاسيس والمشاعر بحيث يصدر الأمر من القلب للجوارح أن تقلع، بل أن تتبع السيئة الحسنة تمحها، ويصير المرء ضمن ركب الفارِّين إلى الله رب العالمين.

٢- **تأمل النعم** التي أسبغها الله عليه ظاهرة وباطنة، وهل يليق بالمرء أن يستخدمها في معصية الله ورسوله، وهي التي أعطيت له لتستخدم في طاعته وشكره، كما قال سبحانه:

﴿ ...كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (النحل: ٨١).

٣ ـ **تذكر أن الله أمر بالتوبة**، وحضَّ عليها رسول الله ﷺ، وهو سبحانه يفتح بابه، ويبسط يده ليلاً ونهاراً لاستقبال التائبين، والعفو عن المذنبين، كما جاء في الحديث هنا: «إن الله يبسط يده. . . .»[1] وأن ذلك لن ينقطع إلا بوقوع الروح في الحلقوم، أو طلوع الشمس من مغربها.

٤ ـ **الوقوف على منزلة التوبة في الإسلام**، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على المسارعة، والإنابة، والرجوع إلى الله عز وجل.

٥ ـ **النظر في حال التائبين** من لدن الأنبياء والمرسلين إلى عموم العباد، وكيف أن الله قَبِلَ توبة من تاب، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء، أو ملأتْ طباق الأرض، فإن من شأن هذا النظر حمل المرء العاصي على الإقلاع عن الذنب، والسير في طريق المتقين اقتداءً وتأسياً، أو على الأقل محاكاةً وتشبهاً.

٦ ـ **اصطفاء الصالحين، ومصاحبتهم**، فإن العادة جرت: أن هؤلاء يُذكِّرون المرء بالله عند نسيانه، ويعينونه عند ذكره، وقد جاء: «مَنْ يُرد الله به خيراً يهده خليلاً صالحاً، إن نس ذكَّره، وإن ذكر أعانه»[2]، وهذا يكون آكد بعد التخلِّي عن معايشة أصدقاء السوء ـ إن وجدوا ـ بل مقاطعتهم إن ظلوا متمادين في لهوهم، وباطلهم، لقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٠).

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) سبق تخريج هذا الأثر في الجزء الأول.

٧. **معرفة حقيقة التوبة وشروطها**، وكيفية التحلي بها، فإن هذا من شأنه تسهيل أمر الأخذ بها، لكون المرء عدوَّ ما يجهل، وقد قال الله عز وجل:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ... ﴾ (يونس: ٣٩).

٨. **الدعاء بإلحاح وصدق** ـ سيما في الأوقات الأكثر أو الأشد إجابة ـ التوفيق إلى التوبة، والإعانة، والقبول، فإن الدعاء هو العبادة.

٩. **استحضار أن الآجال غير معلومة**: وعلى العاقل أن يبادر بالتوبة قبل أن يباغته الأجل، وحينئذٍ يندم يوم لا ينفع الندم، قال تعالى:

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (المنافقون: ١٠).

١٠. **الاعتراف بالذنب**، والتجرد من الحول والقوة، واللجوء إلى حول الله وقوته، فإن ذلك يكون من بين أسباب توفيق الله للعبد أن يتوب عليه، وأن يقبل منه، وحسبنا ما صنعه يونس عليه السلام حين صار في بطن الحوت، إذ قال: ﴿ ...لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا:

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها:

١. أَنْ يُوقنَ العبدُ سعةَ رحمة الله، وفضله، وسوء أدب نفسه، وإجرامه، حيث يمتنَّ عليه بنعم لا تعدُّ ولا تُحصى ليستخدمها في طاعته، والانقياد له، ولكنه يستخدمها في معصيته، والخروج على حكمه، ومن هذه النِّعَم: فتح باب التوبة أمامه بالليل والنهار حتى يقع الروح في الحلقوم، وتطلع الشمس من مغربها، وعليه اهتبال هذه الفرصة، والانتفاع بهذه النعمة، بالإقلاع عن خطاياه، ورد المظالم إلى أصحابها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والعزم الأكيد على عدم العود، وإن قُطِّعَ وَحُرِّقَ بالنار.

٢ ـ أن يلزم العبد تجديد التوبة مع كل ذنب طارحًا عنه شبح اليأس والقنوط، حيث دعاه ربُّ العزَّة إلى ذلك بقوله:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

٣ ـ أن يحذر العبد التسويف، فإن الأجل محدود، وغيب لا يعلمه إلا الله، وربما طرقه الموت وهو في غمرة التسويف، فتكون الخسارة، والبوار، والندم والحسرة حين لا ينفع الندم والحسرة، وصدق الله الذي يقول:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الزمر: ٥٤ـ٥٨).

الحديث السابع والثلاثون

عن أبي يحيى ؛ صهيب بن سنان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له»

تخريج الحديث :

الحديث **أخرجه مسلم** في : الصحيح : كتاب الزهد : باب المؤمن أمره كله خير، ص ١٢٩٥ رقم ٧٥٠٠، وأحمد في : المسند ٤/ ٣٣٢ (٣١/ ٢٦٤ رقم ١٨٩٣٤، ٣١/ ٢٦٨ ـ ٢٨٩ رقم ١٨٩٣٩)، **وابن حبان** في : الصحيح رقم ٢٨٩٦، **والطبراني** في : المعجم الكبير رقم ٧٣١٦، **وفي** : المعجم الأوسط رقم ٣٨٦١، **والبيهقي** في : السُّنن ٣/ ٣٧٥، **وفي** : الشعب رقم ٩٩٤٩، **وابن قانع** في : المعجم ٢/ ١٨، كلهم من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

المعنى الإجمالي للحديث :

يقين المسلم أن ربَّه خيرٌ وأبقى، وأنه سبحانه لا يفعل إلا كلَّ خير، ولا يقضي له إلا كلَّ حسن وجميل، وعليه فإن أعطاه ما يسرُّ نفسه من رخاء ونحوه وظَّف ذلك فيما يرضيه سبحانه، شكرًا له على هذا العطاء ليدوم، بل ليزيد، فكان ذلك خيرًا له، وأي خير، وإن ابتلاه بما يسوءه من شدة ونحوها، عمل على دفع ذلك بما يملك من أساليب ووسائل لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، ومتحليًا بالصبر والتحمّل، فيظفر برضا الله المتمثل في الأجر والمثوبة دنيا وأخرى، فكان ذلك أيضًا خيرًا له، وأي خير.

والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن لَفْتَ النظر إلى هذه الحقيقة من خلال حمل المخاطب والسامع، على الاستغراب والتعجب من حال المؤمن، حيث هي خير محض، إن كانت سراءَ كان معها الشكر، وإن كانت ضراء كان معها الصبر، وفي كلٍّ الأجر والمثوبة، وذلك لا يكون لأحد من المكلفين إلا المؤمن، لما يتمتع به من إيمان صحيح، ويقين صادق، انتهيا به إلى أن تكون حياته دائرة بين الشكر والصبر.

ولكي تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب:

الجانب الأول: أبرز سمات المؤمنين كما جاءت في الحديث، وفي نصوص أخرى.

الجانب الثاني: ماهية المؤمن الموسوم بالسمات المذكورة آنفًا، وطريق إيجاد هذا المؤمن.

الجانب الثالث: ماهية الشكر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلِّي به.

الجانب الرابع: ماهية الصبر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلِّي به.

ودونك البيان:

الجانب الأول: أبرز سمات المؤمنين كما جاءت في الحديث، وفي نصوص أخرى:

للمؤمن سمات يُعرف بها، جاء بها الحديث ونصوص أخرى، وأبرزها:

١ - **الشكر في السَّرَّاء، والصبر في الضَّرَّاء**، لقوله ﷺ: «إنْ أصابتهُ سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له».

٢ - **تأمين الناس على دمائهم وأموالهم**، لقوله ﷺ: «والمؤمن مَنْ أَمِنَهُ الناس على دمائهم، وأموالهم»[1].

---

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب الإيمان: باب ما جاء في أنَّ المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، ص ٥٩٧ رقم ٢٦٢٧، **والنسائي** في: السُّنن: كتاب =

ولقوله أيضًا: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[1].

٣. **عدم موالاة مَنْ يحادُّون الله ورسوله والمؤمنين**، ولو كانوا ذوي قربى، لقوله سبحانه:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

٤. **امتثال حكم الله ورسوله**، ولو كان خلاف هوىٰ النفس، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...﴾ (النور: ٥١).

وقوله سبحانه:

=الإيمان: باب صفة المؤمن، ص ٦٨٦ رقم ٤٩٩٨ كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وأوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده...»، وعقّب الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن جابر، وأبي موسىٰ، وعبدالله بن عمرو بن العاص»، **وأخرج ابن ماجه** نحوه: كتاب الفتن: باب حرمة دم المؤمن، وماله، ص ٥٦٥ رقم ٣٩٣٤ من حديث فضالة بن عبيد مرفوعاً بلفظ: «المؤمن مَنْ أمنه الناس علىٰ أموالهم، وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا، والذنوب».

(١) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الأدب: باب إثم مَنْ لا يأمن جارُه بوائقه، ص ١٠٥٢ رقم ٦٠١٦ من حديث أبي شريح مرفوعاً بهذا اللفظ، **وأخرج مسلم** نحوه: كتاب الإيمان: باب بيان تحريم إيذاء الجار، ص ٤١ رقم ١٧٢ / ١٧٣ من حديث أبي هريرة مرفوعاً، ومعنىٰ (بوائقه) أي: شرُّه، انظر: المعجم الوجيز، ص ٦٧.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ... ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وقوله سبحانه:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

٥ - **وجل القلوب عند ذكر الله**، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته سبحانه، لقوله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا... ﴾ (الأنفال: ٢).

٦ - **التوكل على الله** بالأخذ بالأسباب البشرية قدر الطاقة والإمكان، مع الاعتماد التام على الله، والاستعانة به قبل الأسباب وبعد الأسباب لقوله سبحانه:

﴿ ... وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

٧ - **إقام الصلاة، والإنفاق مما رزق الله**، لقوله سبحانه:

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

٨ - **الإيمان بالله، وملائكته، وجميع كتبه، وكل رسله من غير فرق، وكذلك الإيمان باليوم الآخر**، لقوله سبحانه:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

٩ ـ **موالاة المؤمنين والمؤمنات** بالإيواء، والنصرة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونحو ذلك، لقوله سبحانه:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾ (التوبة: ٧١).

وقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا... ﴾ (الأنفال: ٧٤).

١٠ ـ **الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال**، لقوله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾ (الحجرات: ١٥).

١١ ـ **التنزه عن اللغو**، لقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣).

١٢ ـ **حفظ الفروج إلا عما أحلَّ الله لهم**، لقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥ـ٧).

١٣ ـ **أداء الأمانات، ورعاية العهود**، لقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨).

١٤ ـ **الصدق مع الله**، لقوله سبحانه:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

١٥ ـ **إكرام الضيف، وحُسن الجوار، والصمت إلا عن الخير**، لقوله ﷺ: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

١٦ ـ **محبة الخير للمؤمنين محبته لنفسه**، لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»(٢).

١٧ ـ **الحياء**، لقوله ﷺ: «. . . والحياء شعبة من الإيمان»(٣).

١٨ ـ **التواضع**، لقوله ﷺ: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كِبر»(٤).

١٩ ـ **محبة لقاء الله والفرح بذلك**، لقوله ﷺ: «المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله، ورضوانه، وجنته أحبَّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه. . .»(٥).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ص ١٠٥٢ رقم ٦٠١٨، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الحث على إكرام الجار، والضيف. . . ص ٤١ رقم ١٧٤ / ٧٥، كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ص ٥ رقم ١٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن مِنْ خصال الإيمان أن يحبَّ لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، ص ٤١ رقم ١٧٠ ـ ١٧١ / ٧١ ـ ٧٢ كلاهما من حديث أنس بن مالك مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٣) الحديث جزء حديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب أمور الإيمان، ص٥ رقم ٩، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان عدد شُعب الإيمان، ص٣٨ ـ ٣٩ رقم ١٥٢ ـ ١٥٣ / ٥٧ ـ ٥٨ كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، ولفظه: «الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

(٤) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب تحريم الكبر وبيانه، ص ٥٤ رقم ٢٦٥ ـ ٢٦٧ / ١٤٧ ـ ١٤٩ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به.

(٥) الحديث جزء حديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: باب مَنْ أحبَّ =

٢٠ ـ **الإشفاق على نفسه من ذنوبه**، لقوله ﷺ: «المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه تحت جبل يخاف أن يقع عليه. . . الحديث»(١).

٢١ ـ **القناعة، أو الرضا بالقليل**، لقوله ﷺ: «المؤمن يأكل في معيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(٢).

٢٢ ـ **الفرح بالحسنة عند اقترافها، والحزن للمعصية لدى ارتكابها**، لقوله ﷺ: «مَنْ سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»(٣).

٢٣ ـ **الغيرة على دماء المسلمين، وأموالهم، وأعراضهم، وسائر حرماتهم**، لقوله ﷺ: «المؤمن يغار للمؤمن، والله أشدُّ غيراً»(٤).

= لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه. . . ص ١١٦٨ رقم ٦٨٢٢ / ١٥، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب الجنائز: باب ما جاء فيمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ص ٢٥٧ رقم ١٠٦٧ كلاهما من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً، وعقَّب عليه الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الدعوات: باب استغفار النبيِّ ﷺ في اليوم والليلة ٨/ ٨٣ ـ ٨٤، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٦٥٨ رقم ٢٤٩٧، **وأحمد** في: المسند ١/ ٣٨٣ كلهم من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، ولفظه: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مرَّ علىٰ أنفه، فقال به هكذا».

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأطعمة: باب المؤمن يأكل في معيٍّ واحد ٧/ ٩٢ ـ ٩٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الأشربة: باب المؤمن يأكل في معيٍّ واحد ٣/ ١٦٣١ ـ ١٦٣٢ من حديث ابن عمر، وجابر، وأبي موسىٰ ـ رضي الله عنهم ـ مرفوعاً، واللفظ لمسلم.

(٣) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في لزوم الجماعة، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ رقم ٢١٦٥ من حديث ابن عمر، قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيها الناس إني قمتُ فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال: «أوصيكم بأصحابي. . .»، وفي آخره: «مَنْ سرته حسنته، وساءته سيئته، فذلكم المؤمن»، وعقَّب بقوله: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٤) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب التوبة: باب غيرة الله تعالىٰ، وتحريم =

٢٤ ـ **التـرفع عن أذى الغيـر بطعن أو لعن، أو سبٍّ ونحـو ذلك**، لقـوله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء»(١).

٢٥ ـ **الإفادة من العثرات**، لقوله ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين»(٢).

٢٦ ـ **الكرم في كلِّ شيءٍ حتى في الخصومة**، لقوله ﷺ: «أعفُّ الناس قِتْلةً أهلُ الإيمان»(٣).

٢٧ ـ **معرفة الفضل لذوي الفضل**، لقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠).

٢٨ ـ **الإفادة من كلِّ نافعٍ** بغضِّ النظر عن مصدره مادام لا يتعارض مع

=الفواحش، ص ١١٩٧ رقم ٦٩٩٩ / ٢٧٦١ / ٣٨، **وأحمد** في: المسند، ص ٥٤٧ رقم ٧٢٠٩، ص ٥٩٧ رقم ٧٩٨١، ص ٦٩٧ رقم ٩٦٤٠ كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً.

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء في اللعنة، ص ٤٥٨ رقم ١٩٧٧، **وأحمد** في: المسند، ص ٣٢٨ رقم ٣٨٣٩، ص ٣٣٦ رقم ٣٩٤٨ كلاهما من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، وعقّب الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن غريب، وقد رُوي عن عبدالله من غير هذا الوجه».

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ص ١٠٦٨ رقم ٦١٣٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الزهد: باب لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، ص ١٢٩٥، رقم ٧٤٩٨ / ٦٣ / ٢٩٩٨ كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً.

(٣) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الجهاد: باب في النهي عن المثلة، ص ٣٨٥ رقم ٢٦٦٦، **وابن ماجة** في: السُّنن: كتاب الديات: باب أعفُّ الناس قِتْلَةً أهل الإيمان، ص ٣٨٦ رقم ٢٦٨١، **وأحمد** في: المسند، ص ٣٢٠ رقم ٣٧٢٨، ٣٧٢٩ كلهم من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً.

مبادئ الشرع الحنيف، لقوله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها»(١).

٢٩. التوسط والاعتدال في كلِّ شيء، لقوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا... ﴾ (الفرقان: ٦٧).

٣٠. الاستقامة، لقوله سبحانه:

﴿ ...فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ... ﴾ (فُصِّلت: ٦).

إلى غير ذلك من أبرز سمات المؤمن التي جاء بها الحديث، ونصوص أخرى.

وجِماع ذلك كله: تنفيذ كلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة قدر الطاقة، والإمكان، واجتناب كلِّ ما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال، والأفعال الظاهرة والباطنة.

الجانب الثاني: ماهية المؤمن الموسوم بالسمات المذكورة آنفًا، وطريق إيجاد هذا المؤمن:

المؤمن الموسوم بالسِّمات المذكورة آنفًا هو العارف بربِّه معرفة تحمله على موالاته وحده، وموالاة من أذن بموالاته، والتبرؤ من كلِّ ما سواه، مع النزول على حكمه - سبحانه - في كلِّ ما يأتي، وما يدع من الأقوال والأفعال: الظاهرة والباطنة، قال تعالى:

---

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص ٦١٠ رقم ٢٦٨٧، **وابن ماجة** في: السُّنن: كتاب الزهد: باب الحكمة، ص ٦٠٨ رقم ٤١٦٩، كلاهما من حديث إبراهيم بن الفضل، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً، وعقّب الترمذي بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي ضعيف في الحديث مِنْ قِبل حفظه».

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٦٢ـ٦٣).

قال القرطبي: «المؤمن هنا: هو العالم بالله، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده»[1].

وطريق إيجاد هذا المؤمن:

١ـ **دوام النظر في آيات الله** في الكون، وفي النفس، كيف خلقها الله على غير مثال سبق، وكيف نظمها بدقة وإحكام، وكيف هدى كلاً لما خلق، فإن النظر يقود إلى اليقين أن مَنْ يفعل ذلك كله فإنما لعلمه المحيط، وقدرته التامة، ومشيئته المحكمة، وحينئذٍ لا يكون إلا التسليم، والتعامل مع كلِّ قَدَرٍ بما يناسبه من الشكر في السرَّاء، والصبر في الضرَّاء، والمدافعة، والاحتساب إلى أن يقض الله أمرًا كان مفعولاً، قال تعالى:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ (الذاريات: ٢٠ـ٢١).

٢ـ **المعايشة الدائمة والطويلة لكتاب الله ـ عزّوجلّ ـ** وسنة رسوله محمد ﷺ فإن فيهما تعريفًا حقيقيًا بالله، وبما ينبغي له من الكمالات، والتنزه عن كلِّ نقص، ومن ذلك استحالة أن يقضي لعبده قضاءً مجردًا عن الحكمة، وإن جهلنا ماهية هذه الحكمة، وأن هذه الحكمة بسرائها وضرائها هي الخير كله، وصدق الله الذي يقول:

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

ويقول أيضًا:

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ٦/ ٦٣٠.

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١٦).

٣. **إنعام النظر في أقضية إلهية وقعت**، وقابلها أهلها بما ينبغي بما شرع الله، فكان الخير كله، مثل قضائه على يعقوب ويوسف بما نعرف، وكيف قابل يعقوب ويوسف ذلك بالتقوى والصبر، فكان النصر، والتمكين، وصدق ربُّ العزَّة، إذ قال:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يوسف: ٥٦-٥٧).

وإذ قال حكاية عن يوسف قوله لإخوته:

﴿ ... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠).

ومثل قضائه لسليمان بالنعمة مُطْلِقًا يَدَهُ التصرف فيها كيف يشاء فيقول:

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص: ٣٩).

فيخاف، ويرى ذلك ابتلاء ما بعده ابتلاء، فينقلب موظفًا هذه النعمة في مرضاة الله، مُقرًّا له بالفضل، ووجوب الشكر، وفي ذلك يقول ربُّ العزّة:

﴿ ... فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠).

ومثل قضائه خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار بلا ثمن على يد الخضر، وكيف كشف التأويل حكمة ذلك، وما تضمنه من خير لم يكن لأحد علمه إلا الله.

ومثل قضائه لنبيِّه محمد ﷺ صلح الحديبية، وكان نفرٌ من المسلمين أشدَّ

الناس كراهية له، وكيف أثمر ذلك فتح مكة بعدُ، حتى سمَّاه ربُّ العزة فتحًا، لكونه كان السبيل لهذا الفتح، وفي ذلك يقول:

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ٢٧).

٤. **اتخاذ حزب يومي يُتلى في الصباح والمساء** يحوي آيات العلم والإحاطة الإلهية بكل شيء، كقوله سبحانه:

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (الأنعام: ٣).

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٥-٦).

وقوله سبحانه: ﴿ ... إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (هود: ٥).

وقوله سبحانه: ﴿ ...وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ... ﴾ (الأحزاب: ٥١).

إلى غير ذلك من آيات العلم الإلهي، التي إذا واظب المرء على تلاوتها صباح مساء في كلِّ يوم، فإنها تبني في داخله يقينًا كاملاً بإحاطته سبحانه بكل الأمر الذي يثمر التسليم بكلِّ ما قضى وقدَّر، ويحمله على الشكر في السَّرَّاء، والصبر في الضَّرَّاء.

٥. **تدبر بعض الحوادث اليومية التي وقعت**، وما علم بها أحد إلا أصحابها وكشفها الله للناس، ومنها حادثة حاطب بن أبي بلتعة، الذي كتب سرًّا إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ لهم، وضرورة الاستعداد، وكشف الله ذلك لنبيِّه بقرآن مازال يُتلى إلى آخر الزمان، ويرسم فيه معالم التعامل مع الكفار.

فيقول سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾

(الممتحنة: ١ ـ ٦).

ومنها حادثة النبي ﷺ مع زيد بن حارثة، وقد قال شيئًا لزيد، وأخفى خلافه، فأظهر الله ذلك بقوله:

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ... ﴾

(الأحزاب: ٣٧).

إلى غير ذلك من الحوادث اليومية الناطقة بعلمه ـ سبحانه ـ علمًا محيطًا، والتي إذا تدبَّرها المرء باستمرار قادته إلى اليقين بأنه سبحانه يعلم السرَّ وأخفى، وأنه لا أجمل ولا أحسن، ولا أكرم مما قدره، وقضاه سبحانه وتعالى.

الجانب الثالث: ماهية الشكر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلّي به:

الشكر لغة: له معانٍ منها:

١ ـ عرفان الإحسان ونشره، تقول: شكرتُ فلانًا: عرفتُ إحسانه ونشرتُه.

٢ ـ الثناء على الغير للمعروف، تقول: شكر فلان فلانًا: أثنى عليه لمعروفه.

٣ ـ الرضا باليسير، تقول: فرس شكور: إذا كفاه لسمنه العلف بالقليل.

٤ ـ الامتلاء: تقول: عين شكري: ممتلئة[١].

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ هو شغل الوقت كله بالاعتراف بالجميل ونشره بكل الأساليب، والوسائل الممكنة، وإن كانت بسيطة أو محدودة.

الشكر اصطلاحًا: ذكر العلماء في معنى الشكر اصطلاحًا عدة تعاريف، من أهمها:

قول ابن القيم: «الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا، وعلى جوارحه انقيادًا، وطاعة»[٢].

ولخّص هذا التعريف الفيروزآبادي بقوله: «هو الاعتراف بنعمة المُنعِم على وجه الخضوع»[٣].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٢٠٧، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص٢٦٥، والصحاح للجوهري ٢/ ٧٠٢ـ٧٠٣، ولسان العرب ٤/ ٢٣٠٥ـ٢٣٠٨ بتصرف.

(٢) انظر: مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤.

(٣) بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٣٩.

صور الشكر:

والشكر على ما جاء في تعريف ابن القيِّم صور، وأنواع هي:

١. **شكر القلب:** وهو تصور النعمة، وشهودها.

٢. **شكر اللسان:** وهو الثناء على المنعم، والاعتراف بنعمته.

٣. **شكر الجوارح:** وهو الخضوع، والانقياد، والطاعة بترك ما يبغضه الله، ولا يرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وفعل ما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة كذلك[1].

منزلة الشكر:

للشكر منزلة رفيعة في دين الله تتمثل في:

١. **وصف الله نفسه به** في قوله: ﴿ ..وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧).

٢. **وصف الله اثنين من عباده** من أولي العزم من الرسل به، إذ قال عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣).

وإذ قال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢١).

٣. **صلته الوثيقة بكل خُلُقٍ حميد**، خاصة: الصَّبْر، حتى قال نفرٌ من العلماء: «الصبر يستلزم الشكر، ولا يتم إلا به، وبالعكس، فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه الشكر، والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر، والشكر، أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله في تلك البلّية، فإن لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء»[2].

---

(١) المفردات، ص ٢٦٥-٢٦٦ بتصرف.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٣١١.

وقال ابن القيِّم: «كلّ ما يلقى العبدُ في هذه الدار لا يخلو من نوعين: **أحدهما**: يوافق هواه ومراده، **والآخر**: لا يوافقه، وهو محتاج إلى الصبر في كلٍّ منهما، فإنه مختبر ومُمتحن، **النوع الأول**: الموافق لغرضه، فكالصحة، والسلامة، والجاه، والمال، وأنواع الملاذّ المباحة، وهو أحوج بشيء إلى الصبر فيها من وجوه: **أحدها**: ألا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر، والأشر، والفرح المذموم الذي لا يُحبُّ الله أهله، **والثاني**: ألا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، **والثالث**: أن يصبر على أداء حقّ الله فيها، ولا يضيّعهُ فيسلبها، **والرابع**: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فإن احترز كلَّ الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السرّاء إلا الصدّيقون»(1).

٤- أنه يكون سبباً في مغفرة الذنوب، وحسن الأجر والمثوبة، قال تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧).

وقال تعالى: ﴿...وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

٥- أنه قليلٌ فاعلوه، قال تعالى:

﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

٦- أنه به تدوم النعم بل تزيد وتُبارك، قال تعالى:

﴿...لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (إبراهيم: ٧).

٧- أنه يكون سبباً في رضا الله عن صاحبه، ومَنْ رضي الله عنه فقد فاز فوزاً عظيماً، إذ يقول ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»(2).

---

(1) انظر: عدة الصابرين، ص ٦٤-٦٦.

(2) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب حمد الله=

٨. **أنه مأمور به** في قوله سبحانه :

﴿ ... وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥٢).

وفي قوله سبحانه : ﴿ ...بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦).

سبيل التحلّي بالشكر:

لا سبيل للتحلّي بالشكر إلا بمراعاة ما يلي :

١. **أن يتذكر المسلم أن الله أمر به**، وكذلك الرسول ﷺ، وليس على المسلم أمام أمر الله، والرسول، إلا الخضوع والانقياد ظاهراً وباطنًا، إذ يقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور: ٥١، ٥٢).

٢. **استحضار أنّ له منزلة رفيعة في دين الله**، ومكانة عالية، فإن المرء إذا أيقن منزلة الشيء ومكانته، أقبل عليه بما لديه من طاقات وإمكانات.

٣. **رؤية النعم التي تغمر المرء من أعلاه إلى أدناه**، بل وتحيط به من كلّ جانب، وما أجمل لو كانت هذه الرؤية للنعمة واحدة تلو الأخرى، إنها حينئذٍ تجعل المرء يدرك عظمة ما أسداه ربه إليه، وأقلّ ما يصنعه أن يشكر المنعم بكليته: قلبًا، ولسانًا، وجوارح بما لا يتعارض مع ما في الشرع الحنيف، وقد دعا ربُّ العزَّة ـ سبحانه ـ إلى المواظبة على هذه الرؤية، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ... ﴾ (فاطر: ٣)، ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (المائدة: ٧).

=تعالى بعد الأكل والشرب، ص ١١٨٥ ـ ١١٨٦ رقم ٢٧٣٤ / ٦٩٣٢ من حديث أنس بن مالك مرفوعاً به.

٤ ـ معايشة الشاكرين من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، لاسيَّما ساعات الشدة والمحنة، فإن هذه المعايشة إن كانت صادقة تولد الاقتداء والتأسِّي، أو على الأقل المحاكاة والمشابهة، حسبنا موقفه ﷺ بعد الانتهاء من غزوة أحد، إذ مع ما أصابه من جراحات، ونزف دم، وكسر لرباعيته، ومع ما أصاب أصحابه من قتل سبعين، وجرح الكثيرين، وقطع بعض أطرافهم، مع ذلك كله لم ينس شكر ربِّه على اللطف فيما قضى له ولأصحابه، فقال لهم بعد انتهاء المعركة: «اصطفوا لأثني على ربِّي»، وقال كلمات جدير بكل مسلم أن يحفظها، ولا يكفَّ عن تلاوتها خاصة في ساعات الشدائد، والمحن، ونصها:

« اللهم لك الحمدُ كلَّهُ، اللهم لا قابض لما بسطتَ، ولا باسطَ لما قبضتَ، ولا هاديَ لما أضللتَ، ولا مُضلَّ لما هديتَ، ولا مُعطيَ لما منعتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُقرِّبَ لما باعدتَ، ولا مباعدَ لما قرَّبتَ، اللهم ابسط علينا بركاتك ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول، ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم القَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إنِّي عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا، وشرِّ ما منعتَ، اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان، وزَيِّنْهُ في قلوبنا، وكَرِّهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهمَّ توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يُكَذِّبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحقِّ»(١).

---

(١) الحديث **أخرجه الحاكم** في: المستدرك ١/ ٥٠٦، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرِّجاه»، وقال الذهبي: «لم يخرجا لعبيد وهو ثقة، والحديث مع نظافة إسناده منكر»، **وأخرجه أيضاً** ٣/ ٢٣ من طريق آخر وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقرّه الذهبي، **وأورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد ٦/ ١٢٢، وقال: «رواه أحمد، والبزار، واقتصر على عبيد بن رفاعة، عن أبيه، وهو الصحيح... ورجال أحمد رجال الصحيح».

٥ـ **الدعاء المستمر بالتوفيق للشكر**، والإعانة عليه، فإن صدق الدعاء تكون مع الإجابة، وَعْدَ الله حقًا.

عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «يامعاذ، والله إنِّي لأُحبُّك، والله إنِّي لأُحبُّكَ، فقال: أوصيك يا معاذ لاتدعنَّ في دُبرِ كلِّ صلاةٍ تقول: اللهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنَ عبادتك»(١).

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يقول في صلاته: «اللهمَّ إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شعر نعمتك، وحُسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذُ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم»(٢).

الجانب الرابع: ماهية الصبر، وصوره، ومنزلته، وسبيل التحلِّي به:

ماهية الصبر لغة وشرعًا:

لغة: يأتي الصبر في اللغة على معان، منها:

١ ـ الشدة والقوة، تقول: لقيتُ الأمور بأصبارها، أي: بشدَّتها، وقوتها.

---

(١) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الصلاة: تفريع أبواب الوتر: باب في الاستغفار، ص ٢٢٥ رقم ١٥٢٢، **والنسائي** في: السنن: كتاب السهو: باب الدعاء بعد الذكر ـ نوع آخر من الدعاء، ص ١٨٢ رقم ١٣٠٤، **وأحمد** في: المسند ٥/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ كلهم من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به.

(٢) الحديث بهذا اللفظ **أخرجه النسائي** في: السنن: كتاب السهو: باب الدعاء بعد الذكر: نوع آخر من الدعاء، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ رقم ١٣٠٥، **والترمذي** بنحوه في السنن: كتاب الدعوات: باب منه [دعاء: اللهم إنِّي أسألك الثبات في الأمر]، ص ٧٧٧ رقم ٣٤٠٧، **وأحمد** في: المسند ٤/ ١٢٣، ١٢٥ رقم ١٧٢٤٣، ١٧٢٦٣، كلهم من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، وعقَّب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه».

٢ ـ الجمع والضم، تقول: صبر على الأمر، أي: جمع نفسه وضمها عن الهلع.

٣ ـ الحبس، تقول: صبرتُ الدابَّة: حبستها بلا علف، وصبر فلان عند المصيبة صبراً، أي: حبس نفسه عن الجزع[١]، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨)، أي: احبس نفسك معهم.

شرعاً:

جاءتْ عن العلماء تعريفات كثيرة للصبر، منها:

١ ـ وقف النفس على ما يحبُّه الله ويرضاه، يعني: من الأفعال والأقوال التركية والفعلية، الظاهرة والباطنة.

٢ ـ الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

٣ ـ حبس النفس على ما تكره ابتغاء وجه الله، وطمعاً في مرضاته[٢] ومضمونها جميعاً واحد، وإن اختلفت الألفاظ والعبارات، كأنه: عزيمة صادقة، وهمَّة عالية، وإرادة قوية تحمل على جمع النفس وحبسها على وفق مراد الشرع، أو على كلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال: التركية، والفعلية، الظاهرة، والباطنة، ابتغاء وجهه سبحانه، وطمعاً في مرضاته.

أسماؤه:

للصبر أسماء كثيرة، مآلها اتحاد المعنى والمضمون، وإن اختلفت الألفاظ، نذكر منها:

---

(١) انظر: الصحاح للجوهري ٢/ ٧٠٦، ٧٠٧، ومعجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٢٩، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٤٣٨، مادة: «صبر» بتصرف كثير.

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٢٧٣، ومدارج السالكين ٢/ ١١٩، ١٢٠، ١٢٣ بتصرف كثير.

١ ـ الشجاعة ، وهي : حبس النفس في القتال والمحاربة .

٢ ـ الكتمان، وهي: حبس النفس في صون الكلام وعدم البوح به إلا لأهله

٣ ـ القناعة أو الزهد، وهو : حبس النفس عن فضول العيش .

٤ ـ العفّة، وهي : حبس النفس عن شهوة الفرج غير المشروعة .

٥ ـ الحلم، وهو : حبس النفس عن إجابة دواعي الغضب في غير محله[١] .

مراتب الصبر ومنزلة كلٍّ منها :

للصبر مراتب هي :

١ ـ الصبر على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ .

٢ ـ الصبر عن معصية الله ـ عزَّ وجلَّ .

٣ ـ الصبر على قدر وقضائه دون تبديل أو تغيير[٢] .

ولاشك أن أكمل هذه المراتب وأرفعها إنما هو الثالث، لأن الإنسان قد يترك المعصية زمانًا مّا ، وكذلك قد يفعل الطاعة زمانًا مَّا، ولكن أن يستمر على ذلك إلى آخر الزمان مع الرضا بقدر الله وقضائه دون تغيير أو تبديل، فهو دليل صدق العزيمة، وعلوّ الهمَّة، وقوة الإرادة والطمع في رضا الله ومثوبته .

كما لاشك أن الصبر على الطاعة أكمل من الصبر عن المعصية لأن الجهد المبذول في الصبر عن المعصية هو مجرد الترك وهو وإن كان شاقًّا إلا أن الأشق منه هو بذل الجهد في الطاعة .

مراتب الصابرين :

للصابرين مراتب هي :

---

(١) انظر : المفردات للراغب، ص ٢٧٣ ، بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٣/ ٣٨٣ بتصرف .

(٢) انظر : مدارج السالكين ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٧ بتصرف كثير .

١ ـ المتصبر ، وهو الذي يتكلف الصبر ويعمل على حمل نفسه عليه .

٢ ـ المصطبر ، وهو الذي اكتسب الصبر فصار سجيّة له وخُلُقاً .

٣ ـ الصبور ، وهو العظيم الصبر بحيث يفوق صبره صبر غيره[١] ، وعرّفه أبو حامد الغزالي بقوله : «الصبور هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزّل الأمور بقدرٍ معلوم ، ويجريها على سُنَنٍ محدودة ، لا يؤخرها عن آجالها المقدرة لها ، ولا يقدمها على أوقاتها ، بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي»[٢] ، وهذا هو صنيع الحكيم .

٤ ـ الصبَّار ، الكثير الصبر ، كأنه قد روعي في تعريف : الصبور : الوصف ، والكيف ، وقد روعي في تعريف الصبَّار : القدر والكم .

٥ ـ الصابر ، وهو الوصف العام أو الجامع لكل ما تقدم[٣] .

فوائد الصبر وثمراته :

للصبر فوائد جمّة ، وثمرات عظيمة تتمثل إجمالاً في : محبة الله للصابرين ومعيتهم .

قال تعالى : ﴿ ... وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٦) .

وقال تعالى : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ١٥٣) .

وقال تعالى : ﴿ ... وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

أما تفصيلاً ، فتتمثل في :

---

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٧٨ .

(٢) انظر : المقصد الأسنى ، ص ١٤٩ .

(٣) انظرك بصائر ذوي التمييز ، ٣/ ٣٧٨ .

١ ـ **عدم الاستجابة للمثيرات** التي يحاول بها الأعداء جرّ المسلمين إلى معارك جانبية تبدد طاقتهم، وتشغلهم عن هدفهم الأسمى، وغايتهم الكبرى، وقد تكون أصيلة ولكن الواقع يأباها، ولا يسمح بها.

قال تعالى: ﴿... وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦)

٢ ـ **مغفرة الذنوب، والهداية إلى الرشاد**، قال تعالى:

﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ـ١٥٧).

يقول الألوسي: «الصلاة في الأصل ـ على ما عليه أكثر أهل اللغة ـ الدعاء، ومن الله تعالى: الرحمة، وقيل الثناء، وقيل التعظيم، وقيل المغفرة»[١] ثم يرجح بالدليل: أن المراد بالصلوات: المغفرة[٢].

٣ ـ **النجاة من مكائد الأعداء، ومؤامراتهم**، قال تعالى:

﴿... وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

٤ ـ **الظفر بالمدد الإلهي**، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ...﴾ (آل عمران: ١٢٥).

٥ ـ **التمكين في الأرض، والإمامة في الدين**، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

(١، ٢) انظر: روح المعاني ٢/ ٢٣، المجلد الأول.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٣٧).

٦. **الظفر بعقبى الدار من الجنة** وما فيها من الراحة، والنعيم المقيم، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٠-٢٤).

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٧٥-٧٦).

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٢).

٧. **حماية غير المسلمين** من الاستمرار في كفرهم وغيّهم، إذ عدم صبر المسلم يُلقي في روع غير المسلمين أن المسلمين على الباطل، وإلا لما انهاروا، فيستمرون على كفرهم، وصدق الله:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٠).

٨. **التمكن من إنجاز الأعمال** واحداً بعد الآخر بلا يأس ولا قنوط، إذ مضت سنة الله في خلقه، أن إنجاز أي عمل يحتاج إلى وقت وطاقة، وإمكانات، ولا يتم شيء من ذلك إلا بالصبر.

سبيل التحلّي بالصبر :

إن السبيل للتحلّي بالصبر تتمثل في :

١ ـ استحضار العبد أنه مأمور به من قِبَل الله ورسوله، إذ يقول الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ... ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

ويقول تعالى : ﴿ ...وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٤٦) .

وإذ يقول النبي ﷺ : « . . . فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض »[١] .

وإذا كان الصبر مأموراً به من الله ورسوله ، فليس علىٰ المسلم الصادق سوىٰ الامتثال ، لقوله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٥١) .

٢ ـ تذكّر أن من أسماء الله الحسنىٰ : « الصبور »، يعني : الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام ، فقد جاء في الحديث : « ليس أحد ـ أو ليس شيء ـ أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليعافيهم ، ويرزقهم »[٢] ،

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب مناقب الأنصار : باب قول النبي ﷺ للأنصار : « اصبروا حتىٰ تلقوني على الحوض » ص ٦٣٦ رقم ٣٧٩٢ ، وكتاب الفتن : باب قول النبي ﷺ : « ستَرون بعدي أموراً تنكرونها » ، ص ١٢١٧ رقم ٧٠٥٧ ، **ومسلم** في : الصحيح : كتاب الإمارة : باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة ، واستئثارهم ، ص ٨٢٩ رقم ٤٨ / ٤٧٧٩ (١٨٤٥) كلاهما من حديث أسيد بن حضير مرفوعًا به ، **وأحمد** في : المسند ٣ / ١١١ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، رقم ١٢١٠٩ ، ١٢٧٣٦ ، ١٢٧٧٩ ، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به .

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب الأدب : باب الصبر في الأذىٰ ، ص ١٠٦٤ رقم ٦٠٩٩ وكتاب التوحيد : باب قول الله تعالىٰ : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ ص ١٢٦٩ رقم ٧٢٧٨ من حديث أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به .

وينبغي أن يكون نصيب العبد من هذا الاسم: التحلي بالصبر، والتحمل.

٣. **المعايشة الطويلة للنبيين من خلال قصصهم**، وكذلك أتباعهم من المجاهدين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وكيف أن الصبر كان دأبهم، وديدنهم، وأنهم نالوا بسببه أعلى الدرجات، وأرفع المنازل، ومكّن لهم في الأرض، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا... ﴾ (إبراهيم: ١٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠).

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

ذلك أن هذه المعايشة تحمل على الاقتداء والتأسي، أو على الأقل التشبه، والمحاكاة.

٤. **مجاهدة النفس**، وحملها حملاً على التحلّي بالصبر مع المواظبة على ذلك، فإن هذه المجاهدة تكون سببًا في منة الله على العبد بالصبر، لقوله ﷺ في الحديث: «... ومَنْ يصبر يُصبِّرْهُ الله... الحديث»[1]، ولقوله:

---

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب الاستعفاف عن المسألة، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ رقم ١٤٦٩، وكتاب الرقاق: باب الصبر عن محارم الله، ص ١١٢٢ رقم ٦٤٧٠، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل التعفف والصبر، والقناعة، والحث عن كلّ ذلك، ص ٤٢٣ رقم ١٢٤ / ٢٤٢٤ (١٠٥٣) كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

«. . . فمن صبر فله الصبر»[1].

٥ ـ **صحبة المعروفين بالصبر، والتحمل**، فإن ذلك من شأنه أن يقوِّي العزائم، ويسمو بالإرادات لتكون في مستوىٰ هؤلاء أو تقارب.

٦ ـ **تذكّر ثمرات الصبر وفوائده**، فإن ذلك من شأنه حمل النفس علىٰ التحلِّي بالصبر، والتحمل.

٧ ـ **استحضار أن غير المسلمين يصبرون**، وإذا كان هذا شأنهم فأولىٰ بالمسلمين أن يكونوا أصبر منهم، وأكثر تحملاً، قال تعالىٰ: ﴿ . . وَصَابِرُوا . . ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

٨ ـ **تعهد الآخرين للمرء**، وذلك بتكليفه بمهام بسيطة، ثم مركبة، وهكذا حتىٰ يصلب العود، ويقوىٰ الساعد، وتتربَّىٰ ملكة الصبر في النفس علىٰ نحو ما صنع الأنبياء والمرسلون مع المدعوين في سائر العصور، وفي كل البيئات.

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا:

١ ـ أن الإيمان أجلّ نعم الله علىٰ العباد، حسبه أنه يكون سببًا في إحاطة الخير بصاحبه في السرَّاء والضراء المتمثل في الأجر والثواب، والظفر بالجنة، وإذا كان هذا شأن الإيمان، فالمطلوب العض عليه بالنواجذ حتىٰ الممات، وقد لفت رب العزة النظر إلىٰ هذه النعمة بقوله سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

---

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٥/ ٤٢٧ رقم ٢٤٠٢٢، ٢٤٠٣٣، ٢٤٠٤١ من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به، **وأورده المنذري** في: الترغيب والترهيب ٤/ ٢٨٣، وعزاه إلىٰ أحمد في: المسند، وعقب بقوله: «ورواته ثقات»، **وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني** في: صحيح الجامع الصغير ١/ ١١٤، رقم ٢٨٥.

٢ ـ ضرورة مواجهة النعمة بالشكر لفوائده، وثمراته التي ذُكِرَتْ آنفًا، وقد مضت السبل التي تساعد على التحلِّي بهذا الشكر.

٣ ـ ضرورة مواجهة الشدة بالصبر لفوائده وثمراته، التي ذُكِرَتْ آنفًا، وقد مضت السبل التي تساعد على التحلِّي بهذا الصبر.

الحديث الثامن والثلاثون

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجَنَّة، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِب حتى يُكتب عند الله كذابًا».

تخريج الحديث:

الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وما ينهى عن الكذب، ص ١٠٦٣، رقم ٦٠٩٤، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة: باب قبح الكذب، وحسن الصدق، وفضله، ص ١١٣٨ رقم ٦٦٣٧ / ١٠٣ / ٢٦٠٧أ، ٦٦٣٨ / ١٠٤ / ٢٦٠٧ ب، ٦٦٣٩ / ١٠٥ / ٢٦٠٧ جـ، **والترمذيُّ** في: السُّنن: كتاب البرِّ والصِّلة: باب ما جاء في الصدق والكذب، ص ٤٥٧ رقم ١٩٧١، كلهم من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه، كما **أخرجه ابن ماجه** في: السُّنن: كتاب الدعاء: باب الدعاء بالعفو والعافية، ص ٥٥٠، رقم ٣٨٤٩ من حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «عليكم بالصِّدْق، فإنه مع البرِّ، وهما في الجنَّة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما في النار، وسلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

المعنى الإجمالي للحديث :

لا يستطيع المرءُ أداءَ رسالته، وواجبه في هذه الأرض وحده، وإنما لابدَّ له من عون ربِّه، وتأييده ونصره، ولا يعطي الربُّ عونَه عَبْدَهُ عطاءً خاصًّا، إلا بمطابقة ما يعتقد، وما يقول، وما يفعل، وهو المعبَّر عنه بالصِّدق، وتجنب التناقض الواقع بين الاعتقاد، والقول، والفعل، وهو المعبَّر عنه بالكذب بحيث يحمل التحليُّ بالصِّدْق، وتجنب الكذب على فعل كل برّ، والتحرر من كلِّ فجور فيحيا حياةً طيبةً في هذه الأرض لا ضيق فيها ولا ضنك، ويظفر غداً بالجنة بلا سابقة حساب ولا عذاب.

والحديث الذي نحن بصدد شرحه، وبيانه الآن يتضمن: الدعوة إلى التزام الصدق، وتجنب الكذب، وقد اقترنت هذه الدعوة ببيان عاقبة كلٍّ من الصدق والكذب، فالأول يهدي إلى البرِّ، والبرُّ يهدي بدوره إلى الجنة، والآخر يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، ولاشكَّ أنَّ المرءَ إذا أدرك ثمرة الصدق، وضرر الكذب إدراكًا يقينيًا عمل على التحلِّي بالصدق من كلِّ ما يصدر عنه من اعتقاد وقول، وعمل، والتحرر من الكذب في كل ما يصدر عنه من اعتقاد، وقول، وفعل كذلك، فيقول: «إن الصدق يهدي إلى البرِّ. . . . وإن الكذب يهدي إلى الفجور. . . ».

ولكي تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح، فإننا سنتناوله من هذه الجوانب:

الجانب الأول : ماهية الصدق، وصوره، ومكانته في الإسلام، وثمراته، وسبيل التحلِّي به.

الجانب الثاني : ماهية البرِّ، وصوره، ومكانته في الإسلام، وثمراته، وسبيل التحلي به.

الجانب الثالث : ماهية الكذب، وصوره، وموقف الإسلام منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه.

الجانب الرابع : ماهية الفجور، وصوره، وموقف الإسلام منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه.

وذلك على النحو التالي :

الجانب الأول : ماهية الصدق، وصوره، ومكانته في الإسلام، وثمراته، وسبيل التحلّي به:

ماهية الصدق لغة :

يأتي الصدق لغة على معانٍ، منها :

١ ـ قوة الشيء، وصلابته، تقول : هذا شيء صدق أي صُلْب، ورمح صدق أي قوي .

٢ ـ الكمال من كلِّ شيء، والجمع للأوصاف المحمودة، تقول : هذا صدق أي كمال، وجمع للأوصاف المحمودة .

٣ ـ مطابقة المخبر للمظهر، تقول : هذا صدق، أي مطابقة المخبر للمظهر[١] .

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ هو : قوة الشيء وصلابته بصورة تحمل على الجمع للأوصاف المحمودة التي لا يتعارض فيها المخبر مع المظهر .

ماهية الصدق اصطلاحًا :

ذكر العلماء تعريفات عدة للصدق اصطلاحًا، نذكر منها :

١ ـ الصدق : مطابقة القول الضميرَ، والمخبر عنه معًا[٢] .

٢ ـ الصدق : مطابقة الحكم للواقع، وهذا هو ضدُّ الكذب[٣] .

٣ ـ الصدق : ألا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب[٤] .

---

(١) انظر : لسان العرب ١٠/ ١٩٣ ، ١٩٦، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٢٧٧، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٣٣٩ بتصرف كثير .

(٢) انظر : المفردات للراغب، ص ٢٧٧ .

(٣) انظر : التعريفات للجرجاني، ص ١٣٢ .

(٤) انظر : أدب الدين والدنيا لأبي الحسن الماوردي، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

٤ ـ الصدق : استواء السرِّ والعلانية، والظاهر والباطن، بألاَّ تُكذِّب أحوالُ العبد أعماله، ولا أعمالهُ أحواله[١].

وكلُّ هذه التعريفات ينقصها أن تكون المطابقة لما يقع من العبد ظاهراً وباطنًا، قولاً وفعلاً غير متعارضة مع مبادئ الشرع الحنيف، ولذا يحسن أن يقال: «الصدق هو مطابقة ما يقع من العبد ظاهراً من قول أو فعل لباطنه بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف».

صور الصدق:

للصدق صور، نذكر منها:

١ ـ صدق اللسان: وهو الإخبار عن الأشياء على ما هي عليه إلا لمصلحة شرعية من خدعة حرب، أو إصلاح بين متخاصمين، أو إرضاء زوجة، ونحو ذلك، وقد نبَّه النبيُّ ﷺ بقوله: «اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم»[٢].

ولعلَّ خير نموذج يشرح هذه الصورة من الصدق: ما صدر عن كعب بن مالك في غزوة تبوك، إذ يقول كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك حضرني بثِّي[٣]، فطفت أتذكر الكذب، وأقول بم أخرج من سخطه غداً؟، وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا، زاح عنِّي الباطل، حتى عرفتُ أنه لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعتُ صدقه وصبَّح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر

---

(١) انظر: دليل الفالحين لابن علاَّن، ١/ ٢٠٢.

(٢) الحديث **أخرجه الحاكم** في: المستدرك: كتاب الحدود: باب ست يدخل بها الرجل الجنة ٤/ ٣٥٨ـ٣٥٩، وعقب عليه بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأيده الذهبي وقال: «فيه إرسال»، **وأخرجه أحمد** في: المسند ٥/ ٢٣٣، ٣٢٣، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٣) حضرني بثِّي، أي: أشدَّ حزني، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٥٩.

بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكَّل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلما سلمتُ تبسَّم تَبسُّمَ المغضبِ، ثم قال: «تعالَ»، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»[1]، قال: قلتُ يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جدلاً[2]، ولكنيِّ والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديث كذب ترضى به عنِّي ليوشكنَّ الله أن يُسْخِطَك عليَّ، ولئن حدثتُك حديث صدق تجد عليَّ فيه[3]، إني لأرجو فيه عقبى الله[4]، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ أقوى ولا أيسر منِّي حين تخلفتُ عنك، قال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»[5].

٢. صدق النيَّة والإرادة: وهو أن يكون باعث العبد في كل ما يصدر عنه في

---

(١) قد ابتعتَ ظهرك، أي: اشتريتَ راحلتك من الإبل، إذ الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركب، يقال: عند فلان ظهر، أي: إبل، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٥٩

(٢) ولقد أُعْطِيتُ جدلاً، أي: حجة، وقوَّة في الكلام، إذ من معاني الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة، المناظرة، والمخاصمة، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١٤٩.

(٣) فتجد عليَّ فيه: تغضب عليَّ فيه، يقال: وجد عليه يجد، وجدًا، وموجدةً أي: غضب، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ١٩٦.

(٤) إني لأرجو فيه عقبى الله: أن يعوِّضني الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خيرًا، وأن يثيبني عليه، انظر: لسان العرب لابن منظور: ١/ ٦٠٦ ـ ٦١٧ بتصرف.

(٥) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المغازي: باب حديث كعب بن مالك، وقول الله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾ ص ٧٤٩ ـ ٧٥٢ رقم ٤٤١٨، **ومسلم** في الصحيح: كتاب التوبة: باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ص ١٢٠٠ ـ ١٢٠٥ رقم ٧٠١٦/ ٥٣، ٧٠١٨ ـ ٧٠١٩/ ٥٤ ـ ٥٥ كلاهما من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك مرفوعًا به، وبنحوه.

حركاته، وسكناته، وسائر أحواله، إنما هو امتثال حكم الله ـ عزَّ وجلَّ، والطمع في مرضاته، وقد لفت النبي ﷺ النظر إلى هذه الصورة من الصدق بقوله: «مَن طلب الشهادة صادقًا أُعطيها، ولو لم تصبه»(١).

وفي رواية: «مَنْ سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٢).

وجاءت الترجمة العملية لهذه الصورة من الصدق في خبر أولئك المسلمين الذين تخلفوا عن حضور غزوة تبوك بعذر الفقر أو المرض من خلال حديثه ﷺ عن هؤلاء، إذ يقول جابر بن عبدالله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض»، وفي رواية: «إلا شركوكم الأجر»(٣)، وفي رواية لأنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: إن أقوامًا خَلْفَنا بالمدينة، ما سلكنا شعبًا، ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر»(٤).

وكذلك جاءت الترجمة في حديث الثلاثة الذين هم أول مَنْ يُقضى عليهم يوم القيامة، إذ يقول النبي ﷺ:

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، ص ٨٥٤ رقم ٤٩٢٩ / ١٥٦ / ١٩٠٨ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، ص ٨٥٤ رقم ٤٩٣٠ / ١٥٧ / ١٩٠٩، **وابن ماجه** في: السنن: كتاب الجهاد: باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى، ص ٤٠٤ رقم ٢٧٩٧، وأحمد في: المسند ٥/ ٢٤٤ كلهم من حديث سهل بن حُنَيْف ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

(٣) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض، أو عذر آخر، ص ٨٥٤ رقم ٤٩٣٢ / ١٥٩ / ١٩١١، ورقم ٤٩٣٣ من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٤) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المغازي: باب منه، ص ٧٥٣ رقم ٤٤٢٣، وكتاب الجهاد: باب من حبسه العذر عن الغزو، ص ٤٧٠ رقم ٢٨٣٩ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا.

« إن أول الناس يُقضىٰ عليه يوم القيامة: رجل استشهد، فَأُتِيَ به فعرفه نعمته، فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلْقِيَ في النار، ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمَه، وقرأ القرآن، فَأُتِيَ به فعرَّفه نعمه، فعرفها، فقال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم، وَعَلَّمْتُهُ، وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلمَ لِيُقال إنك عالم، وقرأتَ ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلْقِيَ في النار، ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به، فعرَّفَهُ نعمه، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ لِيُقالَ: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلْقِيَ به في النار»(١).

٣ ـ **صدق العزيمة والعمل**: وهو الإتيان بالعمل علىٰ النحو الذي يحب ربنا ويرضىٰ، مع المواظبة وعدم الانقطاع، وإليه الإشارة بقوله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا.. ﴾ (الحجرات: ١٥).

وقوله سبحانه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

وقوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

---

(١) الحديث **اخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب مَنْ قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ص ٨٥٢ ـ ٨٥٣ رقم ٤٩٢٣ / ١٥٢ / ١٩٠٥ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه.

وفي حياة الصحابة الكثير الذي يجسِّد هذا النوع من الصدق:

هذا شداد بن الهادي، يقول: جاء رجلٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فآمن به، واتبعه، فقال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ فقسمه، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم[1]، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسول الله ﷺ، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكنِّي اتبعتك على أن أُرمَى ههنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت، فأدخل الجنة، فقال: «إن تَصْدُق الله يَصْدُقْك»، ثم نهضوا إلى قتال العدوِّ، فأُتِيَ به رسول الله ﷺ يُحمل وقد أصابه سهمٌ حيثُ أشار، فقال النبيُّ ﷺ: «أهُوَ، هُوَ؟» فقالوا: نعم، قال: «صَدَقَ الله فَصَدَقَهُ»، ثم كفنه النبي ﷺ في جُبَّة النبي ﷺ ثم قَدَّمَهُ، فصلَّى عليه، وكان مما ظهر من صلاته عليه: «اللهم هذا عبدك، خرج مجاهداً في سبيلك فقُتِلَ شهيداً، وأنا شهيدٌ عليه»[2].

مكانة الصدق في الإسلام وثمراته:

للصدق مكانة رفيعة في الإسلام، حسبنا:

١ - أن الله أوجبه على كل مسلم، فقال سبحانه:

---

(١) ظهرهم: إبلهم التي يُحمل عليها، وتُرْكَب، يقال عند فلان ظهر: إبل، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٣/ ٥٩.

(٢) الحديث **أخرجه النسائي** في: السُّنن: كتاب الجنائز، وتمنِّي الموت: باب الصلاة على الشهداء ١/ ٦٣٤ - ٦٣٥ رقم ٢٠٨٠ / ١ قائلاً: «أنبأنا سويد بن نصر، قال: أنبأنا عبدالله ابن المبارك، عن ابن جريج، قال: أخبرني عكرمة بن خالد، أن ابن أبي عمار، أخبره عن شداد بن الهادي أن رجلاً من الأعراب . . .، وساق الحديث بنحوه، وعقَّب عليه بقوله: «ما نعلم أحداً تابع ابن المبارك على هذا، والصواب ابن أبي عمار، عن ابن شداد بن الهادي، وابن المبارك أحد الأئمة، ولعل الخطأ من غيره، والله أعلم»، **والحاكم** في: المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: باب ذكر شداد بن الهاد - رضي الله عنه - ٣/ ٥٩٥ - ٥٩٦ بنحوه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩).

كما أوجبه رسول الله ﷺ فقال: «اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم، أضمن لكم الجنَّة، اصدقوا إذا حدثتم... الحديث»(١).

وقال أبو سفيان في حديثه في قصة هرقل: قال هرقل: فماذا يأمركم؟ - يعني النبي ﷺ - قال أبو سفيان: قلتُ يقول: «اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة... الحديث»(٢).

٢ - أن الله وصف به نفسه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٨٧)، وقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢).

٣ - أن الله وصف به رسله، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٠)، وأن أهل القبور يقومون من قبورهم لله رب العالمين مقرين بأن هذا وعد الرحمن ودليل صدق المرسلين، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٠: ٥٢).

٤ - أن الله وصف به كتابه فقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران: ٣)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

٥ - أن الله جعله أبرز سمات الصالحين، فقال سبحانه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث جزء حديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب دعاء النبيِّ ﷺ إلى الإسلام والنبوة... ص ٤٨٥ - ٤٨٧ رقم ٢٩٤١ من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعًا.

تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣)، وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

٦- أن النَّبيَّ ﷺ جعل الصدق أساس كل بر، فقال: «عليكم بالصدق، فإنه مع البرِّ، وهما في الجنَّة...»[١]، وقال: «إن الصدق يهدي إلى البرِّ...»[٢].

٧- أن الله جعله سبب النجاة من أهوال يوم القيامة، بل والظفر بالجنة، إذ يقول سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩)، ويقول: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر: ٣٣-٣٥)،

ويقول النبي ﷺ: «ما من أحد يشهد ألاَّ إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ صادقًا من قلبه، إلا حرَّمه الله على النار»[٣].

٨- أن النبي ﷺ أخبر أن الصدق طمأنينة لكونه موافقًا الفطرة، وأن الكذب ريبة لكونه مصادمًا الفطرة، إذ قال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[٤].

(١، ٢) الحديثان سبق تخريجهما.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب العلم: باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهة ألا يفهموا، ص ٢٧-٢٨ رقم ١٢٨ من حديث أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ- ومعاذ رديفه على الرحل- قال: «يا معاذ... الحديث».

(٤) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب صفة القيامة باب حديث اعقلها وتوكل... ص ٥٧٢ رقم ٢٥١٨، **والنسائي** في: السُّنن: كتاب الأشربة: باب الحث على ترك الشبهات، ص ٧٧٢-٧٧٣ رقم ٥٧١٤ كلاهما من حديث الحسن بن علي- رضي الله عنهما- مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

٩ـ أن النبي ﷺ أخبر أن من مات على فراشه يبلغ بالصدق مراتب الشهداء، إذ يقول ﷺ: «مَنْ سأل الله الشهادة بصدقٍ بلَّغَه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»(١).

١٠ـ أن الله أخبر أن الصدق يكون سببًا في الحشر مع النبيين، والشهداء، والصالحين، وأي شرفٍ أرفع من هذا الشرف؟ إذ يقول سبحانه:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٩ـ٧٠).

ويقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ (الحديد: ١٩).

وبالجملة فإنه يفتح أمام المتصفين به أبوابًا من البرِّ والمعروف تكون سببًا في رضا الله والظفر بجنته، إذ يقول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة...» الحديث.

كما تكون سببًا في رقي المجتمع المسلم وتقدمه، الأمر الذي يصيِّره أسوة وقدوة في أعين المجتمعات غير الإسلامية.

حسبنا: أن هذا الصدق أغرى كثيراً من المجتمعات غير الإسلامية الدخول في الإسلام واحتضانه والدفاع عنه إبان الفتوحات الإسلامية في آسيا وإفريقيا، وما استطاع المسلمون الوصول إليه في أوروبا.

وكذلك يكون سببًا في بلوغ مرتبة الصديقية، وهي مرتبة ما نالها إلا الخواص من الناس، كإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ الذي وصفه ربه بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم: ٤١)، وكإدريس من قبل الذي وصفه ربه بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم: ٥٦)، وكأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ الذي لُقِّبَ بالصدِّيق.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

سبيل التحلي بالصدق :

وسبيل التحلّي بالصدق ، تتمثل في :

١ ـ استحضار المسلم أنه مأمور من قِبَل الشارع ، ولا يسع المسلم أمام حكم الشارع الحكيم إلا الامتثال ، إذ هذه خاصة المؤمنين لقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (النور : ٥١) .

٢ ـ تذكر الفوائد ، والثمرات التي يجنيها المرء من وراء تحليه بالصدق على النحو الذي ذُكِرَ آنفًا ، فإن ذلك يحمل على ملازمة الصدق ، وعدم التخلي عنه .

٣ ـ دوام النظر في سير المعروفين بالصِّدْق ، فإن ذلك يحمل غالبًا على الاقتداء والتأسِّي ، أو على الأقل المحاكاة والتشبُّه ، على حد قول القائل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبُّهَ بالصالحين فلاحُ

٤ ـ صحبة القدوات الحيَّة المرسومة بالصِّدق ، فإن هذه الصحبة غالبًا ما تكون سببًا في التحلّي بالصِّدق ، والعضُّ عليه بالنَّواجِذ .

٥ ـ إظهار الاستحسان للصدق ، بل وتشجيع الحريصين عليه التحلّي به بوضعهم في مراكز الصدارة ، والإمامة كي يستمروا عليه ولا يتحولون عنه .

٦ ـ تذكر أن الصِّدْقَ سيكون من بين ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة ، وعليه أن يحرص عليه اليوم ، حتى يجد جوابًا يقدِّمه لربه وقت السؤال والحساب .

قال تعالى : ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (الأحزاب : ٨) .

الجانب الثاني : ما هية البرِّ ، وصوره ، ومكانته في الإسلام ، وثمراته ، وسبيل التحلّي به :

ماهية البرِّ لغة :

يأتي البر في اللغة على معانٍ ، نذكر منها :

١ ـ الطاعة ، تقول : بَرَّ ربَّه ، يبرُّه : أطاعه ، ومنه حديث النبي ﷺ لنسائه لما اعتكفن معه ، وتسابقن في ضرب الخيام في المسجد ، إذ قال : «البرَّ يُرِدْن . . .»[١] يعني : الطاعة ، والعبادة ، ومنه حديث : «ليس من البرِّ الصيام في السَّفر»[٢] .

٢ ـ الصلاح ، تقول : برَّ يبرَّ : صلح .

٣ ـ الصلة ، تقول : برَّ رحمه : وصلها .

٤ ـ القبول ، تقول : حج مبرور : مقبول[٣] .

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا ، إذ البر : الصلاح ، والطاعة ، المثمران الصلة والترابط ، والقبول .

البر ، اصطلاحًا :

البرُّ : اصطلاحًا : اسم جامع لكل صلاح ، وخير مما يحبُّه الله ، ويرضاه من الأقوال ، والأفعال ، الظاهرة والباطنة ، وآيةُ البرِّ خير ما يترجم هذا التعريف .

قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي**

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب الاعتكاف : باب مَنْ أرادَ أن يعتكف ، ثم بدا له أن يخرج ، ص ٣٢٨ رقم ٢٠٤٥ ، **ومسلم في** : الصحيح : كتاب الاعتكاف : باب متى يدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ رقم ٦/ ١١٧٣ / ٢٧٨٥ كلاهما من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا به ، وبنحوه .

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في : الصحيح : كتاب الصوم : باب قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه ، واشتد الحر : «ليس من البر الصيام في السفر» ، ص ٣١٣ ، رقم ١٩٤٦ ، **ومسلم** في : الصحيح : كتاب الصيام : باب جواز الصوم ، والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية ، ص ٤٥٦ رقم ٩١/ ٢٦١١ كلاهما من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا به .

(٣) انظر : الصحاح للجوهري : ٢/ ٥٨٨ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١١٦ ، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٥١ ـ ٥٤ بتصرف كثير .

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

صور البرّ:

للبرّ صورٌ كثيرة، منها:

١ ـ العقيدة الصحيحة ممثلة في: الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر.

٢ ـ الأخلاق الحسنة ممثلة في: الصدق، والوفاء، والعدل، والصبر، والمساواة، والعفاف، ونحوها.

٣ ـ الشعائر التعبدية من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ونحوها.

٤ ـ النظم والتشريعات المتعلقة بحفظ الضرورات الخمس: دينًا، ونفسًا، وعقلاً، وعِرْضًا، ومالاً.

مكانة البر في الإسلام وثمراته:

للبرّ في الإسلام مكانة رفيعة ومنزلة عالية تتمثل في:

١ ـ أن الله جعله جماع كل خير ومعروف، إذ يقول:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

٢ ـ أن الله جعله ثمنًا للمنازل الرفيعة في الجنة، إذ يقول:

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ... ﴾ (مطففين: ١٨ ـ ٢٠).

٣ ـ أن الله جعل رفقة الأبرار مطلبًا يسعى للظفر به أولوا الألباب، إذ يقول عن هذا الصنف من الناس: إنهم يناجون ربهم قائلين:

﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣)

٤. أن الله وصف نفسه به، وأكْرِم به من وصف، إذ يقول سبحانه:

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

٥. أن الله حلَّى به الملائكة، فقال سبحانه:

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٣-١٦).

٦. أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون سببًا في بركة العمر، إذ يقول ﷺ فيما روى ثوبان - رضي الله عنه -: «لا يزيد في العمر إلا البرُّ... الحديث»[(١)].

وبالجملة فإنه يكون سببًا في طمأنينة النفس، وانشراح الصدر، بحيث يقبل المرء على فعل كل جميل، وترك كل قبيح، ويجد لذلك لذة وحلاوة لا عدل لهما في شيء من المحسوسات.

وقد جاء في الحديث ما يشرح ذلك، إذ يقول النبي ﷺ: «البرُّ ما اطمأنت إليه النفس، وانشرح له الصدر...»[(٢)].

سبيل التحلِّي بالبرِّ:

يمكن التحلي بالبرِّ باتباع هذه السبيل:

١ - تذكر أن للبرِّ منزلة رفيعة، ومكانة عالية في الإسلام على النحو الذي مضى آنفًا، فإن ذلك يولِّد في النفس ميلاً قويًا، بل محبة لعمل البرِّ، والتوسع فيه.

٢ - معايشة البررة والأتقياء في سيرهم من الأنبياء، والمرسلين، والمجاهدين، والصالحين، فإن ذلك يولِّد في النفس محبة هؤلاء

---

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب القدر: باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، **وابن ماجه** في: السُّنن: المقدمة: باب في القدر، ص ١٥، رقم ٩٠ كلاهما من حديث ثوبان - رضي الله عنه - مرفوعًا، **وأورده الألباني** في: صحيح ابن ماجه رقم ٧٣، وعقب الترمذي على حديث بقوله: «حديث حسن غريب».

(٢) الحديث سبق تخريجه.

ومحاولة الاقتداء والتأسي بهم في سائر أعمالهم التي جماعها البرُّ.

٣ ـ صحبة القدوات الحية من البررة والأتقياء، فإن صحبة هؤلاء من شأنها أن تحمل على محبة البرِّ، وتمثله واقعًا عمليًا في دنيا الناس.

٤ ـ إظهار الاستحسان للبرِّ، وتشجيع الحريصين على التحلِّي به، وذلك بسؤالهم عنه، بل بوضعهم في مراكز الصدارة، والإمامة كي يستمروا عليه، ولا يتحولون عنه.

٥ ـ الحرص على أن يكون الكبار صورة كريمة للبر في نظر الناشئة والصغار كي يسهلوا عليهم الاقتداء والتأسي.

طائفة من الأحاديث الأخرى الواردة في البرِّ:

وردت في البرِّ طائفة من الأحاديث، غير حديث الباب، نذكر منها:

١ ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خصلةً، أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة»(١).

٢ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»، وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»(٢).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الهبة: باب فضل المنيحة، ص ٤٢٥ رقم ٢٦٣١، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الزكاة: باب في فضل سقي الماء، ص ٢٤٩ رقم ١٦٨٣ كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا به.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب الساعي على الأرملة، باب الساعي على المسكين، ص ١٠٥١ رقم ٦٠٠٦، ٦٠٠٧، وكتاب النفقات: باب فضل النفقة على الأهل، ص ٩٥٦ رقم ٥٣٥٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الزهد: باب فضل الإحسان إلى الأرملة، والمسكين، واليتيم، ص ١٢٩٠ رقم ٤١/ ٧٤٦٨ (٢٩٨٢) كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، ومن حديث صفوان بن سليم ـ رضي الله عنه ـ يرفعه، رقم ٦٠٠٦ عند البخاري.

٣ ـ وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ أعمال أمتي، حسنها وسيئها، فوجدتُ في محاسن أعمالها: الأذىٰ يُماط عن الطريق، ووجدتُ في مساوئ أعمالها: النخامة تكون في المسجد لا تدفن»[١].

٤ ـ وعن أبي ذر ـ أيضًا ـ قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقىٰ أخاك بوجه طَلْق»[٢].

٥ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «كل سُلامَىٰ من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس»، قال: «تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة»، قال: «والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلىٰ الصلاة صدقة، وتميط الأذىٰ عن الطريق صدقة»[٣].

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث.

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب المساجد: باب النهي عن البصاق في المسجد، ص ٢٢٤، رقم ٥٧/ ١٢٣٣ (٥٣٣)، **وأحمد** في: المسند: ٥/ ١٨٠، كلاهما من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب البر والصلة: باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ص ١١٤٥ رقم ١٤٤/ ٦٦٩٠ (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الصلح: باب فضل الإصلاح بين الناس، والعدل بينهم، ص ٤٤٢، رقم ٢٧٠٧، وكتاب الجهاد والسير: باب فضل مَنْ حمل متاع صاحبه في السَّفر، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ رقم ٢٨٩١، وباب من أخذ بالركاب ونحوه، ص ٤٩٤ رقم ٢٩٨٩، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب بيان أن اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف، ص ٤٠٧ رقم ٥٦/ ٢٣٣٥ (١٠٠٩) كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به، وبنحوه.

الجانب الثالث: ماهية الكذب، وموقف الإسلام منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه، بل الوقاية:

ماهية الكذب: لغة:

يأتي الكذب في اللغة على معانٍ، منها:

١ ـ ما يناقض الصدق، قال ابن منظور: «الكذب نقيض الصدق»[١].

٢ ـ الخطأ، قال الأخطل:

كذبتك عينُك، أم رأيتَ بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

٣ ـ الجبن، تقول: كذب فلان عن الثبات في الحرب.

٤ ـ التعريض في الحديث أو التورية، تقول: كذب في الحديث أي عرَّض في الحديث، أو ورَّى[٢].

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ الكذب هو نقيض الصدق أو الخطأ إما جبنًا، وإما تعريضًا، وتورية.

اصطلاحًا: جاءت عدة تعريفات للكذب اصطلاحًا إذا عرَّفَهُ:

١ ـ الجرجاني بقوله: «كذب الخبر: عدم مطابقته للواقع»، وقيل هو: «إخبار لا على ما عليه المُخبَر عنه»[٣].

٢ ـ وابن حجر بقوله: «الكذب هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، سواء كان عمدًا أم خطأ»[٤].

٣ ـ والجاحظ بقوله: «الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به»[٥].

(١، ٢) انظر: الصحاح للجوهري ١/ ٢١٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠، ولسان العرب لابن منظور ١/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥ مادة «كذب».

(٣) انظر: التعريفات، ص ١٨٣.

(٤) انظر: فتح الباري، ٦/ ٢٤٢.

(٥) انظر: تهذيب الأخلاق، ص ٣٢.

٤ ـ والكفوي بقوله: «الكذب إخبار عن المخبر عنه على خلاف ما هو به، مع العلم بأنه كذلك»، وقيل: «عدم المطابقة لما في نفس الأمر مطلقًا»(١).

وكلُّ هذه التعريفات تحدِّد الكذب بأنه: «عدم المطابقة لما في الواقع ونفس الأمر مطلقًا، أي أعم من أن يكون ذلك عمدًا أو سهوًا».

موقف الإسلام من الكذب:

الكذب حرام في الإسلام، ويأثم فاعله إلا لمصلحة شرعية من خدعة حرب، أو إصلاح بين متخاصمين، أو تراضٍ بين زوجين، أو حماية حرمة مظلوم في دم، أو مال، أو عرض، أو نحو ذلك، فإنه لا حرمة ولا إثم.

يقول النبي ﷺ: «... وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزالُ الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يُكتَب عند الله كذابًا»(٢).

وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مرفوعًا: «ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين ـ أو قال: بين الناس ـ فيقول خيرًا أو ينمي خيرًا»(٣)، زادتْ أم كلثوم في رواية: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس كذبًا، إلا في ثلاث، يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها»(٤).

---

(١) انظر: الكليات، ص ٥٥٦.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الصلح: باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، ص ٤٣٩، رقم ٢٦٩٢، **ومسلم في**: الصحيح: كتاب البر والصلة باب تحريم الكذب، وبيان ما يباح منه، ص ١١٣٧ رقم ١٠١ / ٦٦٣٣ (٢٦٠٥) كلاهما من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا به.

(٤) هذه الرواية **أخرجها مسلم في**: الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم الكذب، وبيان ما يباح منه، ص ١١٣٧ رقم ١٠١/ ٦٦٣٣ (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا.

قال ابن الجوزي: «وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب فهو مباح، إن كان ذلك المقصود مباحًا، وإن كان واجبًا فهو واجب، وهو مراد الأصحاب، ومرادهم هنا لغير حاجة، وضرورة، فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل»(١).

وقال ابن مفلح: «ويحرم الكذب لغير إصلاح، وحرب، وزوجة»(٢).

ومن العلماء من جعل في التعريض والتورية ما يُغني عن الكذب لحديث عمران بن حصين، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ موقوفًا: «إنَّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب»(٣).

ولما ثبت عنه ﷺ من استخدام التورية، بل إقرار الصحابة عليها، إذ المحفوظ عنه ﷺ أنه كان إذا أراد غزوةً وَرَّىٰ بغيرها إلا غزوة تبوك لحال تخصُّها(٤).

وجاء عنه ﷺ أنه قال في رجل حرٍّ: «مَنْ يشتري العبد»(٥).

وسُئل ﷺ: ممن أنت؟ قال: «من ماء»(٦).

وسُئل أبو بكر يوم الهجرة: مَنْ معك؟، وكان رفيق النبي ﷺ في ذلك، فأجاب: «هادٍ يهديني السبيل»(٧).

---

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٤٤.

(٢) انظر: الآداب الشرعية ١/ ٥٦ بتصرف.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الأدب المفرد، رقم ٨٨٥ موقوفًا على عمران بن حصين، وإسناده ـ كما يقول محقق الآداب الشرعية ١/ ٤٩ ـ صحيح، **ورواه البيهقي** في السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٩٩ بسند صحيح إلى عمر بن الخطاب موقوفًا عليه.

(٤) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المغازي: باب حديث كعب بن مالك، ص ٧٤٩ رقم ٤٤١٨ من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٣/ ١٦١، **والترمذي** في: الشمايل ٢٤٠، **وابن حجر** في: الإصابة ٢/ ٥٤٧ وصححه.

(٦) انظر: تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري ت ٣١٠هـ (٢/ ٤٣٥)، وعيون الأثر في المغازي والشمائل، والسير لابن سيد الناس ١/ ٢٤٨ بتصرف.

(٧) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٣/ ١٢٢، ٢١١، ٢٨٧، **وابن سعد** في: الطبقات (١/ ٢٣٣).

عواقب الكذب :

للكذب عواقب خطيرة، وآثار وخيمة ، نذكر منها :

١ ـ فقد الكذاب ثقة الناس ، وثقة الناس بالمرء هي رأس ماله في الأرض، فإذا فقد هذه الثقة فماذا بقي له؟

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : «ما كان خُلُقٌ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة، فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة»(١) .

٢ ـ الانغماس في المعاصي والسيئات من مفرق الرأس إلى أخمص القدمين، الأمر الذي يعرض في النهاية إلى النار، وبئس القرار .

جاء في الحديث قوله ﷺ : «وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»(١) .

٣ ـ التغرير بالآخرين، لاسيما مَنْ لا خبرة لهم، ولا دراية في الحياة، فيتحمل إثم نفسه، وإثم مَنْ غَرَّر بهم من باب : « . . . ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا . . . »(٣) .

٤ ـ القلق والاضطراب النفسي، وذلك أن الكذَّاب يخشى أن ينكشف أمره وبسبب ذلك يعيش في قلق، واضطراب، بل إنَّه ليخيَّل إليه أن كل حركة إنما تعنيه، كما قال سبحانه : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ (المنافقون : ٤) .

سبيل التحرر من الكذب ، بل الوقاية منه :

للتحرر من الكذب، بل الوقاية منه سُبُلٌ عديدةٌ ، نذكر منها :

١ ـ اليقين بخطورة الكذب، وسوء عاقبته، فإن ذلك من شأنه أن يحمل

---

(١) الحديث **أخرجه أحمد** في : المسند ٦/ ١٥٢، والبيهقي في : السنن الكبرى ١٠/ ١٩٦، وعقب الأخير بقوله : «وإسناده صحيح».

(٢، ٣) الحديثان سبق تخريجهما .

العقلاء من الناس أن يبادروا بالتخلص من هذا الكذب، بل الوقاية منه، خشية التردِّي في سوء العاقبة.

٢ ـ استحضار المسلم أنَّه مأمور بعدم الوقوف في الكذب، وما على المسلم حين يسمع حكم الله إلا أن يتمثل، ويرضى ظاهراً وباطنًا.

٣ ـ دوام النظر في سير الكذابين، وسوء عاقبتهم، كالمنافقين، ونحوهم، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على التخلص من الكذب، بل الوقاية منه.

٤ ـ إحاطة المعروفين بالكذب بنخبة من الصَّادقين كي يساعدوا الكذابين في التخلص من الكذب، بل الوقاية منه، إذ المرء على دين خليله، فلينظر المرءُ مَنْ يُخالل.

٥ ـ إظهار الاشمئزاز من الكذب، ومقاطعة المُصِرِّين على الكذب، فلعل ذلك يكون رادعًا للكذَّابين أن يتمادوا في كذبهم، وأن يستمروا على أخطائهم.

٦ ـ اليقين من اطلاع الله على الكذَّابين، وسؤالهم عن ذلك يوم القيامة فإن هذا اليقين من شأنه حمل العقلاء أن يتخلصوا من الكذب قبل أن تقع الواقعة، ويكون الندم حين لا ينفع الندم.

طائفة من الأحاديث الأخرى الواردة في شأن الكذب:

جاءت طائفةٌ من الأحاديث الأخرى الواردة في شأن الكذب، نذكر منها:

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان»[1].

---

(١) الحديث **اخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب علامات المنافق، ص ٩ رقم ٣٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب خصال المنافق، ص ٤٧، رقم ٥٩ كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به.

٢ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربض الجنَّة لمن ترك المراء وإن كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُه»(١).

٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لايكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: شيخ زان، وملك كذَّاب، وعائل مستكبر»(٢).

٤ ـ عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صَدَقا، وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما، وكذبا مُحِقَتْ بركة بيعهما»(٣).

٥ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» (ثلاثًا)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وجلس، وكان متكئًا، فقال: «ألا وقول الزور»، قال: فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سَكَت(٤).

إلى غير ذلك من الأحاديث.

---

(١) الحديث **اخرجه ابوداود** في: السُّنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق، ص ٦٨٠ رقم ٤٨٠٠ من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به، **وأورده الألباني** في: الصحيحة رقم ٢٧٣، وقال عنه: «حديث حسن».

(٢) الحديث **اخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمنِّ بالعطية، ص ٥٩ ـ ٦٠ رقم ١٠٧ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به.

(٣) الحديث **اخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب البيوع: باب إذا بيَّن البيِّعان، ولم يكتما ونصحا، ص ٣٣٤ رقم ٢٠٧٩، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب البيوع: باب الصدق في البيع، والبيان، ص ٦٦٥، رقم ١٥٣٢ كلاهما عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، واللفظ للبخاري.

(٤) الحديث **اخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الشهادات: باب ما قيل في شهادة الزور، ص ٤٣٠ رقم ٢٦٥٤، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الكبائر وأكبرها، ص ٥٣ رقم ٨٧ كلاهما من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، واللفظ للبخاري.

الجانب الرابع: ماهية الفجور، وصوره، وموقف الشارع منه، وعواقبه، وسبيل التحرر منه:

ماهية الفجور لغة: يأتي الفجور لغة على معانٍ، نذكر منها:

١ ـ الخروج، والظهور، تقول: فجر الماء: ظهر، وخرج، ومنه قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة: ٦٠).

٢ ـ الكذب، تقول: فَجَرَ في يمينه: كذب.

٣ ـ الفساد، تقول: فَجَرَ أمرُ القوم: فسد[١].

ولا تعارض، إذ الفجور هو إظهار وإبراز كل ما هو كاذب وفاسد وقبيح.

اصطلاحًا: الفجور اصطلاحًا هو ـ كما يقول الجاحظ ـ الانهماك في الشهوات، والاستكثار منها، والتوفر على اللذَّات، والإدمان عليها، وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها، وبالجملة هو: السَّرف في جميع الشهوات[٢].

صور الفجور، وموقف الشارع منه:

للفجور صور كثيرة، منها: الكفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

ومنها: سفك الدماء، وهتك الأعراض، وسلب الأموال، وتفريق وحدة الصف، ونحوها، والشرع الحنيف حرم الفجور، وجعل النار جزاء الفجار، فقال: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٤)، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (المطففين: ٧).

وقال ﷺ ـ كما في حديث الباب ـ: «.. وإن الفجور يهدي إلى النار..».

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٤٧٥، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٣٧٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٧٤ ـ ٤٧٥ بتصرف كثير.

(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، ص ٢٨.

عواقب الفجور:

يكفي في عواقب الفجور:

١ ـ التعذيب بالنار لأهل الفجور، وأيُّ عقاب أعظم من التعذيب بالنار.

٢ ـ البُغض، والكراهية لأهل الفجور، ذلك أن الفاجر مجاهر بالمعصية، وهو في مجاهرته قد فضح غيره ممن لهم تعامل معه، وهل يتوقع من هؤلاء الحبَّ لآخرين شهروا بهم، وفضحوهم على رءوس الأشهاد.

٣ ـ الحرمان من تكليم الله للفجار، والنظر إليهم، والثناء عليهم، يقول النبي ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، المنَّان الذي لا يعطي شيئًا إلا منَّة، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره»(١).

٤ ـ التهاون بالذنوب، كأنها لا شيء، وهذا بدوره يحمل على الإسراف والتمادي، يقول النبي ﷺ: «وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به: هكذا...»(٢).

٥ ـ إطلاق الفاجر العنان للسانه ليقع فيما يؤدي بصاحبه إلى ما فيه هلاكه وحتفه، يقول إبراهيم بن يزيد التميمي: «المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر، فإن كان كلامه له تكلم، وإن كان عليه أمسك، والفاجر إنما لسانه رَسْلاً، رَسْلاً»(٣).

سبيل التحرر من الفجور:

للتحرر من الفجور سبيل تتمثل في:

١ ـ إغلاق الباب الذي يؤدي إلى الفجور، ألا وهو الكذب، وذلك بالتوبة، ورد المظالم إلى أصحابها في حدود الطاقة، والوسع.

٢ ـ استحضار العواقب المترتبة على الفجور، على النحو الذي ذُكِرَ آنفًا، فإن ذلك الاستحضار إن كان صادقًا سيحمل على التوبة من الفجور، وعقد العزم على عدم العودة إليه مرة أخرى.

(١، ٢) الحديثان سبق تخريجهما.

(٣) انظر: الصمت لابن أبي الدنيا، ص ٢٤٧.

٣ ـ الانخلاع من صحبة الفجار، والتحول إلى صحبة الأتقياء البررة، فإنَّ مَنْ يُرد الله به خيراً يهده خليلاً صادقًا، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه.

٤ ـ قيام ولي الأمر بسد كل باب يؤدي إلى الفجور، ثم تعهد الفجار بكل الأساليب والسوائل التي لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، وهذا له أعظم الأثر في التحرر من الفجور، من باب: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

٥ ـ محاسبة النفس أولاً بأول بعد استحضار المثول بين يدي الله غداً، والسؤال عن كل شي من النقير والفتيل والقطمير، فإن هذه المحاسبة إن كانت صادقة تحمل على التوبة من الفجور، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان التقطيع والتحريق بالنار.

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا:

يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها:

١ ـ الحرص على التزام الصدق، وتحريه في كل شأن من شئون الحياة فإنه يكون طريقًا للظفر بالصدِّيقية، والنجاة في الدنيا والآخرة، ويساعد على ذلك: ما سبق أن ذكرناه في هذا الشأن آنفًا.

٢ ـ التوسع في أعمال البرِّ، والمعروف، فإنها طريق إلى الجنة، ومن زُحْزِحَ عن النار، وأُدخِل الجنة فقد فاز، ويساعد على ذلك: ما ذُكِرَ آنفًا.

٣ ـ البعد عن الكذب بكل أشكاله وصوره، ويساعد على الابتعاد عنه كل الأساليب والوسائل المذكورة فيما مضى.

٤ ـ اجتناب الفجور صغيره، وكبيره، ظاهره، وباطنه، طمعًا في النجاة من النار، والظفر بالجنة ورؤيته سبحانه، وقد تقدمت كلُّ السبل التي تساعد على اجتناب الفجور.

٥ ـ زيادة الحبِّ للنبيِّ ﷺ الذي أُوتي جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصاراً، حيث ساق في هذا الحديث: كلمات موجزات، استغرقتْ في شرحها صفحات، وصفحات.

الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنتُ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ يومًا فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تَجِدْهُ تُجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلم أن الأمَّة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعَتْ الأقلام، وجَفَّتْ الصحف».

تخريج الحديث :

الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ١/ ٢٩٣ رقم ٢٦٦٩، **والترمذي** في: السنن: كتاب صفة القيامة: باب حديث حنظلة، ص ٥٧٢، رقم ٢٥١٦ بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد في: المسند ١/ ٣٠٣ رقم ٢٧٦٣ بلفظ: «كنتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ فقال لي: يا غلام، إني مُحدِّثك حديثًا، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، فقد رُفِعَتْ الأقلام، وجفَّت الكتب، فلو جاءتْ الأمة ينفعوك بشيء لم يكتبه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لك، لما استطاعت، ولو أرادت أن تضرَّك بشيء لم يكتبه الله لك، ما استطاعت»، ١/ ٣٠٧ رقم ٢٨٠٣ بلفظ: «كنتُ رديف رسول الله ﷺ فقال: يا غلام ـ أو يا غليِّمُ ـ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهنَّ؟ فقلتُ: بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدَّة، وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفَّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلَّهم جميعًا، أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على

ما تكـره خيراً كثيـراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا».

المعنى الإجمالي للحديث:

مما لا شك فيه أن الأمن أو الحفظ مطلب أساسي لكل إنسان، لاسيَّما الصبية أو الغلمان.

ومما لاشك فيه أيضًا: أن الله عزَّ وجلَّ هو وحده المانح كل أمن أو حفظ.

ومما لاشك فيه أيضًا: أن الظفر بتمام الأمن، وكمال الحفظ، لا يمنحه الله - عزَّ وجلَّ - إلا مَنْ كان صادق العبودية، وثيق الصلة به سبحانه.

ومما لا شك فيه أيضًا: أن على العبد التحلِّي بالصبر، إذ الصبر يؤدي إلى النصر، وعليه ملازمة الدعاء والضراعة، إذ بالدعاء يفرج الله الكرب، وعليه بالأمل، وطرح اليأس والقنوط، فإن ذلك يثمر اليسر بعد العسر، والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن هذه الحقائق.

إذ يحكي عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان راكبًا ذات يوم خلف النبيِّ ﷺ على دابته، ولاهتمامه ﷺ بإعداد أبناء الأمة لاسيَّما الصغار والناشئة منهم توجَّه بالخطاب إلى ابن عباس بأهم مطلب للإنسان في الحياة، ألا وهو الأمن، فقال: يا غلام، أو يا غليِّم، إني أعلمك كلمات، وعليك أن تصغي عليها، وأن تحفظها، وتعمل بما فيها، هذه الكلمات هي: إذا أردت الظفر بالحفظ والأمن فعليك بحفظ دين الله والالتزام بشريعته، مع اليقين أن القلم قد جرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، فلا تسأل أحدًا إلا الله، ولا تستعن بأحد إلا الله، ولا ترجو إلا الله، ولا تخف إلا من الله، ولتحرص على تنفيذ ذلك أيام الرخاء حتى يكون الله لك في الشدة، ولتعلِّم نفسك الصبر، لكنه الصبر الإيجابي الذي يكون معه الإقدام، لا الإحجام، إذ الصبر كله خير ورحمة، حسبه أن معه النصر، ولتعلِّم نفسك كذلك: الدعاء والضراعة، إذ بالدعاء يكون تفريج الكرب، ولتوقن بالأمل بعد طرح اليأس والقنوط، إذ هذا يثمر التيسير بعد التعسير والسعة بعد الضيق.

ولكي تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح فإننا سنعرض له من خلال هذه الجوانب:

الجانب الأول: معنى حفظ العبد لله، ومحاوره، وصور كل محور، وصور حفظ الله للعبد.

الجانب الثاني: أمارات حفظ العبد لله كما جاء بها الحديث.

الجانب الثالث: معنى الصبر، ومراتبه، وثمراته، وأهميته، وسبب اقتران النصر به في الحديث، وسبيل التحلّي به.

الجانب الرابع: معنى تفريج الكرب، وثمراته، وأهميته، وطريق الظفر به.

الجانب الخامس: معنى تيسير العسير، وثمراته، وفوائده، وطريق الظفر به.

الجانب السادس: سرُّ عناية الإسلام بالشباب، ومنهج النهوض بهذا الشباب.

الجانب السابع: بعض النصوص الأخرى الواردة في معنى الحديث.

وذلك على النحو التالي:

الجانب الأول: معنى حفظ العبد لله، ومحاوره، وصور كل محور، وصور حفظ الله للعبد:

حفظ العبد لله يُراد به حفظ دينه، وشريعته، ولا يتم ذلك إلا من خلال محاور ثلاثة:

المحور الأول: موالاة الله المتمثلة في هذه الصور:

١ ـ معرفته سبحانه معرفة تثمر اليقين بوحدانيته سبحانه، واتصافه بالكمالات، وتنزيهه عن كلّ نقص، وأن كلّ شيء قد قُضي أزلاً، وإليه يُرجع الأمر كله، فلا يُسأل إلا الله، ولا يُستعان إلا بالله، والخلق كلهم مهما كانت قوتهم، وكان بأسهم وسلطانهم، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، فضلاً عن أن يملكوا ذلك لغيرهم، وطريق ذلك: التأمل في الكون، وفي النفس، ثم معايشة كتاب الله، وسنة نبيِّه ﷺ، فإن ذلك يثمر معرفة الله على هذا النحو الذي ذكرنا آنفًا.

٢ ـ محبته سبحانه محبةً تثمر الإخلاص مع التجرد عن كل صور الشرك الظاهرة والخفيّة، وطريق ذلك رؤية النعم الربانية تغمرهم من أدنى إلى أعلى، يعلم منها العبد ما يعلم، ويجهل منها ما يجهل، على حدِّ قوله ـ سبحانه ـ:

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . . ﴾ (لقمان: ٢٠).

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (النحل: ١٨).

إذ القلوب جبلتْ على حُبِّ من أحسن إليها.

٣ ـ النزول على حكم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كل ما نأتي، وما ندع، مع الثقة في هذا الحكم، والرضا به، والتسليم ظاهرًا، وباطنًا، لقوله ـ سبحانه ـ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ . . . ﴾ (النساء: ٥٩).

وطريق ذلك اليقين: أن حكم الله يقوم على حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، التي هي مقومات الحياة.

٤ ـ كثرة الثناء على الله ـ سبحانه ـ بما هو أهله، من تلاوة آياته، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، ومحاسبة النفس، والتوبة، والاستغفار، والتجرد من الحول، والقوة، إلا حول الله وقوته، فإن هذا الثناء إقرار من العبد بعظيم الثقة بالله أنه لا يصنع بعبده إلا ما فيه نفعه ومصلحته.

٥ ـ الدعوة إلى موالاة الله على النحو الذي ذكر آنفًا، مستخدمين في ذلك كل الأساليب، والوسائل شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف.

٦ ـ الوقوف في وجه كلِّ مَنْ يعتدون على حقِّ الله في الموالاة بكل ممكن من أساليب ووسائل، كي يبقى أصل الولاء، وكماله لله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

المحور الثاني: موالاة الرسول ﷺ المتمثلة في هذه الصور:

١ ـ معرفته ﷺ عن قُرب: بدراسة سنته ﷺ وسيرته، لندرك كمال خَلْقِه، وخُلُقِه ﷺ.

٢ ـ محبته ﷺ محبةً تفوق محبة كلِّ بشرٍ، لقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده»[١]، وفي رواية: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»[٢].

٣ ـ النزول على حكمه ﷺ في كلِّ ما نأتي، وما ندع، مع الثقة في صدقه ﷺ وسلامة حكمه، لأنه لا ينطق عن الهوى والتسليم بهذا الحكم ظاهراً وباطناً، لقوله سبحانه:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

٤ ـ شكره ﷺ على المعروف الذي أسداه للبشرية عامة، ولنا نحن المسلمين خاصة، وذلك بسؤالنا ربَّنا أن يمنحه ما وعده إياه من المقام المحمود، على النَّحو الذي علمنا إياه من الصلاة والسلام عليه ما وسعنا ذلك، إذ يقول ﷺ: «إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنَّه مَنْ صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمَنْ سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة»[٣].

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه، ص ٥ ـ ٦ رقم ١٣ من حديث قتادة، عن أنس مرفوعاً به.

(٢) هذه الرواية **أخرجها البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص ٥ رقم ١٤ من حديث عبد العزيز بن صهيب، وقتادة كلاهما عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً به.

(٣) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الصلاة: باب استحباب القول مثل قول المؤذِّن لمن سمعه، ثم يصلِّي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة، ص ١٦٣، رقم ١١، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الصلاة: باب ما يقول إذا سمع المؤذن، ص ٨٨، رقم ٥٢٣، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب المناقب: باب سلوا الله لي الوسيلة، ص ٨٢٤ رقم ٣٦١٤، **والنسائي** في: السنن (المجتبى): كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان، ص ٩٣ رقم ٦٧٩ كلهم من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً به.

وإذ يقول: «مَنْ قال حين يسمع النداء: اللهمَّ رب هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة»(١).

٥ ـ الدعوة إلى موالاته ﷺ بكل الأساليب والوسائل التي لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف.

٦ ـ الوقوف بكل حزم وقوة في وجه كل مَنْ يعمل على صدِّ الناس عن موالاته ﷺ، ودعوتهم إلى موالاة غيره.

المحور الثالث: موالاة المؤمنين الصالحين المتمثلة في هذه الصور:

١ ـ معرفة حقوقهم علينا، وواجبنا نحوهم، كي نتمكن من مراعاة هذه الحقوق والقيام بواجبنا نحوهم.

٢ ـ محبتهم محبة صادقة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومحبة الخير لهم كما نحن لأنفسنا، إذ يقول ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه، وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذَف في النار»(٢).

وإذ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»(٣).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأذان: باب الدعاء عند النداء، ص ١٠٢ رقم ٦١٤ من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا به.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب حلاوة الإيمان، ص ٦، رقم ١٦، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد بهنَّ حلاوة الإيمان، ص ٤٠ رقم ٦٧، كلاهما من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص ٥، رقم ١٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، ص ٤١ رقم ٧١ كلاهما من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به.

٣ ـ أداء حقوقهم كاملة غير منقوصة، وإن قصروا في أداء واجبهم نحونا، إذ الكلُّ مطلوب منه أن يؤدي الذي عليه، ويسأل ربه الذي له على غيره.

٤ ـ دعوة الآخرين إلى موالاتهم على النحو الذي ذُكر آنفًا، مستخدمين كل الأساليب والوسائل الممكنة في تحقيق ذلك شريطة عدم التعارض مع مبادئ الشرع الحنيف.

٥ ـ الوقوف في وجه كل مَنْ يعمل على تقويض موالاة المؤمنين، كي تقع بينهم العداوة، والبغضاء، ويكون الشقاق، والفراق، وتمكن الأعداء والعيش في العذاب العظيم.

إن المسلم إذا حقق في نفسه هذه المحاور الثلاثة يكون قد حفظ دين الله وشرعه، وبذلك يستحق أن يحفظه الله فيعطيه العون، والتأييد والنصر والغلبة على الأعداء، وصدق الله الذي يقول:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٥٢).

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة: ٥٦).

والذي يقول في الحديث القدسي: «مَنْ عادَىٰ لي وليًّا فقد آذنتُهُ بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ومازال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه...»[1].

ولحفظ الله لعبده صور، منها:

١ ـ حفظه في نفسه، وولده، وأهله، وذويه، وماله، وأرضه، ووطنه، بواسطة جند الله، قال تعالى:

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الرقاق: باب التواضع، ص ١١٢٧ رقم ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ...﴾ (الكهف: ٨٢).

وقال ﷺ: «كانت امرأة في بيت، فخرجت في سريَّة من المسلمين، وتركتْ ثنتي عشرة عنزاً، وصيصتها كانتْ تنسج بها، قال: فقدتْ عنزاً لها، وصيصتها، فقالت: يا رب إنك قد ضمنت لمنْ خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدتُ عنزاً منْ غنمي، وصيصتي، وإني أنشدك عنزةً لي، وصيصتي»، قال راوي الحديث: وجعل النبيُّ ﷺ يذكر شدَّة مناشدتها ربَّها ـ تبارك وتعالى ـ قال رسول الله ﷺ: «فأصبحت عنزها، ومثلها»(١).

٢ ـ حفظه في دينه، من الشبهات، والشهوات، بحيث يُحييه مسلمًا، ويتوفاه إليه مسلمًا، قال تعالى عن يوسف عليه السلام:

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)

٣ ـ توفيقه للحذر والحيطة، والهداية إلى كلِّ ما يحفظه في دينه ودنياه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨).

وقال سبحانه لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه: ٤٦).

ومن عجب أن هذا الحفظ يكون سريعًا، وشاملاً لقوله ﷺ: «احفظ الله تجده تجاهك».

الجانب الثاني أمارات حفظ العبد لله، كما جاء بها الحديث:

وهناك أمارات لحفظ العبد لله، نذكر منها:

١ ـ **اليقين بالقدر الكوني**، وضرورة مدافعته بالقدر الشرعي المتمثل في:

---

(١) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند رقم ١٩٧٤٣، ورجاله ثقات، وهو صحيح.

أ ـ سؤال الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النساء: ٣٢)، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ... ﴾ (غافر: ٦٠).

ب ـ الاستعانة بالله وحده، قال ﷺ: «احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز...»[1].

جـ ـ الرجاء في الله وحده، والخوف منه وحده، فهو المعطي، النافع، المانع، الضار، إذ يقول سبحانه:

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (فاطر: ٢).

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنعام: ١٧).

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يونس: ١٠٧).

د ـ الرضا بما اختاره الله مع التحلّي بالصبر، فإن ذلك الصبر يعود لا محالة إلىٰ النصر، قال ﷺ: «واعلم أن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر».

هـ ـ اليقين أن الفرج قرين الكرب، وأن مع العسر يسراً.

قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الانشراح: ٥، ٦).

وقال تعالىٰ: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٧).

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب القدر: باب في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله... ٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤، **وابن ماجه** في: السنن: المقدمة: باب في القدر ١/ ٣١ رقم ٧٩، **والإمام أحمد** في: المسند ٢/ ٣٦٦، ٣٧٠ كلهم من حديث أبي هريرة بمثله، أو بنحوه، واللفظ لمسلم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧، ٨٨).

٢ ـ **معرفة الله**، وموالاته في الرخاء أكثر منه في الشدَّة، طمعًا في عون الله وتأييده على الدوام، لقوله ﷺ: «تعرف على اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة».

الجانب الثالث: معنى الصبر، ومراتبه، وثمراته، وأهميته، وسبب اقتران النصر به في الحديث، وسبيل التحلِّي به.

الصبر لغة: يأتي الصبر لغة على معان، منها:

١ ـ الشدة، والقوَّة، تقول: لقيتُ الأمور بأصبارها تعني: بشدتها، وقوتها.

٢ ـ الجمع والضم، تقول: صبر على الأمر، تعني: جمع نفسه، وضمها عن الهلع.

٣ ـ الجنس، تقول: صبرتُ الدابة تعني: حبستُها بلا علف، وصبر فلان نفسه عند المصيبة، تعني: حبس نفسه عن الجزع[1].

ولا تعارض بين هذه المعاني، إذ هو: شدة أو قوة تحمل على الضمِّ والجمع، والجنس.

الصبر شرعًا:

للصبر شرعًا تعريفات عدَّة، نذكر منها:

١ ـ وقف النفس على ما يحبه الله، ويرضاه.

٢ ـ الثبات على أحكام الكتاب، والسنة[2].

---

(١) انظر: الصحاح في اللغة والعلوم للمرعشليين، ص ٥٨٧ بتصرف كثير.

(٢) انظر: الحديث السابع والثلاثين من هذا الجزء من التوجيهات.

٣ ـ حبس النفس على ما تكره ابتغاء وجه الله .

ولا تعارض بين هذه التعريفات إذ الصبر : عزيمة صادقة ، وهمة عالية ، وإرادة قوية ، تحمل على جمع الفكر ، وضمّ النفس ، وحبسها على وفق مراد الشرع .

مراتب الصبر هي:

١ ـ الصبر عن المعصية .

٢ ـ الصبر على الطاعة .

٣ ـ الصبر على قدر الله ، وقضائه دون تبديل أو تغيير[١] .

وأعلم هذه المراتب ، وأجلها : إنما هي المرتبة الثالثة ، نظراً لأن المرء قد ترك المعصية زمنًا مَّا ، وكذلك قد يفعل الطاعة زمنًا مَّا ، ولكن الاستمرار على ذلك إلى آخر الزمان ، مع الرضا بقضاء الله ، وقدره ، والتسليم التام بلا تغيُّر ولا تلوُّن ، إنما هو دليل على صدق العزيمة ، وعلو الهمة ، وقوة الإرادة ، والطمع في رضا الله ومثوبته .

وكذلك الصبر على الطاعة أكمل من المرتبة الأولى ، وهي الصبر عن المعصية ، نظراً لأن الجهد المبذول في الصبر عن المعصية هو مجرد الترك ، وهو وإن كان شاقًا إلا أن الأشق منه هو بذل الجهد في الطاعة .

ثمرات الصبر ، وأهميته :

للصبر ثمرات ، تتلخص إجمالاً في : محبة الله للصابرين ، والوقوف معهم في كل الأحوال ، لاسيَّما ساعات الشدائد والمحن .

قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ (آل عمران : ١٤٦) .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ (البقرة : ١٥٣) .

أما تفصيلاً فتتلخص في:

---

(١) انظر : الحديث السابع والثلاثين من هذا الجزء من التوجيهات .

١ ـ **ضبط الأعصاب**، بحيث لا يستجيب الصابرون إلى المثيرات التي يثيرها الأعداء، محاولين بها جر المسلمين إلى معارك جانبية تبدد طاقتهم، وتصرفهم عن هدفهم الأسمى، وغايتهم الكبرى، وقد تكون المعركة معهم أصلية. ولكن الواقع يأباها، والظروف المحيطة لا تسمح بها، قال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

وقال تعالى: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

٢ ـ **مغفرة الذنوب**، والهداية إلى الرشاد الأمر الذي يفتح باب الأمل في نصر الله، والرجاء في رحمته، قال تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥، ١٥٧).

٣ ـ **عدم التأثير بمكائد الأعداء، ومؤامراتهم**، قال تعالى:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

٤ ـ **الظفر بالعون الإلهي، والمدد الرباني**، قال تعالى:

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

٥ ـ **التمكين في الأرض، والإمامة في الدين**، قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

٦. **حمل غير المسلمين على عدم الاستمرار في كفرهم وبغيهم**، إذ انهيار المسلمين، وعدم صبرهم لا سيَّما في أوقات الشدائد والمحن، يلقي في روع هؤلاء: أن المسلمين على الباطل، وإلا لما انهاروا بهذه السرعة، قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: ٢٠).

٧. **الظفر بعقبى الدار، من الجنة، ورؤية الله ـ عزوجل ـ**، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٠، ٢٤).

وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٥، ٧٦).

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٢).

٨. **التمكن من إنجاز الأعمال جميعًا بلا يأس، ولا قنوط**، تطبيقًا للسنة الكونية: أنه إنجاز أي عمل يحتاج إلى طاقات، وإمكانات ووقت، ولا يتم شيء من ذلك إلا بالصبر.

قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (البقرة: ٤٥).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

وإذا كانت هذه ثمرات الصبر، فهو من الأهمية بمكان، ولذا أمره أصحاب الدعوات بدءًا بالرسل والنبيين، وانتهاءً بأتباعهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

سبب اقتران النصر بالصبر في الحديث:

أراد النبي ﷺ بجعل النصر قرين الصبر: حمل المؤمن على الأخذ بالأسباب من حفظ دين الله، والاستمساك به، وإذا تأخر ما رجاه من ربه من الحفظ، والتأييد، فلا يستعجل، بل يصبر ويحتسب، رضًا بقضاء الله وقدره، وإنه لا يدري أين المصلحة، إذ ربما يكون مراد الله بتأخير النصر، حمل المسلم على العمل، والمثابرة شيئًا شيئًا حتى يبلغ الكتاب أجله، وحينئذٍ يكون النصر والتأييد.

سبيل التحلي بالصبر:

إن من بين السبل التي تساعد المسلم على التحلّي بالصبر ما يلي:

١ ـ أن يستحضر أنه مأمور به من قِبَل الله ورسوله على النحو الذي ذكر آنفًا، وليس أمام المسلم الصادق مع حكم الله ورسوله سوى الامتثال، إذ يقول سبحانه:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

٢ ـ أن يتذكر أن من بين أسماء الله الحسنى: «الصبور» يعني الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، إذ جاء في الحديث قوله ﷺ: «ليس أحد ـ أو ليس شيء ـ أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدَّعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم، ويرزقهم»[1]، وإذا كان الأمر كذلك فإنه على المسلم أن يكون له نصيب من هذا الاسم، ونصيبه منه: إنما هو التحلي بالصبر، والتحمل.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

٣ ـ أن يعيش طويلاً مع النبيين وأتباعهم من المجاهدين والصديقين والشهداء والصالحين، من خلال القصص القرآني، وكتب التاريخ ليرىٰ أن الصبر كان دأبهم وديدنهم، وأنهم نالوا بسببه أعلىٰ الدرجات، وأرفع المنازل، وكان لهم النصر، والغلبة علىٰ أعدائهم، قال تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٤).

وقال تعالىٰ حاكيًا موقف الأنبياء من المكذبين من قومهم، إذ قالوا لهم:

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ (إبراهيم: ١٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

٤ ـ مجاهدة النفس، وحملها بأكثر من سبيل علىٰ التحلي بالصبر، والاستمرار، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة، ويُراد بها وجه الله تعالىٰ أثمرت منَّة الله علىٰ العبد بالصبر، لقوله ﷺ في الحديث: «... وَمَنْ يصبر يُصَبِّره الله... الحديث»[1].

ولقوله أيضًا: «فمن صبر، فله الصبر»[2].

٥ ـ صحبة المعروفين بالصبر، والتحمل، فإن من شأن هذه الصحبة، تقوية العزائم، والسموّ بالإرادات لتصبح في مستوىٰ هؤلاء، أو تقارب.

٦ ـ استحضار أن غير المسلمين يصبرون مع أنهم علىٰ الباطل، فكيف بنا ـ نحن المسلمين ـ؟ ونحن علىٰ الحق؟ إن هذا أدعىٰ أن نكون أكثر منهم صبرًا،

(١، ٢) الحديثان سبق تخريجهما.

وأشد تحملاً، وقوة وعزيمة.

٧ ـ تعهد المربين للمرء، وذلك بتكليفه بمهام بسيطة، ثم مركبة وهكذا، حتى يصلب العود، ويقوى الساعد، ويشتد، وتنمو ملكة الصبر في النفس على نحو ما صنع الأنبياء والمرسلون وأتباعهم مع المدعوِّين في كل البيئات، وفي سائر العصور.

٨ ـ تذكر ثمرات الصبر، وفوائده، فإن من شأن ذلك حمل النفس على التحلِّي بالصبر، والتحمل.

الجانب الرابع: معنى تفريج الكرب، وثمراته، وأهيته، وطريق الظفر به:

الكرب لغة: يأتي الكرب لغة على معانٍ، منها:

١ ـ الدنو، والمقاربة، تقول: كربتْ الشمس للمغيب، دنتْ، وكَرَبَ يفعل كذا، وكذا، وكَرُبَ أن يفعله: قارب أن يفعله.

٢ ـ ثِقَل الأمر، وشدته، تقول: كَرُبَ فلانًا الأمرُ، والغمُّ، والعبء: ثقل عليه، واشتد: فهو مكروب.

٣ ـ الحزن، والغم، تقول: أصابه الكرب: الحزن والغم[١].

ولا تعارض بين هذه المعاني، إذ هو ثقل الأمر وشدته بصورة يتوقع معها قرب وقوع الحزن والغم، ودنوِّه، بل وقوعه بالفعل.

الكرب اصطلاحًا:

الكرب اصطلاحًا: عرفه ابن منظور بقوله: «الكرب ـ على وزن الضرب مجزوم الراء ـ الحُزْنُ، والغَمُّ الذي يأخذ بالنفس»[٢].

وعرفه الحافظ ابن حجر بقوله: «الكرب ـ بفتح الكاف، وسكون الراء بعدها موحَّدة ـ هو ما يدهم المرء مما يأخذ بنفسه فيغمُّه ويحزنه»[٣].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط: ٢/ ٧٨١ بتصرف.

(٢) انظر: لسان العرب ١/ ٧١١ ـ ٧١٢.

(٣) انظر: فتح الباري ١١/ ١٥٠.

وعرفه أبو هلال العسكري بقوله: «والكرب تكاثف الغمِّ مع ضيق الصدر»[1].

ولعل ملتقى هذه التعريفات أن الكرب: شدة تنزل بالمرء على غير توقع منه فتصيبه بغم عظيم، وحزن كبير يضيق معها الصدر، وتنقبض النفس.

جـ- تفريج الكرب: هو تصدع جدار المحنة، وزوار الغمة بصورة تنشرح لها الصدور، وتستريح النفوس، وتمضي المسيرة إلى نهايتها.

ثمرات تفريج الكرب وأهميته:

تتلخص ثمرات تفريج الكروب فيما يلي:

١ ـ انشراح الصدور، وراحة النفوس، الأمر الذي يؤدي إلى الجد والنشاط والمضي في الطريق إلى نهايتها.

٢ ـ تعميق الحب لله، الذي فَرَّج الكرب، وأزال الهم، والغم، وكذلك تعمي الحبَّ للرسول ﷺ الذي علمنا بالكلمة والسلوك الطريق لتفريج الكربات، ودفع الهموم، والغموم.

٣ ـ المواظبة على الطاعات التي كانت سببًا في تفريج الكروب كي يدوم ذلك التفريج، ولا تعود الكروب مرة أخرى، من باب:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧).

٤ ـ السعي في تفريج كروب الآخرين طمعًا في تفريج كربة من كرب يوم القيامة، لقوله ﷺ في الحديث: «. . وَمَنْ فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فَرَّج الله عنه كربةً من كُربات يوم القيامة. . .»[2].

---

(١) الفروق اللغوية، ص ٢٦٢.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب المظالم: باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ص ٣٩٤ رقم ٢٤٤٢، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب البرِّ والصِّلة، ص ١١٢٩ رقم ٢٥٨٠ كلاهما من حديث سالم بن عبدالله، عن أبيه مرفوعًا.

وإذا كانت هذه ثمرات تفريج الكرب فإنه من الأهمية بمكان حتى عدَّه النبي ﷺ صورة من صور حفظ الله للعبد، ولكنها صورة عاجلة وسريعة.

طرق الظفر بتفريج الكرب:

هذا، وهناك طرق لتفريج الكرب، نذكر منها:

١ ـ اليقين في الله، وأنه لا يعجزه تفريج الكرب في أقل من طرفة عين.

قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ (يونس: ٩٨).

٢ ـ الثناء على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما هو أهله، فإن هذا الثناء، يعني أن المرء لثقته بربه اشتغل بالثناء عليه ـ تبارك وتعالى ـ مفوِّضًا إليه أن يصنع به ما يشاء من تفريج الكرب، وغيره.

كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم، الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات، وربُّ الأرض، وربُّ العرش العظيم»(١).

وعن أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلمات، تقولينهنَّ عند الكرب، أو في الكرب: الله ربي لا أشرك به شيئًا»(٢).

٣ ـ الدعاء، فإن الدعاء هو العبادة، قال تعالى:

﴿**وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ (الأنبياء: ٧٦).

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الدعوات: باب الدعاء عند الكرب، ص ١١٠٣ رقم ٦٣٤٥، ٦٣٤٦، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء، ص ١١٨٤ رقم ٢٧٣٠، كلاهما من حديث عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا.

(٢) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الوتر: باب في الاستغفار، ص ٢٢٥، رقم ١٥٢٥، وقال عنه الشيخ ناصر الدين الألباني ١/ ٢٨٤: «صحيح».

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣ـ ٨٤).

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يرقي ويقول: «امسح البأس، ربَّ الناس، بيدك الشفاء لا يكشف الكرب إلا أنت»(١).

٤ ـ صناعة المعروف ابتغاء وجه الله من إنظار المعسر، والوضع عنه، ومن بر الوالدين، وحفظ الفروج، وإعطاء الأجير أجره، يقول النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أن ينجيَّه الله مِنْ كُرَبِ يومِ القيامة، فلينفِّس عن معسرٍ أو يضع عنه»(٢).

ويقول أيضًا: «مَنْ أراد أن تُستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرِّج عن معسر»(٣).

ويقول أيضًا: «بينما ثلاثة نفر مِمَّنْ كان قبلكم إذ أصابهم مطر، فأووا إلىٰ غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنَّه قد صَدَقَ فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لي أجيرٌ عملَ لي، علىٰ فَرَقٍ من أرزٍّ، فذهب وتركه، وإني عمدتُ إلىٰ ذلك الفَرَق، فزرعتُه، فصار من أمره أني اشتريتُ منه بقرًا، وإنه أتاني يطلب أجره، فقلتُ له: اعمد إلىٰ تلك البقر، فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فَرَقٌ من أرز، فقلتُ له: اعمد إلىٰ تلك البقر، فإنها من ذلك الفَرَق، فساقها، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك فَفَرِّج عنا، فانساحت عنهم

---

(١) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٦/ ٥٠ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا به.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب فضل إنظار المعسر.. ص ٦٨٤ رقم ١٥٦٣ من حديث أبي قتادة مرفوعًا به.

(٣) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٢/ ٢٣، وأورده الهيثمي في: مجمع الزوائد ٤/ ١٣٣، وعقب عليه بقوله: «رواه أحمد، وأبو يعلىٰ، ورجال أحمد ثقات».

الصخرة، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأتُ عنهما ليلة، فجئتُ وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، وكنتُ لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهتُ أن أوقظهما، وكرهتُ أن أدعهما فيستكنَّا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإنت كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك، فَفَرِّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء، فقال الآخر: اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لي ابنة عمٍّ من أحب الناس إليَّ، وأني راودتها عن نفسها، فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرتُ فأتيتها بها، فدفعتها إليها، فأمكنتني مِنْ نفسها، فلمَّا قعدتُ بين رجليها، قالتْ: اتق الله، ولا تفضّ الخاتم إلا بحقِّه، فقمتُ وتركتُ المائة دينار، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك، فَفَرِّج عنَّا، فَفَرَّجَ الله عنهم، فخرجوا»[1].

الجانب الخامس: ماهية تيسير العسير، وثمراته، وفوائده، وطريق الظفر به:

ماهية تيسير العسير:

تيسير العسير: مركب إضافي مؤلف من: (تيسير) و(العسير)، ولابد من معرفة كلٍّ منهما على حدة، ثم معرفة المعنى بعد التركيب على النحو التالي:

أ. ماهية التيسير:

التيسير لغة: يأتي على معانٍ، نذكر منها:

١ـ التسهيل، تقول يسر الأمر تيسيراً، تعني: سهل تسهيلاً.

٢ـ الاستغناء، تقول: يسر فلان يساراً، ويسري: تعني: استغنى.

٣ـ التهيئة، والإعداد، تقول يسَّر له الأمر تعني: هيَّأه، وأعدَّه[2].

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب أحاديث الأنبياء: باب حديث الغار، ص ٥٨٤ رقم ٣٤٦٥، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: باب قصة أصحاب الغار الثلاثة.. ص ١١٨٨ رقم ٦٩٤٩ كلاهما من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢/ ١٠٦٤ ـ ١٠٦٥ بتصرف كثير.

ولا تعارض بين هذه المعاني، إذ هو: تهيئة الأمر، وإعداده، وتسهيله بصورة يكون معها الغنى، والسَّعة، والرخاء.

التيسير اصطلاحًا:

هو انفراج الأمر، وتسهيله بصورة يكون معها السعة والرخاء[1].

ب- ماهية التعسير:

لغة: التعسير لغة، يأتي على معانٍ، نذكر منها:

١- الصعوبة والشدة، تقول تعسَّر الأمر، وتعاسر، واستعسر إذا اشتد، والتوى.

٢- التضييق، تقول: عسَّر عليه أي ضيَّق، وتعسير الأمر، تضييقه[2].

ولا تعارض بين المعنيين، إذ هو التضييق بصورة تكون معها مشقة وصعوبة، وشدة.

اصطلاحًا: التضييق على المرء -لسبب أو لآخر- بما يعرِّضه للشدة والمشقة والحرج.

جـ- ماهية تيسير التعسير:

تيسير العسير هو: السهولة بعد الشدة، والانفراج بعد الضيِّق.

ثمرات تيسير العسير وفوائده:

لتيسير العسير ثمرات وفوائد، نذكر منها:

١- استئناف المسير بعد القعود، والمواصلة بعد الانقطاع.

٢- زيادة المعرفة بالله وما تؤدي إليه من تعميق الولاء والحبِّ له سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٣٠/ ١٤٣ سورة الليل بتصرف كثير.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٠ بتصرف كثير.

٣ ـ معرفة قيمة الأخذ بالأسباب في إنجاز الأمور، وقضاء الحوائج، وإعانة الله للعبد بما يجعل العسر يسراً، والشدة رخاءً.

طُرق تيسير العسير:

لتيسير العسير طرق، نذكر منها:

١ ـ بذل الأسباب التي بمقدور الإنسان القيام بها، فإذا أغلق باب أمام المرء لزمه أن يفتح باباً آخر، لا أن يضعف، ويستكين رافعًا الراية البيضاء، إذ الأقدار تُرفع بالأقدار، هذا رسول الله ﷺ يرىٰ مكة قد وصدت أبوابها في وجهه، فيتجه إلىٰ الطائف فيجد أنها ليست بأحسن حالاً من مكة، فيتجه إلىٰ الناس في موسم الحج، ويعرض نفسه عليهم في رحالهم ومنازلهم، قائلاً: «هل من رجلٍ يحملني إلىٰ قومه لأبلِّغ رسالة ربِّي، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ رسالة ربِّي»(١).

ومازال كذلك حتىٰ رزقه الله نفراً من يثرب آمنوا به، ووعدوه أن يقوموا بنشر الدعوة في بلدهم، وأرسل معهم مَنْ يُعلِّمهم، ويؤمهم في الصلاة، ثم كان عقدُ البيعة، والهجرة، والنصرة، وقامت الدولة، وزالت الشدة والعسر، وحل محلَّ ذلك الرخاء، واليسر.

٢ ـ سعي الآخرين إلىٰ التيسير عن المعسرين طمعًا في الأجر الذي وعدم ربهم به علىٰ لسان نبيهم محمد ﷺ، لاسيما أصحاب الهمم العالية، والنفوس الكبيرة، إذ جاء الحث علىٰ السعي في التيسير علىٰ مَنْ ابتُلوا بالعسر، في جملة من الأحاديث، منها قوله ﷺ:

«من أنظر معسراً، أو وضع عنه، أظلَّه اللهُ في ظلِّه»(٢).

---

(١) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٣/ ٣٢٢، والحاكم في: المستدرك ٢/ ٦٢٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، **وأورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد ٦/ ٤٦ وعقَّب عليه بقوله: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الزهد: باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، ص ١٢٩٩ رقم ٧٤/ ٣٠٠٦/ ٧٥١٢ من حديث أبي اليسر مرفوعًا به، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب البيوع: باب ما جاء في إنظار المعسر والرفق به، ص ٣١٧ رقم ١٣٠٦ =

وقال ﷺ: «مَنْ سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فليُنَفِّس عن معسر أو يضع عنه»(١).

وقوله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عن مؤمنٍ كربةً من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كرب يوم القيامة، ومَنْ يسَّرَ على مُعسرٍ يَسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَنْ سَتَرَ مُسلمًا ستره الله في الدنيا في الآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...» الحديث(٢).

وقوله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله ـ تعالى ـ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»(٣).

=من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بلفظ: «مَنْ أنظر مُعسرًا، أو وضع له، أظَلَّهُ الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه»، وعقب عليه بقوله: «حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه»، **والدارميُّ** في: السُّنن: كتاب البيوع: باب فيمن أنظر معسرًا ٣/ ١٦٨٦ رقم ٢٦٣٠ من حديث أبي اليسر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، بلفظ مسلم.

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب فضل إنظار المعسر والتجاوز في الاقتضاء من الموسر والمعسر، ص ٦٨٤ رقم ٣٢ ١٥٦٣ / ٤٠٠٠ من حديث أبي اليسر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ص ١١٧٣، رقم ٣٨/ ٢٦٩٩ / ٦٨٥٣، **وأبوداود** في: السُّنن: كتاب الأدب: باب في المعونة للمسلم، ص ٦٩٧ رقم ٤٩٤٦، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الستر على المسلمين، ص ٤٤٩ رقم ١٩٣٠ كلهم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب البيوع: باب مَنْ أنظر معسرًا، ص ٣٣٣ رقم ٢٠٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ مرفوعًا، قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»، ومسلم في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب فضل إنظار المعسر، والتجاوز في الاقتضاء من الموسر، والمعسر، ص ٦٨٤ رقم ٣٠/ ١٥٦١ / ٣٩٩٧ من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، وهذا لفظه.

٣ ـ الدعاء الدائم أن ينجز ما وعد به سبحانه من جعله بعد عسر يسرا، مع اليقين بالإجابة، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦).

٤ ـ التجوُّل في سير السلف، وكيف كانت نظرتهم للشدائد والعسر، فإن هذا من شأنه تقوية العزائم، والمضيِّ في الطريق إلى نهايتها، مع الفأل الحسن.

هذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يكتب إلى أبي عبيدة ـ وهو محصور في بلاد فارس ـ قائلاً: «مهما تنزل بامرئ شديدة، يجعل الله بعدها فرجا، فإنه لَنْ يغلبَ عُسرٌ يُسرين»(١).

وهذا أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) يقول: «العُسرُ بين اليُسرين، إمَّا فرجٌ عاجل في الدنيا، وإمَّا ثوابٌ آجل في الآخرة»(٢).

الجانب السادس: سرُّ عناية الإسلام بالشباب، ومنهج النهوض بهذا الشباب:

إن سرَّ عناية الإسلام بالشباب: أن الشباب هم أمل المستقبل، وهم أقدر من غيرهم على تحمل المسئولية فكريًّا، وبدنيًّا، فضلاً عن سلامة صدورهم من الأحقاد، والضغائن، ونظافة عقولهم من الأفكار والمبادئ الهدامة.

ومنهج نهوض الإسلام بالشباب يتمثل في:

١ ـ احتضان القدوات، والكبار لهم، ومعايشتهم على الدوام وتوجيههم ومتابعتهم، من خلال هذا الاحتضان وهذه المعايشة، على نحو ما صنعه النبيُّ ﷺ مع ابن عباس حين أردفه خلفه، وساق إليه هذه التوجيهات الثمينة التي

(١، ٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور ٥/ ٢٩٣٨ ـ ٢٩٣٩.

تضمنها هذا الحديث، وعلى نحو ما صنعه مع معاذ بن جبل[1]، وأُبيٍّ بن كعب[2]، وأنس بن مالك، وغيرهم، وغيرهم.

٢ ـ وضعهم في المسئولية لإكسابهم خبرات ومهارات من ناحية ولملء الفراغ عليهم من ناحية أخرى، فلا يستغل هذا الفراغ من قِبَل شياطين الإنس، والجنّ.

فهذا عليٌّ بن أبي طالب يكلِّفه النبي ﷺ أن ينام في فراشه ليلة الهجرة ليرد الودائع إلى أصحابها، وليموِّه على الأعداء، فيفرح بهذا التكليف، ويقوم به على أحسن وجه.

وهذا حبيب بن زيد الأنصاري، يكلفه النبيُّ ﷺ وهو في الثالثة والعشرين من عمره بنقل رسالة بن مسيلمة الكذاب زجره فيها عن غيِّه، حين ادَّعى النبوَّة، واستشرى خطره في كل أنحاء الجزيرة لاسيَّما في بني حنيفة، فيمضي لتنفيذ أمر رسول الله ﷺ غير مكترث بالعواقب.

وهذا أسامة بن زيد يضعه النبي ﷺ أميراً على الجيش الذي وجَّههُ إلى الروم قبل وفاته ﷺ بقليل، ولم يتجاوز أسامة الثامنة عشرة من عمره، فينجح في إمارته أيما نجاح... وهلم جرا.

٣ ـ الحرص على استخراج الطاقات، والمواهب المذخورة لديهم بكل الأساليب والوسائل الممكنة التي لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، ثم توظيف هذه الطاقات والمواهب، بما ينميِّها، ويعود عليهم، وعلى الأمة بل والبشرية بالنافع المفيد.

كان النبي ﷺ يسابق أصحابه، ويفتح لهم أبواب التنافس في الخير، فيقول

---

(١) مضى هذا في حديث حقّ الله على العباد.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب مناقب الأنصار: باب مناقب أبيٍّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ ص ٦٣٩ رقم ٣٨٠٩ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ لأبيٍّ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: [لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب... البيِّنة: ١]، قال: وسمَّاني؟ قال: نعم، قال: فبكى».

لهم ليلة إرسال الله الريح والملائكة على الأحزاب مع شدة البرد، والظلام: «مَنْ رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة»[1]، ومرة ثانية يقول لهم: «ليت رجلاً من أصحابي صالحًا يحرسني الليلة»[2].

٤ ـ النظر إليهم بتقدير واحترام، واستيعاب كل ما يقع منهم، فإن كان صوابًا حوفظ عليه مع العمل على تنميته، والرقي به إلى أقصى درجات الكمال، وإن كان غير صواب عدل به إلى الصواب مع الإقناع والرأفة والرحمة، ولا أدل على ذلك من هذا الشاب الذي جاء النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله: ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مَهْ، مَهْ، فقال: «ادنه»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبُّه لابنتك؟»، قال: لا، والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبُّونه لبناتهم»، قال: «أفتحبُّه لأختك؟» قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبُّه لعمتك؟» قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»، قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبَه، وحَصِّن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[3].

---

(١) **أخرجه أحمد** في: المسند ٥/ ٣٩٢، تاريخ الملوك والأمم للطبري ٢/ ٥٧٩، وعيون الأثر في فنون المغازي، والشمائل والسير لابن سيِّد الناس ٢/ ٦٥ مختصراً، **وابن إسحاق** بسنده إلى محمد بن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبدالله أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟.. الحديث، انظر: الجامع في السيرة النبوية لسميرة الزايد ٢/ ٧١٩.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ص ٤٧٧ رقم ٢٨٨٥ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبيُّ ﷺ سهر، فلما قدم المدينة قال: «ليت رجلاً... الحديث».

(٣) الحديث **أخرجه أحمد** في: المسند ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧ من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

وعن سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نَلْقَىٰ عدوَّنا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا علىٰ عدوِّنا، كان ذلك ما أحببناك، وإن كانت الأخرىٰ جلستَ علىٰ ركائبكَ، فلحقتَ بمن وراءنا مِنْ قومِنا، فقد تَخَلَّف عنك أقوامٌ يا نبيَّ الله، ما نحنُ بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقىٰ حربًا ما تخلَّفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك، ويجاهدون معك، فأثنىٰ عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير، ثمَّ بُنِيَ لرسول الله ﷺ عَريشٌ فكان فيه[1].

الجانب السابع: بعض النصوص الأخرى الواردة في معنى الحديث:

جاءت نصوص في معنىٰ الحديث، تقدم كثير منها:

قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦)، وقوله ـ تبارك وتعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨).

وقوله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: مَنْ عادَىٰ لي وليًّا فقد آذنتُهُ بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ومازال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه...»[2].

ويزاد عليها: قوله ﷺ: «مَنْ صَلَّ صلاة الصبح فهو في ذمَّة الله، فلا يطلبنَّكم الله من ذمته بشيء، فإن مَنْ يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبُّهُ علىٰ وجهه في نار جهنَّم»[3].

---

(١) الحديث **أخرجه ابن جرير الطبري** في: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٤٠، **والبيهقي** في: دلائل النبوة ٣/ ٤٤، **وابن سيد الناس في**: عيون الأثر ١/ ٢٥٢.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب المساجد: باب فضل صلاة العشاء، والصبح في جماعة، ص ٢٦٥ رقم ٢٦١، ٢٦٢، **وأحمد** في: المسند ٤/ ٢١٣ كلاهما من حديث جندب بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا به، وبنحوه.

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها :

١ ـ أنَّ مَنْ أراد الحفظ التام الذي لا يشوبه خوف ولا فزع فليحفظ دين الله بأن يأتي كلَّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة، ويدع كل ما لا يحبه الله، ولا يرضاه من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة.

٢ ـ أنَّ مَنْ حفظ دين الله، وطلب الله في أية لحظة، وعلى أيَّة حال وجد الله معه يُلبِّي طلبه بما فيه مصلحته، وسعادته في الدنيا والآخرة جميعًا.

٣ ـ أنَّ طلب قضاء الحاجات، والاستعانة الحقة، لا طريق لهما إلا الله، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، والذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وإذا كانت استعانةٌ بالمخلوقين، والطلب منهم فإنما ذلك من قبيل الأخذ بالأسباب العادية التي كُلفنا بها شرعًا.

٤ ـ أن على المرء أن يسير في الحياة مرفوع الهامة، عزيزًا كريمًا، لا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله، إذ الأمة كلها لا تستطيع جلب نفع له لا يريده الله، كما لا تستطيع دفع ضرٍ أراده الله.

٥ ـ أن على العبد أن يكون واثقًا مطمئنًا أنه إذا تكاثرتْ الخطوب، وتعاظمتْ الكروب، وضاق الأمر، فإن الفرج واقع حينئذٍ لا محالة، إذ مضت سنته ـ سبحانه ـ أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ولابدَّ من الصبر والتحمل حتى يأتي أمر الله، وعسى أن يكون قريبًا.

٦ ـ عنايته ﷺ بالشباب، وتعهده لهم بالتعليم والتوجيه والتربية ليقينه بأهميتهم، ودورهم الفاعل، والبناء في الحياة.

الحديث الأربعون

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ أبواب الجنَّة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيُغْفَرُ لكلِّ عبدٍ لا يُشركُ بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنْظِرُوا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا».

تخريج الحديث:

الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة: باب النهي عن الشحناء والتهاجر، ص ١٣٨٧ ـ ١٣٨٨ رقم ٢٥٦٥ بهذا اللفظ، غير أنه قال في رواية ثانية: «إلا المتهاجرين»، وفي رواية ثالثة: «إلا المتهجرين»، وبلفظ: «تُعرض الأعمال في كل يوم خميس، واثنين، فيغفر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ذلك اليوم لكل امرئٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اركوا هذين حتى يصطلحا، اركوا هذين حتى يصطلحا»، وبلفظ: «تُعرض الأعمال في كل جمعة مرتين: يوم الإثنين، ويومُ الخميس، فيُغفر لكل عبدٍ مؤمن، إلا عبدًا بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا أو اركوا هذين حتى يفيئا».

وأبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب فيمن يهجر أخاه المسلم ٥/ ٢١٦ رقم ٤٩١٦ بلفظ: «تفتح أبواب الجنة كلَّ يوم اثنين وخميس فيغفر في ذلك اليومين لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئًا، إلا مَنْ بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا».

والترمذي في: السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في المتهاجرين ٤/ ٣٢٧ رقم ٢٠٢٣ بلفظ: «تُفَتَّحُ أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس، فيُغفر فيهما

لمن لا يُشرك بالله شيئًا إلا المهْتجرين، يقال: رُدُّوا هذين حتى يصطلحا».

وعَقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، ويُروىٰ في بعض الحديث [ذروا هذين حتى يصطلحا]، قال: «ومعنى قوله المهْتجرين: يعني المتصارمين، وهذا مثل ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

وكتاب الصوم: باب ما جاء في صوم يوم الإثنين والخميس ٣/ ١٢٢ رقم ٧٤٧ بلفظ: «تُعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس، فأحبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم»، وعقَّب عليه بقوله: «حديث أبي هريرة في هذا الباب حديث حسن غريب». كلهم من حديث أبي هريرة.

وأورده المنذري في: الترغيب والترهيب: كتاب الأدب وغيره: باب الترهيب من التهاجر، والتشاحن، والتدابر ٣/ ٤٥٨ـ٤٥٩ رقم ١٧ من جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «تُعرض الأعمال يوم الإثنين، والخميس فمن مستغفر فيُغفر له، ومن تائب فيُتاب عليه، ويرد أهل الضغائن بضغائنهم حتى يتوبوا»، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط، ورواته ثقات».

وأورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: كتاب الأدب: باب ما جاء في الشحناء ٨/ ٦٦ من حديث جابر مرفوعًا بلفظه، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

وأورد الهيثمي ٨/ ٦٦ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تُنسخ دواوين أهل الأرض، في دواوين أهل السماء في كل اثنين وخميس، فيُغفر لكل مسلم لا يشرك بالله شيئًا إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء»، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

المعنى الإجمالي للحديث:

رسالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا هي العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثلة في عمارة الأرض، ودعوة القاعدين إلى المشاركة في هذه العمارة، وحمايتها من أن

يعبث بها العابثون، وأن يتطاول عليها المتطاولون، ولاشك أنها رسالة ضخمة تستوفي عمر الإنسان كله، وما ينجرها على النحو اللائق المطلوب، سيَّما وأمامه عقبات ومعوِّقات من النفس الأمَّارة بالسوء، والدنيا بزخارفها وزينتها، أو بشدائدها وامتحاناتها، وكذلك شيطان الجن القاعد للإنسان بكلِّ طريق، وأيضًا أعوانه من شياطين الإنس الذين يصعب التعامل معهم لما لديهم من إمكانات ضخمة، وموارد هائلة، هذه رسالة الإنسان وما يصحبها من عقبات.

ولكن الله رحمة منه وفضلاً أعان الإنسان لأداء هذه الرسالة، وما يكتنفها من عقبات ومعوقات بعدة إعانات، ومن بينها الأخوَّة الإسلامية، إذ هي تعين المرء على تقييم شخصيته، وبالتالي تقويمها، وكذلك هي تكسب المرء خبرات وتجارب، وتفتح له أبوابًا شتى لتحصيل الأجر والثواب، وتعينه على تحقيق المطلوب منه بأقل التكاليف، ومن أقصر طريق، كما أنها تحفظ له هيبته، وحرماته، وتملأ عليه الفراغ، فلا تبقى لحظات يمكن أن تستغل من قبل شياطين الإنس، والجن، وأخيراً تكون سببًا في منح الله نصره التام للمؤمنين.

ولاشك أن تقوية أواصر الأخوَّة الإسلامية تحتاج إلى أساليب شتى، ووسائل كثيرة، لعل من أبرزها الترغيب والترهيب، والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يتضمن الدعوة إلى تقوية أواصر الأخوَّة الإسلامية عن طريق الترغيب والترهيب، إذ يبين النبي ﷺ فيه أن أعمال العباد تُعرض على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من كلِّ اثنين وخميس من كل جمعة، فينظر فيها، فإن كانت من كافر أمهله، وإن كانت من مؤمن لا يُشرك بالله شيئًا، وليس بينه وبين أخيه حقد، أو بغضاء بصورة تنتهي إلى العداوة والقطيعة فإنه ـ سبحانه ـ يغفر له.

أما إذا شاب الإيمان شرك فإن هذا الشرك يحول دون مغفرة الله له، بل يحبط عمله، وكذلك من بينهما شحناء يقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا، مُكررًا ذلك ثلاث مرات، تأكيداً أنه لا مغفرة لكلٍّ من هذين إلا بالتطهر من هذه الشحناء بكل ما يمكن من أساليب ووسائل، شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف.

ولكي تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب:

الجانب الأول: بيان معنى فتح أبواب الجنة في كل اثنين وخميس من كل جمعة:

ذهب القاضي عياض، والإمام القرطبي: إلى أن فتح أبواب الجنة في هذين اليومين على حقيقته، ولا داعي للتأويل، وهذا الفتح يقتضي كثرة المغفرة، ومنح الثواب الجزيل، ورفع الدرجات، وعلو المنازل، أو هو التأهل والانتظار من الخزنة لمن يموت في هذين اليومين، ممن غُفِرت ذنوبه، وكثرت حسناته، وعلت درجته ومنزلته، أو يكون علامة للملائكة أن الله غفر في هذين اليومين للموحِّدين، وسائر العاملين لاسيَّما المتحابين في الله - عزَّ وجلَّ -.

يقول القاضي عياض: «ويحتمل أن يكون على ظاهره، وأن فتحها علامة لذلك»[1]، أي كثرة الصفح، والغفران، ورفع المنازل، وإعطاء الثواب الجزيل.

ويقول الإمام القرطبي: «وفتح أبواب الجنة في هذين اليومين محمول على ظاهره، ولا ضرورة تحوج إلى تأويله، ويكون فتحها تأهلاً، وانتظاراً من الخَزنة لروح مَنْ يمت في ذنيك اليومين مِمَّنْ غُفِرَت ذنوبه، أو يكون فتحها علامة للملائكة على أن الله - تعالى - غفر في ذنيك اليومين للموحِّدين، والله تعالى أعلم»[2].

وذهب الإمام الباجي: إلى أن فتح أبواب الجنة في هذين اليومين من كل جمعة إنما هو كناية عن كثرة المغفرة، والثواب الجزيل، والمكانة العالية الرفيعة، يقول - رضي الله عنه -: «معنى فتحها: كثرة الصفح، والغفران، ورفع المنازل، وإعطاء الثواب الجزيل»[3].

---

(١) انظر: إكمال المعلم ٨/ ٣٣-٣٤.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم ٦/ ٥٤٠.

(٣) انظر: إكمال المعلم ٨/ ٣٣-٣٤.

الجانب الثاني: معنى عرض الأعمال في كل اثنين وخميس من كل جمعة:

ذكر الإمام القرطبي عدة معانٍ لعرض الأعمال في هذين اليومين من كل جمعة هي:

١ ـ نقل الأعمال من صحف الكرام الكاتبين إلى اللوح المحفوظ، ولعل ما يقوِّي هذا المعنى حديث أبي هريرة المذكور آنفًا في تخريج الحديث، ولفظه:

«تنسخ دواوين أهل الأرض في دواوين أهل السماء كل اثنين وخميس فيُغفر لكل مسلم لا يشرك بالله شيئًا إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء»(١).

٢ ـ مباهاة الله الملائكة بأعمال بني آدم الصالحة التي تقع منهم طوال الجمعة في هذين اليومين المباركين، كما يباهي بالحجيج في يوم عرفة، وكما يباهي بالمجتمعين في بيوت الله لتلاوة كتابه سبحانه وتدارسه.

٣ ـ إعلام الملائكة المقبول من المردود من أعمال بني آدم لتقوم بعرضها على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيغفر لمن يشاء، ويؤخر من يشاء.

يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وعرض الأعمال المذكورة إنما هو ـ والله تعالى أعلم ـ لتنقل من صحف الكرام الكاتبين إلى محل آخر، ولعله اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩)، قال الحسن: إن الخزنة تستنسخ الحفظة من صحائف الأعمال.

وقد يكون هذا العرض في هذين اليومين للأعمال الصالحة مباهاة بصالح أعمال بني آدم على الملائكة، كما يباهي الله الملائكة بأهل عرفة.

وقد يكون هذا العرض لتعلم الملائكة المقبول من الأعمال من المردود، فتعرضها على الله، فيقول الله تعالى: ضعوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا خيراً، فيقول الله ـ تعالى ـ: «إن هذا كان لغيري، ولا أقبل من العمل إلا ما ابتُغي به وجهي»(٢).

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) انظر: المفهم ٦/ ٥٤٠ ـ ٥٤١.

الجانب الثالث : المراد بالذنوب التي تُغفر في كل اثنين وخميس من كل جمعة :

المراد بالذنوب التي يغفرها الله في هذين اليومين من كل جمعة هي الصغائر، أما الكبائر فلا تُكفر إلا بالإقلاع، والاجتناب، لقوله سبحانه:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

ولقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجْتُنِبت الكبائر»(١).

وهذا رأي القرطبي(٢).

ورأى أيضًا أن رحمة الله تسع كل شيء، وأن فضله يعم الأحياء والأموات، كأنه يشير إلى جواز مغفرته سبحانه الكبائر(٣).

ويمكن الجمع بين الرأيين أن الله سبحانه إذا غفر الصغائر، فإن هذه المغفرة قد تكون سببًا في انشراح الصدر، وطمأنينة القلب بحيث يُقْبِل العبد طواعية على ترك الكبائر، واجتنابها، وتكون هذه أمارة القبول، والتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

الجانب الرابع : ماهية الشحناء، وأسبابها، وآثارها :

تطلق الشحناء على عدة معانٍ، منها:

١ ـ الحقد أو الضغينة، وقد جاء مفسَّرًا في حديث جابر مرفوعًا بلفظ: «... ويرد أهل الضغائن بضغائنهم حتى يتوبوا»(٤).

---

(١) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس، ص ١٤٤، رقم ٢٣٣ من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٢) انظر: المفهم ٦/ ٥٤٠.

(٣) انظر: المفهم ٦/ ٥٤٠.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

وكما جاء في حديث مكحول عن أبي ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «يطلع الله إلى عباده ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين، ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه»(١).

٢ ـ العداوة والبغضاء(٢).

٣ ـ امتلاء القلب(٣).

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ الشحناء هي امتلاء القلب بالحقد والضغينة بصورة تؤدي إلى العداوة والبغضاء، بل الفرقة والقطيعة.

وهذا هو المراد في الحديث كما دلتْ عليه رواية الترمذي: «إلا المهتجرين» يعني: المتصارمين.

والأسباب المؤدية إلى الشحناء كثيرة.. نذكر منها:

١ ـ التفاخر بالأصل، إذ يدَّعي كل من المتشاحنين أنه من أصل أرفع من غيره، وأكرم، على نحو ما ادعاه إبليس لنفسه بالنسبة لآدم عليه السلام، إذ لما أمره الله بالسجود لآدم عليه السلام، وأبى، سأله ربُّ العزَّة ـ وهو أعلم ـ:

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (ص: ٧٥)، فأجاب إبليس: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (ص: ٧٦).

وعلى نحو ما ادعاه اليهود والنصارى، إذ قالوا:

﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (المائدة: ١٨).

وقد حملهم هذا الادعاء أن يستبيحوا حرمة مَنْ عداهم في: عقيدة، ودم، وعقل، وعرض، ومال، قائلين: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (آل عمران: ٧٥).

---

(١) الحديث **أورده المنذري** في: الترغيب والترهيب ٣/ ٤٦١، وعقب عليه بقوله: «رواه البيهقي، وهو مرسل جيِّد».

(٢، ٣) انظر: إكمال المعلم للقاضي عياض ٨/ ٣٤، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ٦/ ٥٣٩.

وكذلك ادَّعت طبقة النبلاء في أوروبا الشرقية، والغربية، ونظر الجنس الأبيض إلى الجنس الأسود نظرة اشمئزاز، واحتقار، وكانت التفرقة العنصرية التي اصطلى العالم بنارها في قرون خلت لاسيَّما القرن الماضي، ومازال العالم يصطلي بنارها، وكان ذلك شائعًا في العرب قبل الإسلام، حيث كانوا يجتمعون في عكاظ، ومِجَنَّة، وذي المجاز، لاسيَّما بعد الانتهاء من الحج ويتبارون في التفاخر بالأحساب والأنساب، فيقول هذا عن نفسه إنه تيمي، والثاني إنه قيسي، والثالث إنه قرشي، وهكذا دواليك، وقد انتهى بهم ذلك إلى الأحقاد، والخصومات، والقطعية، وذلك هو التشاجن.

٢ـ **التفاخر بالنعمة، مع نسيان المنعم**: ذلك أن نعم الله على العبد لا تُعدُّ، ولا تُحصى، وهي مع ذلك متفاوتة من عبدٍ لآخر، حسب تقدير العليم الحكيم، وقد يحدث أن يقف المرء عند نعمة أو أكثر أُعطيها، وَحُرِمَ منها الآخرون، ويتفاخر عليهم بها ناسيًا أو مُتناسيًا المنعم سبحانه وتعالى، وحينئذٍ تكون الأحقاد، وربما الخصومات والقطيعة، على نحو ما ادَّعى جبار مصر فرعون، الذي قال للناس أنا ربكم الأعلى، وهو يردُّ على موسى لما طلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، وأن يخضع لله رب العالمين، إذ جاء في ردِّه:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ (الزخرف: ٥١ـ٥٣).

وعلى نحو ما قال قارون لما نصحه قومه ألا يفرح، إن الله لا يحب الفرحين، وأن يبتغ فيما أتاه الله الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، إذ قال:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ (القصص: ٧٨).

وعلى نحو ما قال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره:

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (الكهف: ٣٤).

٣. **حبُّ الدنيا والتنافس عليها**: إذ إن حب الدنيا والتنافس عليها يؤدي إلى الأحقاد، والكراهية، والخصومات، والقطيعة.

وهذا ما خشيه النبي ﷺ على أمته، إذ قال: «فأبشروا، وأمِّلوا ما يسركم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطت على مَنْ قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم»(١).

وإذ قال: «إذا فُتِحت عليكم فارس، والروم، أي أقوم أنتم؟» قال عبدالرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»(٢).

٤. **إهدار العلاقات الاجتماعية** من: إلقاء السَّلام، أو ردَّه، وبذل النصيحة، والسؤال عن الغائب، والتهنئة بالنعمة، والمواساة في الشدة، وعيادة المرضى، وعدم الخطبة على الخطبة، والبيع على البيع، والحقد، والحسد، ونحو ذلك، فإن إهدار هذه العلاقات يوغر الصدور، وقد يؤدي إلى العداوة والقطيعة، والفرقة.

حسبنا قوله ﷺ عن آثار الحسد، وهو مما نهى عنه الشرع الحنيف، بحيث يُعدُّ فاعله مهدراً العلاقات الاجتماعية: «لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(٣).

---

(١) هذا جزء حديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الجزية والموادعة: باب منه ٤/ ١١٧ ـ ١١٨، وكتاب المغازي: باب منه ٥/ ١٠٨، وكتاب الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/ ١١٢، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه ٤/ ٢٢٧٣ رقم ٢٩٦١ / ٦ كلهم من حديث عمرو بن عوف الأنصاري مرفوعًا به، وبنحوه.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق، باب منه ٤/ ٢٢٧٤ ـ ٢٢٧٥ رقم ٢٩٦٥ / ٧ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٣) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر... ٨/ ٣٣، **ومسلم** في: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم التحاسد ٤/ ١٩٨٣ رقم ٢٥٥٩ / ٢٣ كلاهما من حديث أنس بن مالك مرفوعًا.

وقوله ﷺ عن المراء، والكذب، والمزاح، والوقوع فيها إهدار للعلاقات الاجتماعية: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا...»[1].

وقوله أيضًا: «ما ضلَّ قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف: ٥٨)[2].

وقوله كذلك: «... واتقوا الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

وفي رواية: «إياكم والشح، فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[3].

٥. تصديق الوشاة فيما ينقلون عن الآخرين دون تمحيص وتثبت، إذ هدف الوشاة تقطيع أواصر محبة المتآلفين، وتمزيق وحدة صف المترابطين، ووسيلتهم نقل الكلام على غير وجهه مع التزيين والتحسين، ولا ينبغي تصديق هؤلاء قبل التمحيص، والتثبت، وإلا تحقق لهم ما يريدون.

قال تعالى ناهيًا عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، لما هو معروف عن هذه البطانة من إيقاع الفرقة بين المؤمنين:

---

(١) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق ٥/ ١٥٠-١٥١ رقم ٤٨٠٠ من حديث أبي أمامة مرفوعًا، **وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني** في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٤٧-١٥١ رقم ٢٧٣، وعزاه إلى أبي داود وساق له شاهدًا يرتقي به إلى درجة الحسن - كما قال -.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٦ رقم ٢٥٨٧/ ٥٦ من حديث جابر بن عبدالله مرفوعًا بهذا اللفظ، **وأحمد** في: المسند ٢/ ٤٣١ من حديث أبي هريرة مرفوعًا بنحوه.

(٣) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السنن: كتاب الزكاة: باب في الشح ٣/ ٣٢٤ رقم ١٦٩٨، **وأحمد** في: المسند ٢/ ١٦٠، ١٩١، ١٩١ كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنه - مرفوعًا، واللفظ لأبي داود.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

ودعا إلى التثبت والتمحيص فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ٩٤).

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات: ٦).

وقال ﷺ: «التأنِّي من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير إلى الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد»(١).

وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، فقلتُ يا رسول الله: ترسلني، وأنا حديث السِّنِّ، ولا علمَ لي بالقضاء؟

فقال: «إن الله سيهدي قلبك، ويثبِّتُ لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضيَنَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعتَ من الأول، فإنه أحرىٰ أن يتبين لك القضاء»، قال: فما زلتُ قاضيًا، أو ما شككتُ في قضاء بعد(٢).

---

(١) الحديث **أخرجه الترمذي** في: السُّنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء في التأنِّي والعجلة ٤/ ٣٢٢ رقم ٢٠١٢ من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»، وعقب عليه بقوله: «هذا حديث غريب، وقد ضعَّف بعض أهل الحديث: عبد المهيمن بن عباس بن سهل، وضعَّفه من قِبل حفظه، والأشج بن عبد القيس اسمه: المنذر بن عائذ».

(٢) الحديث **أخرجه أبو داود** في: السُّنن: كتاب القضاء: باب كيف القضاء، ص ٥١٤ ـ ٥١٥ رقم ٥٣٨٢، **وأحمد** في: المسند ١/ ٨٨، ١٣٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٦، **وابن ماجه** في: السنن: كتاب الأحكام: باب ذكر القضاء، ص ٣٣٠، رقم ٢٣١٠ كلهم من حديث علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

ولعل حادثة الإفك التي تولى كبرها عبدالله بن أبيٍّ بن سلول، وصدَّقها نفرٌ من المسلمين كمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وزينب بنت جحش وغيرهم، وكادت تأتي على وحدة المجتمع، لولا أن الله أنزل في براءة عائشة قرآنًا يُتلى إلى آخر الزمان، لعل هذه الحادثة هي خير ما يشرح هذا السبب.

٦ـ **التعصب للمذهب، والإمام، والبلد، والقبيلة، ونحو ذلك**، إذ هذا التعصب يقتضي الإعلاء من قدر ما يُتعصب له، والحط من قدر غيره، وذلك يثير الشحناء، ويزرع الأحقاد، يقول النبي ﷺ: «... ومَنْ قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فَقُتِلَ فقتله جاهليةً...»(١).

٧ـ **التفاوت في امتلاك الثروة**، ذلك أن هذا التفاوت يزرع الأحقاد في نفوس الفقراء على الأغنياء، سيَّما إذا شح الأغنياء فامتنعوا من أداء حقِّ الله في أموالهم، فضلاً عن مواساة هؤلاء الفقراء ساعة الشدة، ولعل هذا هو المفهوم من قوله ـ سبحانه ـ:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

٨ـ **الكبت، والقهر**، ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما يجيش بصدره، وعما يجول بخاطره، وأضيف إلى ذلك القهر في أيِّ صورة من صوره، سبًّا، أو تجريحًا، أو سخرية واستهزاءً، أو اعتقالاً، أو تحديد إقامة، أو سجنًا وتجويعًا، أو ضربًا وتخويفًا، ونحو ذلك، وطال أمد هذا، فإن المرء يظل يختزن في داخله، ويحقد على مَنْ كان سبب ذلك فتكون الخصومات، ومن ثم تكون الفرقة، والقطيعة.

---

(١) الحديث جزء حديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كلِّ حال، ص ٨٣٠ـ٨٣١ رقم ٥٣/ ٤٧٨٦ (١٨٤٨) ورقم ٥٤/ ٤٧٨٨، **وأحمد** في: المسند ٢/ ٢٩٦ كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

ولعل هذا هو السر في دعوة الإسلام إلى الشورى، وتحريم جلد الظهور، وسلب الناس أموالهم، والسخرية، والاستهزاء بهم، إذ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ (الحجرات: ١١).

وإذ يقول النبي ﷺ: «رجلان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان ظلوم غشوم، وآخر عالٍ في الدين، مارق منه»(١).

وفي رواية: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان ظلوم غشوم، وغالٍ في الدين، يشهد عليهم، ويتبرأ منهم»(٢).

وقال ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا...»(٣).

الآثار المترتبة على الشحناء:

أمَّا على الفرد، فنذكر منها:

١ ـ القلق النفسي، والاضطراب القلبي، إذ يأبى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يمنح القلب المشحون بالضغينة الأمن النفسي، والطمأنينة القلبية، كما يُفهم من قوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٢).

(١، ٢) الحديث بروايتيه **أورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب في أئمة الظلم والجور، وأئمة الضلالة ٥/ ٢٣٥، ٢٣٦ من حديث معقل بن يسار مرفوعًا، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما (منيع) قال ابن عدي: له أفراد، وأرجو أنه لا بأس به، وبقية رجاله الأول ثقات».

(٣) الحديث **أورده الهيثمي** في: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب في العدل والجور ٥/ ١٩٧، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، وعقب عليه بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨).

وما من شك في أن القَلِق والمُضْطَرِبَ لا يتمكن من أداء واجبه على النحو اللائق المنشود.

٢ ـ **محاولات الانتقام كأثر من آثار الضغينة والكراهية**، وقد يكون الانتقام سفك دم، أو سلب مال، أو نحو ذلك، وذلك فيه من الخسارة ما فيه، وحسبنا ما كانت عليه البشرية قبل الإسلام، من حروب وثارات بسبب ما كانت تنطوي عليه القلوب من ضغائن، وأحقاد، وجاء الإسلام فعمل على تطهير القلوب، وتزكية النفوس مِنْ كل ما علق بها من شوائب، وأدران، وبالتالي القضاء على الحروب، والثارات، واليوم يريد الذين يتبعون الشهوات أن تملأ القلوب بالضغائن، والأحقاد، ويشيع بين أصحابها الانتقام والثارات.

٣ ـ **الحرمان من مغفرة الذنوب** على النحو الذي جاء في الحديث: «أنْظِروا هذين حتى يصطلحا»، وما من شك في أن عدم مغفرة الذنوب قد يصيب المرء بحال من اليأس، والقنوط يكون معها القعود عن أداء الواجب ولعل هذا المفهوم من قوله سبحانه:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

إلى غير ذلك من الآثار.

وأمَّا الآثار على المجتمع، فتتمثل في:

الفُرقة، والقطعية بين أبناء المجتمع، الأمر الذي يمكِّن منهم الأعداء ولاشكَّ أن تمكن الأعداء من أبناء المجتمع يحمل معه تغيير المفاهيم والتصورات، وبالتالي تغيير الثقافات والسلوكيات بحيث ينسى نفر من المسلمين رسالته في الأرض، ويعمل لغيرها فيكون العذاب في الدنيا والآخرة، والعياذ بالله.

وصدق الله الذي يقول:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٦).

الجانب الخامس: المراد بإنظار المتشاحنين حتى تصالحهما، والطريق إلى هذا التصالح:

المراد بالإنظار: التأخير، ومثله قوله ﷺ: «أركو» قال ابن الأعرابي: «يقال ركاه يركوه: إذا أخَّره»[1]، ويظل تأخيره مغفرة الذنوب، وبالتالي قبول الأعمال الصالحة من كل من المتشاحنين حتى يتم الصلح بينهما.

وطريق هذا الصلح تتمثل في:

١ ـ **حرص كلٍّ من المتشاحنين أن يسعى إلى استرضاء أخيه** حتى لو كان محقًا طمعًا في الظفر بالأجر الموعود به على لسان النبي ﷺ، إذ يقول ﷺ: «لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيُعْرِض هذا، ويُعْرِض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1].

وعن أبي الحسن المدائني، قال: «جرى بين الحسن بن عليٍّ، وأخيه الحسين كلام حتى تهاجرا، فلما أتى على الحسن ثلاثة أيام من هجر أخيه، فأقبل إلى الحسين، وهو جالس، فأكب على رأسه، فقَبَّلَهُ، فلما جلس الحسن، قال له

---

(١) انظر: إكمال المعلم للقاضي عياض ٨/ ٣٣، وعنه نقل الحافظ القرطبي في المفهم ٦/ ٥٤٠.

(٢) الحديث **اخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة: باب تحريم الهجر فوق ثلاثة أيام بلا عذر شرعي، ص ١١٢٢ ـ ١١٢٣ رقم ٦٥٣٢، **وأبو داود** في: السنن: كتاب الأدب: باب في هجرة الرجل أخاه، ص ٦٩٢ ـ ٦٩٣ رقم ٤٩١١، **والترمذي** في: السُّنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في كراهية الهجرة للمسلم، ص ٤٥٠ رقم ١٩٣٢، **ومالك** في: الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب ما جاء في المهاجرة، ص ٩٠٦ ـ ٩٠٧ رقم ١٣، **والبخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب الهجرة، وقول النبي ﷺ لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث، كلهم من حديث أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه.

الحسين: إن الذي منعني من ابتدائك، والقيام إليك: أنك أحقُّ بالفضل منِّي، فكرهتُ أن أنازعك ما أنتَ أحقُّ به»(١).

٢ ـ سعي المسلمين إلى الإصلاح بين المتشاحنين مع تحرِّي الصدق، والإخلاص، واحتساب ما يلحق بالمصلحين من إيذاء عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠).

ولقوله ﷺ: «كلُّ سُلامى من النَّاس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة...»(٢).

يقول الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «ومعنى: تعدل بينهما، تصلح بينهما بالعدل»(٣).

جاء عن عوف بن مالك بن الطفيل ـ هو ابن الحارث ـ وهو ابن أخي عائشة زوج النبيِّ ﷺ لأمها: أن عائشة حدثت أن عبدالله بن الزبير، قال في بيع، أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهينَّ عائشة، أو لأحجرنَّ عليها، فقالتْ: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالتْ: هو لله عليَّ نذر، ألا أكلِّم ابن الزبير أبدًا، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالتْ: والله لا أشفع فيه أبدًا، ولا أتحنث إلى نذري، فلما طال ذلك على ابن الزبير، كلم المسور بن مخرمة، وعبدالرحمن بن عبد يغوث ـ وهما مِنْ بني زهرة ـ وقال لهما: أنشدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي، فأقبل به المسور، وعبدالرحمن مشتملين بأرديتهما، حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السَّلام عليك، ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت: عائشة: ادخلوا، قالوا: كلنا؟

---

(١) انظر: مساوئ الأخلاق للخرائطي، ص ٢٠٠.

(٢) الحديث **أخرجه البخاري في**: الصحيح: كتاب الصلح: باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم، رقم ٢٧٠٧، **ومسلم في**: الصحيح: كتاب الزكاة: باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ٢٣٣٥، كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

(٣) انظر: رياض الصالحين، ص ٨٧، ط. دار السلام ـ القاهرة ـ الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

قالت: نعم، ادخلوا كلكم، ولا تعلم أنَّ معهما ابن الزبير، فلما دخلوا: دخل ابن الزبير الحجاب، فاعتنق عائشة، وطفق يناشدها، ويبكي، وطفق المسور، وعبدالرحمن يناشدانها إلا كلمته، وقبلتْ منه، ويقولان: إن النبيَّ ﷺ نهى عمَّا قد علمتِ من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة، والتحريج طفقتْ تذكرهما، وهي تبكي، وتقول: إني نذرتُ، والنذرُ شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقتْ في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانتْ تذكر نذرها بعد ذلك، فتبكي حتى تبلَّ دموعها خمارها»[1].

٣. **التذكير بالعواقب الفردية، والجماعة المترتبة على استمرار الشحناء**، إذ الوقوف على هذه العواقب، واليقين يحمل على السعي للتخلص من هذه الشحناء على هذه العواقب، والوسائل الممكنة، والتي لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف.

٤. **تقوية مَلَكَة تقوى الله لدى كلٍّ من المتشاحنين**، فإن هذه المَلَكَة إذا قَوِيَتْ ساعدتْ هذين على تطهير القلوب، وخفض كل واحد الجناح لصاحبه، وقبول كل ما يشير به المصلحون، ولم لا يكون ذلك، والنبي ﷺ يقول: «.. الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[2].

٥. **التذكير بالأسباب المؤدية إلى التشاحن**، ومحاولة التخلص منها سببًا سببًا في ضوء الكتاب والسنة، وتجارب المربين من المسلمين، وكذلك تجارب الأمم الأخرى، على ألا يتعارض ذلك مع مبادئ ديننا الحنيف.

---

(١) الحديث **أخرجه البخاري** في: الصحيح: كتاب الأدب: باب الهجرة، وقول الرسول ﷺ: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث» ٨/ ٢٥، من حديث عوف بن مالك بن الطفيل، عن عبدالله بن الزبير بهذا اللفظ.

(٢) الحديث **أخرجه مسلم** في: الصحيح: كتاب البر، والصلة، والآداب: باب الأرواح جنود مجندة، ص ١١٤٩ رقم ٦٧٠٨ ـ ٦٧٠٩ (٢٦٣٨)/ ١٥٩ ـ ١٦٠، **وأبو داود** في: السُّنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يؤمر أن يجالس، ص ٦٨٣ رقم ٤٨٣٤، كلاهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

وحين يكون المرء صادقًا في توجيهه، قاصدًا وجه الله بعمله، سيجد من ربِّه كل معية، وكل تأييد، وعون، على حدِّ قول سيدنا موسى عليه السلام:

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢).

ما يُستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا:

يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد، نذكر منها:

١ ـ خطورة الشرك بالله، حيث يكون سببًا في عدم المغفرة، بل والحرمان من قبول العمل، وإن كان زنة الجبال، وعدد حبات الرمال.

٢ ـ خطورة الشحناء، حيث تحول دون مغفرة الذنوب، بل وتؤدي إلى عدم قبول الصالحات، كما تؤدي إلى الفرقة والقطيعة، الأمر الذي قد يمكِّن الأعداء من الأمة، وينتهي بها إلى عذاب الدنيا والآخرة على النحو الذي مضى آنفًا.

٣ ـ ضرورة السعي وبسرعة لإزالة الشحناء بين المسلمين بكل الأساليب والوسائل الممكنة شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الدين الحنيف.

٤ ـ فضيلة يومي الإثنين والخميس لفتح أبواب الجنة فيهما، فيلجها كل مسلم يتفضل الله عليه بمغفرته ذنوبه، وقبول صالح عمله، وعليه فيجمل بكل مسلم انتهاز فضيلة هذين اليومين تارةً بالصيام، وتارة بالفقه في الدين، وتارة بالسعي في حوائج الناس، ونحو ذلك، كما كان يفعل النبي ﷺ، إذ مضى في الحديث قوله ﷺ: «تُعرض الأعمال يومي الإثنين والخميس، فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم»، وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يُحدِّث أصحابه كل خميس من كل أسبوع لئلا يسأموا أو يملُّوا.

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الحديث الحادي والثلاثون : حديث : ثلاثة لا ترىٰ أعينهم النار	٧
الحديث الثاني والثلاثون : حديث : مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين	٢٣
الحديث الثالث والثلاثون : حديث : معاذ في حق الله علىٰ العباد	٥٥
الحديث الرابع والثلاثون : حديث : سؤال النبي ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم	٧٣
الحديث الخامس والثلاثون : حديث : حنظلة الأسيدي	٨٧
الحديث السادس والثلاثون : حديث : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار	١٢٧
الحديث السابع والثلاثون : حديث : عجبًا لأمر المؤمن	١٤٩
الحديث الثامن والثلاثون : حديث : إن الصدق يهدي إلىٰ البر	١٧٧
الحديث التاسع والثلاثون : حديث : يا غلام إني أعلمك كلمات	٢٠٣
الحديث الأربعون : حديث : تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس	٢٣١
الفهرس	٢٤٩

إخراج : محمود محمد المتولي عوض حجاز
مصـر . المنصورة . مركز طلخا . ميت عنتر
☎ ٢٥٢٩٩٠٧ / ٠٥٠ / ٠٠٢ . محمول ٠١٢٧٤٠٣٢١٥

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٢٣١٤
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

يطلب في جمهورية مصر العربية من :

دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع - ج . م . ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣